

تأليف شيخنا العلامة العجوزي

في عصورها القديمة

(محاضرات - طبعة مريضة ومعدلة)

للكاتب عبد العزيز صباغ
أستاذ التاريخ القديم
عميد كلية الآثار الأسيوطية - جامعة القاهرة

الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
في الكتاب الجامعي

١٩٩٢

اهداءات ١٩٩٦

جامعة القاهرة

القاهرة

ناتج شبرا الخيرة العبرية

في عصورها القديمة

(محاضرات — طبعة مزيّدة ومعدّلة)

١١٥٤

١١٥٤

للدكتور عبد العزيز صالح

أستاذ التاريخ القديم

عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
بمبادرة من

النشر: مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

والكتاب الجامعي

١٩٩٢

رقم الايداع ١٩٩١/٩٩٧٠

I.S.B.N. 977-05-1076-9

فهرس الموضوعات

صفحة

٣	مقدمة عن البيئة والسكان
٨	الفصل الأول - مصادر التاريخ العربي القديم ودراساته الأثرية الحديثة
٢٥	الفصل الثاني - مهادت العصور التاريخية في شبه الجزيرة العربية
٣٠	خطوط الكتابة القديمة في شبه الجزيرة
٣١	كتابة المسند
٣٥	الخط النبطي وتطوره إلى الخط العربي
٤١	الفصل الثالث - تمهيد في جنوب شبه الجزيرة العربية
٤٤	مشكلة نشأة دولة سبأ في عصورها المبكرة
٥٤	الفصل الرابع - عهود المكربين في سبأ
٧١	١. مل الخامس - دولة قتبان
٩١	الفصل السادس - دولة معين
٩٦	الفصل السابع - دولة حضرموت
١٠١	الفصل الثامن - دولة أوسان
١٠٥	الفصل التاسع - عودة إلى دولة سبأ - في عصر الملكية السبئية
١١٦	الفصل العاشر - دولة سبأ وذو ريدان - وسيطرة حير
	الفصل الحادي عشر - مناطق الأطراف العربية
١٣٥	أولا - في المصادر المسارية
١٤٣	ثانياً - من نتائج التنشوف الأثرية الحديثة
	الفصل الثاني عشر - اجماعات العربية القديمة ذات الصلة برسالات الأنبياء :
١٤٩	أولا - مدين
١٥٢	ثانياً - قوم عاد
١٥٥	ثالثاً - التهودية ن
	الفصل الثالث عشر - من الممالك العربية المستقرة
١٥٩	أولا - دولة ددان ولحيان
١٦٢	ثانياً - دولة الأنباط
	الفصل الرابع عشر - من ممالك الأطراف العربية :
١٦٨	أولا - مملكة الحيرة
١٧٧	ثانياً - دولة الفساسنة
١٨٣	الفصل الخامس عشر - مملكة كندة في نجد وما حولها
١٩٤	الفصل السادس عشر - انتقال مركز الثقل إلى مكة ويشرب
٢١٣	خرائط وأشكال
٢٢٩	مراجع مختارة

سنة الفد عن العرب

مقدمة عن البيئة والسكان

توافر لشبه الجزيرة العربية موقعها المكانى المتوسط بين بلاد الشرق الأدنى القديم ، ودورها البشرى المؤثر فى تكوين السلالات الأكثر عدداً بين سكانه الأقدمين . كما كان لها نصيب أيضاً من دور الوساطة والتأثير فى بعض خطوط اتصالاته واقتصادياته .

وسوف يكتفى هذا الكتاب فى منهاجه العلمى بتحليل المسارات الرئيسية للتاريخ العربى القديم ، والمعالم والتطورات العامة لحضاراته ، مع تأجيل التوسع فى مشكلاتها وتفصيلها إلى مجلد أكبر نصدده قريباً على نسق بقية مؤلفاتنا الكبيرة السابقة ، بمشيئة الله تعالى .

وقد عرضنا فى سياق الفصل الأول من مؤلفنا عن الشرق الأدنى القديم (ج ١ - ١٩٦٧ ص ٩ - ١٣ ، أو ١٩٩ ص ١٤ - ١٩) لنوعية التأثيرات المتبادلة بين بيئة شبه الجزيرة العربية وبين أهلها فى العصور القديمة التى كانوا فيها أكثر التزاماً بظروف بيئاتهم وإحماياتها عما هم عليه الآن إلى حد كبير ، وذلك من حيث مدى انطباعهم فى بعض سبل معاشهم ، وبعض عاداتهم وعقائدهم ، وظروف تفرقهم أو تجمعهم ، وبدائتهم أو تخضرهم ، وتنقلهم أو استقرارهم ، بخصائص الاتساع الجغرافى الكبير لشبه الجزيرة وتنوع تضاريسها بين صحراوات ووحدات وجبال ووديان وسواحل ، مع غلبة الطبيعة الصحراوية عليها - وما ترتب على هذا من تفاوت أسباب ونتائج الحصب أو الجفاف ، ووفرة الإنتاج أو شح الموارد ، ومدى الأمن أو القلق ، والانطلاق أو الانطواء ، واليسر أو المشقة فى المعاش والاتصالات ، وهم جرا . ثم من حيث تباين الفرص التى أتاحت أمام مختلف جماعات السكان هنا أو هناك فى مجالات التبادل الاقتصادى والثقافى مع بقية الشعوب الحضارية القديمة المعاصرة لهم ، نتيجة لاختلاف مواقع إقامتهم بالنسبة لجيرانهم فى الداخل

وفي الخارج ، وبالنسبة لاتجاهات طرف التجارة البرية والبحرية الرئيسية القديمة .

وعرشنا في الفصل ذاته مسببات التحركات القبلية الداخلية القديمة ، أو الهجرات الداخلية المحدودة لمختلف البطون والعشائر في شبه الجزيرة . تبعا لتفرق موارد الماء والتسابق إلى مناطق الكلا . والتمايز المواطن ذات الحماية الطبيعية والأمن النسبي والموارد الكافية . ثم ما ترتب على هذا كله من تنمية الروح الاستقلالية لدى القبائل وبين الأفراد . في مقابل تغليب المصالح القبلية على المصلحة العامة أو المصلحة القومية . وصعوبة قيام وحدة عامة بين السكان ، حتى وحدهم دين الإسلام ودولة الإسلام .

وناقشنا كذلك في شيء من التفصيل المسببات المناخية والبشرية والاقتصادية المؤدية إلى خروج الهجرات البشرية الكبيرة من شبه الجزيرة إلى أطرافها . وفاضلنا بين النظريات المرجحة لتأثير دورات الجفاف الشديد المتباعدة . وبين الآراء المرجحة لتأثيرات فترات الضعف السياسي وتحول طرق التجارة الرئيسية . كما تابعنا المراحل المحتملة لهذه الهجرات حتى استقرارها في مناطق الهلال الخصيب أو بقربها .

الجنس والاسم :

تعددت الآراء قديما وحديثا حول تحديد الموطن الأصلي للجنس الغالب في شبه الجزيرة العربية ، وهي آراء رغم كثرة ترددها في مؤلفات التاريخ القديم . لا تكاد تؤدي إلى نتائج يقينية في سوى أمرين : أولهما أن ضخامة الكتلة الصحراوية لشبه الجزيرة قد ساعدت على النقاء الجنسي واللغوي بين أهلها ، ومناطقها الوسطى بخاصة ، إلى حد نسبي كبير . والقول بالنسبية هنا ضرورة علمية لازمة حيث لا وجود لسلالة بشرية لم تختلط بغيرها قط . وحيث دلت الشواهد التاريخية على أن اختلاط السلالات والأمم بعضها ببعض قد يؤدي أحيانا إلى تجديد حيويتها واثراء حضارتها . وذلك على شريطة ألا تطفئ العناصر الدخيلة على العناصر الأصلية فيها .

أما الأمر الثاني فهو ترجيح انتماء سكان شبه الجزيرة العربية في لبانتهم
أولى جوهرهم إلى سلالة بشرية متجانسة ذات خصائص رئيسية متشابهة
نعرف عادة باسم السلالة السامية (أو الساميين) . وهو اسم اصطلاحى نشره
الباحث النمساوى شلوسر (August Ludvig Schlozer) في أواخر القرن الثامن
عشر (١٧٨١م) واستعاره مما ذكرته أنساب التوراة (في مثل الإصحاح
العاشر من سفر التكوين) عن ولد لنوح عليه السلام يدعى شام أو سام في
مقابل ولد آخر يدعى حام . وولد ثالث يدعى يافث . وتواتر استخدام اسم
الساميين بين معظم الباحثين . وإن أصبح بعضهم يطلقونه أساساً على مجموعة
اللغات ذات الأصل المشترك التي استخدمها سكان شبه الجزيرة وأطرافها .
وجيرانهم ممن اتصلوا بهم بصلة الدم في الحلال الحبيب . أو بصلة الجوار
والاستيطان والتعامل على الساحل الأفريقى لجنوب البحر الأحمر . وعلى
الساحل الشمالى لأفريقيا (لاسيما في قرطاجة الفينيقية) ، وذلك أكثر مما يرتبونه
على سلالة بشرية مغلقة على ذاتها . وهذا اتجاه سليم نعود إليه في موضع آخر .
ويكفى أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم لم يذكر للنبي نوح عليه السلام غير
ولد واحد كان من المغرقين . وذلك مما يعنى عدم ضرورة الالتزام بالرواية
العبرية وإن لم ينفعها تماماً . وأن الفوارق الطبقية والشعبية التي وضعها العبرانيون
في أنساب التوراة بين الساميين وبين الحاميين هي فوارق مفتعلة لم يسبب
ظواهرها من حيث اختلاف اللون واللغة في واقع الأمر غير الفوارق المناخية
ومطالب البيئات وفوارق اللهجات . على أننا قد نضطر إلى استخدام تعبير
الساميين وتعبير الحاميين أحيانا في سياق أحداثنا نظرا لشيوعهما . ولأبأس
من ذلك ما دونا تبين حقيقة الأمر فيها .

ومع تحديد الأصل البعيد انتعشت اللغات السامية القديمة إلى شعبتين
كبيرتين كانت لكل منهما فروعها العديدة . وذلك من قبل أن توحد لغة
القرآن الدصحي بينهما . وكانتا : شعبة سامية شرقية شاعت بفرواعدها
ولهجاتها في غرب شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها وشمالها ، وفي أغلب
بلاد الشام وأغلب مصر . ثم بعد ذلك في جزء من شمال أفريقيا (و جزء من

شمال السودان)، بل وامتدت قديماً من اليمن إلى أكسوم في الحبشة وجزء من الساحل الأفريقي القريب منها. ثم شعبة سامية شرقية شاعت بخصائصها في المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية وما اتصل بها من نواحي الخليج العربي وجزره، وبلاد النهرين أو العراق القديم. وكنموذج للصلات القديمة بين الأصول وبين الفروع من هذه الشعوب المتجاورة قدمنا في الفصل الأول من كتاب الشرق الأدنى القديم نماذج من أوجه التشابه بين بعض قواعد اللغة العربية وبين بعض قواعد اللغة المصرية القديمة، على الرغم من اختلاف صور الكتابة فيهما - وذلك مع تقدير أن قواعد اللغات لا يمكن أن تنتقل مع التجارة أو باتصالات عارضة شأنها شأن المفردات اللفظية. وإنما يدل تشابهها بين اللغات على وحدة الأصول بينها في أغلب الأحوال حتى ولو كانت أصولاً بعيدة. وذلك مما يمكن تقريبه إلى افتراض وجود أم لغوية قديمة واحدة وأبناء متنوعين أخذ كل منهم يطوع مفردات لغته ولهجاتها بما تناسب مع ظروف بيئته ومطالب حياته.

وتعددت الآراء مرة أخرى في منشأ وتفسير تسميه «العرب»، كما تعددت أمثالها في شأن تسميات كثير من الشعوب والبلدان القديمة الأخرى (مثل تسميات مصر وسومر وعراق وشام وعبري وآرام... إلخ).

فن وجهات النظر العربية القديمة فيها القول باشتقاق لفظ العرب من اسم جد أعلى كان يسمى يعرب بن قحطان، أو من فعل يعرب بمعنى يفصح تدليلاً على ما كان العرب يعتزون به من فصاحة البيان...، ثم القول باشتقاقها من اسم عربية وهو أحد أسماء مكة التي شب اسماعيل عليه السلام على أرضها، أو هو اسم لجزء منها.

ومن وجهات النظر السامية الأخرى القول باشتقاق تسمية العرب من أحد الأصول التي خرجت منها كلمات عبرية شبيهة بها (وليس من الكلمات العبرية نفسها) مثل عرابة بمعنى الأرض الجافة، وأرابا بمعنى الأرض الداكنة المعشبة، وإرب بمعنى الشرود عن النظام، وعابار بمعنى التجوال أو الترحال... إلخ.

وعندما استخدمت النصوص المسماة العراقية القديمة تسميات « أربي » و« أربي » و« أريبو » . . . إلخ ، بمعنى العربي والعرب والعربية منذ القرن التاسع ق . م . لم تقصرها على سكان شبه الجزيرة وحدهم ، وإنما أطلقها كذلك على بعض أهل بادية جنوب الشام ، وعنت بهم (الأعراب) البدو في أغلب الأحوال . وكذا فعلت بعض قصص التوراة . كما مد المؤرخون والرحالة الإغريق والرومان فيما بعد تسمية « أرابيا » إلى صحراء مصر الشرقية .

واستخدمت بعض النصوص المصرية القديمة لفظ « أرابيا » تحريفاً فيما يبدو عن « عربية » أو « العربية » ، للدلالة على المنطقة القريبة من الحدود المصرية في شبه الجزيرة العربية . كما استخدمت النصوص الفارسية نفس اللفظ « أرابيا » في القرن الخامس ق . م . للدلالة على بادية فلسطين وشبه جزيرة سيناء وما يتصل بهما من شمال شبه الجزيرة العربية .

ودلت تسمية « ع رب ن » و« أعرب » في نصوص الجنوب العربي القديمة على معنى الأعراب أساماً ، لإسما الخيالة والأباله من بدو وسط شبه الجزيرة العربية ، وقالت عنهم فيلجالت « أعرب طودم » أي أعراب الهضبة أو أعراب النجد ، و« أعرب تهمت » أي أعراب تهامة أو الوديان والسهول الساحلية .

الفصل الأول

مصادر البحث في التاريخ العربي القديم

ومراحل دراساته الحديثة

تعاقت على شبه الجزيرة العربية خلال تاريخها القديم عصور كثيرة سبقت عهود الجاهلية بمعناها المحدود بقرون طويلة . وتعددت مصادر البحث في تاريخ هذه العصور — ويمكن عرضها على النحو التالي :

أولا : الآثار المادية الباقية ، وهذه تبدأ بما خلفه إنسانها البدائي القديم في دهوره الحجرية من أدوات حجرية متواضعة ، وما خطه من رسوم بدائية متفرقة . ثم تتضمن أساساً ما تركته الجماعات العربية المتحضرة في عصورها التاريخية القديمة من آثار معمارية قائمة كبقايا المعابد والأسوار والسدود . والحصون والأبراج ، والمساكن والمقابر ، وما عثر عليه في هذه وتلك من آثار منقولة متنوعة لأدوات الاستعمال اليومي . وأدوات الزينة وفنون النحت والنقش ، في مناطق عدة من أنحاء شبه الجزيرة العربية .

والآثار فيما نعلم في التاريخ الملقى لأهلها ، أو هي الشاهد الصادق على حضارة أصحابها . فهي تكشف عن مدى التقدم أو مدى البداءة في إنتاجهم ، ومدى الثراء أو مدى الفقر في إمكاناتهم . ومدى الأصالة أو مدى التقليد في صناعاتهم . ومدى التأثير أو مدى التأثير بين حضارتهم وبين حضارات جيرانهم . ثم هي تعبر عن هياكلهم وأزيائهم وطبيعة أذواقهم . ولا جدال في أنه كلما زاد الكشف عن هذه الآثار كلما زادت الحصيلة التي يستنتج منها تاريخ بلدها وقومها . .

ومد يضاف إلى مدلول الآثار ما يهتم به علماء الأنثروبولوجي من دراسة الهياكل البشرية التي يمكن أن تحدد السلالات ومدى النقاء أو مدى الاختلاط النسبي فيها . ثم ما يهتم به علماء الجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والتاريخية من دراسة التكوينات البيئية لتحديد الأماكن القديمة للآبار والواحات والمناجم .

ومواطن الاستقرار والاستثمار القديمة ، فضلاً على ظروف المناخ واتجاهات
الديان وههالك المهجرات والتجارة . وهه جراً . .

ثانياً : النصوص العربية القديمة التي عثر عليها داخل شبه الجزيرة
وخارجها . سواء كتبت بخطوط المسند ومشتقاته ، أم بالخطوط الآرامية -
الاسمية النبطية والعمورية ، أم بالخطوط العربية الحالية .

والنصوص سواء أكانت شخصية أم سياسية أم حربية أم دينية تمثل
تروة تاريخية مفيدة ، وتسجل رأى أهلها فى أنفسهم ووجهات نظرهم فى
علاقاتهم بجيرانهم . ولكنها إذا عوملت بموازين النقد العلمى احتمال بعضها
الشك كما يحتمل بعضها التأييد . وتعبير آخر فإن النصوص القديمة مع أهميتها
فى التعبير عن آراء أصحابها لا تخلو عادة من مبالغات فى تضخيم الانتصارات
إذا كانت نصوصاً حربية . ولا تخلو من الإسراف فى تعظيم وتقديس الملوك
والرؤساء إذا كانت نصوصاً رسمية أو نصوصاً للموظفين وأتباع الحكام .
ولا تخلو من ادعاءات بالصلاح والإصلاح إذا كانت نصوصاً شخصية .
ولا تخلو من تكرار وسذاجة إذا كان كتبها من الأفراد البسطاء . ولا تخلو
من غموض الاصطلاحات إذا كانت نصوصاً إدارية أو تقنية . ولا تخلو
من تخيلات وأوهام إذا كانت نصوصاً عقائدية أو مصرية . ولكنها فى مجملها ،
وعلى الرغم من ذلك كله ، هى المصدر الرئيسى لتصوير عادات أهلها
وعقائدهم وأوضاعهم السياسية والاجتماعية وعلاقاتهم الخارجية . فضلاً على
ما يمكن أن يستفاد به من بين سطورها مما لم يشأ كتبها أن يفصحوا عنه
صراحة من مشكلات عصورهم .

وجلى أن ماعقبنا به هنا على إنجازيات وسلبات الآثار والنصوص العربية
القديمة يمكن أن يقال كذلك عن بقية الآثار والنصوص القديمة كلها .

ثالثاً : النصوص السامية التى تحدثت عن علاقات بعض دول العراق
القديمة بعدد من قبائل ودويلات شبه الجزيرة منذ القرن التاسع ق . م .
هذه هى الأخرى لا تخلو من قيسة ولا تخلو من شك فى الوقت ذاته .

فهى قد اعتادت على أن تنسب إلى أصحابها الآشوريين والبابليين سلطاناً
واسعاً ، وأسرفت فى تصوير انتصاراتهم الحربية على العرب - أو الأعجرب .

وتعتبر في أغلبها نصوصاً تعبر عن جانب واحد نظراً لأنه لم يعثر على نصوص عربية تقابلها وتعاصرها وتشرح وجهة نظر أصحابها إلا في القليل النادر . وذلك مما يعنى أنه ليس من ضرورة إلى التسليم بحرفية أخبارها . ولكن نفس هذه النصوص المسماة على الرغم من تحيزها ومبالغاتها لم تخل مما يستفاد به منها . فهي أقدم المصادر التي سجلت تسمية العرب كتابة منذ أواسط القرن التاسع ق . م . (بصيغ أربي وأربي وأريبو) كما أسلفنا . وهي المصادر الوحيدة حتى الآن التي تحدثت عن نحو مئة ملكات عربيات شماليات ظهرن خلال القرن الثامن والقرن السابع ق . م .

— وإذا كانت المصادر المصرية القديمة المعاصرة للمصادر العراقية لم تسجل تسمية العرب صراحة إلا في قرون متأخرة في الزمن نسبياً ، إلا أنها ذكرت قبل ذلك بقرون طويلة أسماء بعض المناطق الإقليمية على طرق التجارة في شمال شبه الجزيرة ، كما أشارت إلى استخدام منتجات الجنوب العربي في مصر بوفرة منذ الألف الثاني ق . م . على أقل تقدير ، ودلت بذلك على قدم اتصالاتها بأهلها اتصالاً مباشراً أحياناً وعن طريق وسطاء التجارة أحياناً أخرى .

رابعاً : مصادر التوراة : وهذه بما تضمنته من أسفار وقصص ليست كلها منزلة من البهاء وليست كلها من رسالات الأنبياء . وإذا كان بعضها له قداسته ، فإن بعضها الآخر تضمن أخباراً أضافها الأخبار والرواة . وصورت هذه المصادر في عبارات مقتضبة من سفر التكوين وسفر حزقيال وسفر المزامير وسفر عاموس وسفر دانيال، ومن التلمود ، علاقات العبرانيين ببعض قبائل ودويلات عرب شبه الجزيرة ، و معلوماتهم عنهم وعن مناطقهم . تصويراً بعضه مقبول وأغايه مفتعل . وحاولت أن ترتب أنساب القبائل التي عرفها العبرانيون ترتيباً قليلاً مقبول وكثيره مفتعل أيضاً . ولهذا تؤخذ معلوماتها بحذر شديد .

خامساً : كتابات الرحالة والمؤرخين الإغريق والرومان الذين زاروا أطراف وشواخل شبه الجزيرة العربية أو جمعوا الأخبار عنها ممن زاروها من قبلهم ، ثم سجلوا أسماء بعض دولها ومدنها وموانئها وقبائلها ، وأهم مصادر

الثروة فيها . وطرق التجارة منها وإليها . وضمنوها في مؤلفاتهم ابتداء من القرن الخامس ق . م . على وجه التقريب . ومن هذه الكتابات ما هو واقعي صحيح مفيد . ومنها ما يسوده الوهم والخيال وتحريف الأسماء نظراً لقصر زيارتهم لها ولاختلاف لغاتهم عن اللغة العربية وشقيقاتها الساميات .

ومن أهم هؤلاء الرحالة والمؤرخين هيرودوت (في أواسط القرن الخامس ق . م .) وثيوفراطيس (في أواخر القرن الرابع ق . م .) ، وإراتوستينس (في أواسط القرن الثالث ق . م .) وجوبا (في أواخر القرن الثاني ق . م .) . وديودور الصقلي (في أواسط القرن الأول ق . م .) ، واسترابون (في أواخر القرن الأول ق . م .) . وبليني (في أوائل القرن الأول الميلادي) . وبطلميوس (في أواسط القرن الثاني الميلادي) . ومؤلف الطواف حول البحر الإريتري (بين القرنين الأول والثالث للميلاد) ، ويوسيبوس (في أوائل القرن الرابع الميلادي) . ثم مجموعة من المؤرخين والرحالة المسيحيين والبيزنطيين الذين اتصلوا بالحبشة وإمارتي الحيرة وغسان ، ومنهم روفينوس بترانيوس ، وشمعون مؤلف رسائل الشهداء الحميريين في نجران ، وبروكوبيوس صاحب كتاب تاريخ الحروب وصادق القائد البيزنطي بليزاريوس وغيرهم

ولا تقتصر أهمية ما كتبه هؤلاء الكلاسيكيون على ما تضمنه من معلومات ، وإنما يفيد كثيراً أيضاً في عقد التواريخ المقارنة بين العهود التي تحدثوا عنها ويمكن تحديدها ، وبين أحداث شبه الجزيرة التي عجزت نصوصها عن تحديد زمنها بدقة .

سادساً : آيات القرآن الكريم التي وصفت بعض أحوال الشعوب العربية القديمة، ونهت إلى العبرة من مسلك أهلها مع الرسل والأنبياء ، وبينت أنه كان فيهم مؤمنون وكفرة . وعلماء وجهلة . وبعضهم ممالك ومنشآت لا سيما فيما يختص بابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ومكة والبيت الحرام ، وأقوام شعيب وهود وصالح وغيرهم في مدين وعاد وإرم وشمود وأصحاب الرس وسبأ والأخدود . إلخ .

ويقترن ببعض ما جاء به القرآن الكريم ما ورد من أحاديث نبوية تعرضت
أحياناً بالتعديل أو النقد أو النجريح أو الإجازة لبعض أوضاع الحياة الاجتماعية
والسياسية والاقتصادية في عهود الجاهلية القريبة من بداية العصور الإسلامية .
سابعاً : مؤلفات المؤرخين المسلمين التي جمعوا بعض أخبارها من
التاريخ العربية والأشعار الجاهلية وسلاسل الأنساب المروية ، وجمعوا بعضاً
آخر من أخبارها من الإسرائيليات والقصص السريانية بل والفارسية . فصلا
على مشاهداتهم الشخصية لما بقي من آثار المدن والمعابد والمقابر القديمة حتى
العهود التي عاشوا فيها .

ومن هؤلاء المؤرخين :

عميد بن شربة الجهمي البعني (في القرن الهجري الأول) : ونسب إليه
« كتاب الملوك وأخبار الماضين » .

وهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) : ونسب إليه « كتاب الملوك المتوجة من
حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » ، و « كتاب المبتدأ » .

هشام بن محمد بن سائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) : ومن مؤلفاته الكثيرة
« جمهرة النسب » أو « الجمهرة في الأنساب » ، و « كتاب الأصنام » .
ونسب إليه « كتاب الحيرة » ، و « كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات
ونسب العباديين » و « كتاب ملوك كندة » و « كتاب الكلاب الأول »
والكلاب الثاني » . . . إلخ .

محمد بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ) : وأخرج « كتاب
التيجان وملوك حمير » .

أبو محمد الحسن الهمداني (ت ٣٣٤ هـ) : ومن مؤلفاته الضخمة
« الإكذيل » و « سفنة جزيرة العرب » و « ملوك كندة » .

ونسب إلى الأصمعي كتاب « جزيرة العرب » و « مياه العرب » . . إلخ .

وأخرج الحسن الغدة الإصمعي مؤلفه عن « بلاد العرب » .

وألّف نشوان الحميري « القصيدة الحميرية » ، و « القصيدة البائية » . إلخ .

وأقرب إلى الوقائع التاريخية فيما كتبه هؤلاء المؤرخون المسلمون هي أخبار عهود الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام، أما ما سبقها من عصور فقل منهم من أخضع رواياته عنها للنقد العلمي . وندر منهم من استطاع أن يقرأ نصوصها القديمة قراءة سليمة .

وكما كانت أشعار الجاهلية من المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء المؤرخون وكثير غيرهم . فهي لا زالت في حد ذاتها مصدراً لتصوير أيام العرب وحروبهم وعاداتهم الاجتماعية ومثلهم العليا . وذلك على الرغم مما يذمه النقاد إليه من كثرة منحولاتها الأدبية والتاريخية .



تلك إذن مصادر عدة فيما رأينا ، ولكنها في حقيقتها لا تزال مصادر شحيحة لا تعطى الكثير لا سيما بالنسبة للعصور الأولى من التاريخ العربي القديم . وهي باستثناء آيات القرآن الكريم . تتفاوت فيما بينها في مدى صحتها ومدى وضوح تعبيراتها . ومدى المحلية أو العمومية في أخبارها . وإن كانت لا تخلو على الرغم من بعض أوجه النقص فيها ، مما يستفاد به منها في تحديد وتصوير الخطوط العامة للتاريخ العربي القديم .

وليس من شك في أن أوسع المصادر السابقة تعبيراً عن أحوال سكان شبه الجزيرة الأقدمين . هما المصدران الأولان . أي الآثار العربية القديمة الباقية . والنصوص العربية القديمة الباقية .

وقل نصبب أراضى المناطق الوسطى والشمالية والشرقية لشبه الجزيرة العربية من هذين المصدرين حتى الآن نتيجة لأربعة أسباب هي :

— قلة البحوث الأثرية التي أجريت فيها قلة نسبية ، إلى إن أخذت الدولة السعودية . ودول الخليج العربي ، تولى هذه البحوث عناية طيبة خلال العقود الأخيرة .

— شدة اتساع أرضها الذي كان من عوائق اجتماع سكانها القدماء قبل الإسلام في دولة كبيرة واحدة تستطيع أن تقيم نظميات مستقرة ومنشآت كبيرة ، أو تعمل على تدوين أخبارها في نصوص كبيرة متصلة .

- قلة مواردها الطبيعية القديمة قلة نسبية لم تسمح لجموعها بأن يقيموا غير منشآت صغيرة لم تستطع مغالبة عوادي الزمن إلا في الشمال الغربي .

- عدم احتفال أهل العصور الإسلامية المتعاقبة حتى بداية العهود الحديثة برعاية الآثار القديمة في البلاد التي نشأ الإسلام فيها . نتيجة لاختلاف عقائدها عن ديانة التوحيد . ونتيجة لما وجدوه من صعوبة في معرفة أغراضها الحقيقية وصعوبة قراءة نصوصها قراءة صحيحة .

وزاد حظ المناطق الجنوبية القديمة من شبه الجزيرة العربية من هذين المصدرين . أي من الآثار والنصوص الباقية . نتيجة لستة أسباب . وهي :
- ظهور الكتابة فيها في وقت مبكر نسبياً مما ساعد على وفرة نصوصها المكتوبة وفرة نسبية وقدم عهدها قدماً نسبياً أيضاً .

- بعدها النسبي عن مركز نشأة الدعوة الإسلامية في الشمال الغربي مما ساعد على بقاء بعض آثارها الظاهرة ونصوصها القديمة إلى الآن نظراً لتجاوز العصور الإسلامية المتتابعة عن إزالتها .

- تعدد الفواصل الطبيعية في أرضها مما عمل على تجميع أعداد متجانسة من سكانها في دول سياسية واضحة الحدود والمعالم اهتمت بتدوين أخبارها وعملت كل منها على تمييز إنتاجها الحضارى ما استطاعت .

- سخاء بيئتها الطبيعية القديمة سخاء نسبياً مما يسر استقرار دولها وطول أمد عهودها وكثرة منشآتها .

- وفرة موارد تجارتها القديمة القائمة على الإنتاج الداخلى وعلى الوساطة الخارجية ، مما شجع أهلها على أن يقيموا آثاراً ضخمة قاومت عوادي الزمن وبقي بعضها حتى الآن . . .

- بدء أعمال البحث الأثرى فيها في وقت مبكر نسبياً من العصر الحديث .

وعلى أية حال ، فقد خضعت كل من آثار الجنوب والشمال والشرق والغرب في شبه الجزيرة لعوامل هدامة أخرى قللت من أعدادها ومن أحجامها . ألا

وهي شدة السيول والعواصف التي كانت تطيح بما لا يثبت أمامها من المباني ، وقلة اهتمام العرب القدماء أنفسهم بالتعمق في إرساء أسس مبانيهم مما عجل بانهارها . ثم انتفاع الأجيال المتعاقبة من السكان بأحجار المباني القديمة في إقامة مبانيهم . فضلا على ما جناه لصوص الآثار في العصر الحديث من سرقة الآثار الصغيرة الفنية الثمينة للتجار بها .

نشأة الدراسات والاكتشافات الحديثة :

انتفعت الدراسات التاريخية الحديثة لشبه الجزيرة العربية كما انتفعت أمثالها في بقية مناطق الشرق القديم بأنشطة حركة البحث العلمي وجهود الكشف عن الحضارات القديمة وإحياء التراث التي نشأت في أوروبا منذ القرن الثامن عشر وما تلاه . وبفضلها تابرت مجهودات البحث العلمي والآثرى في العصر الحديث على كشف النقاب عن التاريخ العربي القديم بنصوصه وآثاره من أجل التعرف عليه كما صنعه أصحابه أو كما سجلوه بأنفسهم .

ولفت أنظار أوائل المؤرخين والرحالة الحديثين الأجانب إلى تاريخ وآثار شبه الجزيرة العربية ما أثبت به الكتب المقدسة عن ملكة متبا وولاء دولتها ، وعن أقوام مدين وعاد وشمود ... ، وما كتبه الكلاسيكيون الإغريق والرومان عن أرض البخور وتجارها ، وما قرأه المستشرقون من كتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين . إلى جانب دافع الفضول عندهم لمعرفة المزيد عن الأرض التي انبعث الإسلام منها .

وإذا كان واقع الأمر يدعو إلى الاعتراف بأن أغلب من سئناول جهودهم من المؤرخين والآثاريين والرحالة في العصر الحديث كانوا من الأوروبيين ، فإنه يجب الاعتراف كذلك بأن تحفظ الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على الشرق الإسلامي حينذاك ، وتجنوف المسلمين من سوابق أطماع المستعمرين الغربيين ، كلاهما حاد عدد البعثات العلمية وجعل أغلب جهودها فردية تم في غير علنية وبغير الطرق الرسمية بل وعن غير طريق المتخصصين أحيانا .

وفي الوقت نفسه لم تكن حركة الكشف العلمي الأوروبي تستهدف غرضاً واحداً ، أو تستهدف العلم وحده ، وإنما كانت تستهدف الكشف عن خبايا الأرض والثروات الطبيعية ، وعن المعالم الجغرافية والمعالم التاريخية في آن واحد . ويبدو أنه كان لوجود أعداد من اليهود والأغراب المستوطنين في مناطق الجنوب العربي أثر في اتجاه أوائل الرحلات الكشفية الحديثة إليها لسهولة التخفي في زى بعض طوائف سكانها والطارئين عليها وبالتالي إمكانية التنقل في أراضيها . وسوف نكتفي فيما يلي بحديث موجز عن الرواد الأوائل الذين يسروا السبيل أمام الدراسات الموسعة في الوقت الحاضر .

فتحت أبواب الدراسات التاريخية الحديثة لمناطق الجنوب العربي بعثة يسرت لها حكومة الدانمرك طريق الوصول إلى اليمن في عام ١٧٦١ للقيام بدراسات جغرافية ونباتية وحيوانية . وتبجولت البعثة في اليمن ، وكان أنشط أعضائها وأطولهم بقاء الهولندي كارستن نيبور Karsten Niebuhr وقد زار مخا وعمان وعدة مناطق من الخليج العربي . ونشر نتائج رحلته في عام ١٧٧٢ ووصف فيها ما يشاهده ، ودون عدداً من الملاحظات الطبوغرافية والخرائط التوضيحية للمناطق التي زارها ، كما ضمها مستنسخات لعدد من نصوص المسند التي وجدت في مدينة ظفار إحدى عواصم دولة سبأ ودوريدان القديمة . ولفت الأنظار إلى أطلال المواقع الأثرية التي شاهدها وأثبتها على خرائطه .

والطريف أن تجربة نيبور مع الآثار والنصوص العربية الجنوبية في عام ١٧٦١ شجعتة على أن يجري نفس النشاط مع الآثار والنصوص الفارسية في مدينة برسوبوليس بإيران ، فأصبح بذلك رائداً للدراسات القديمة في كل من البلدين .

واقتنى أثر نيبور الألماني أولريخ جسيبار سيتزن A. J. Seetzen الذي زار ظفار في صيف ١٨١٠ واستنسخ بعض نقوشها .

وكان من المتوقع أن يتاح لرحالة إنجلترا وفرنسا وهما الدولتان الكبيرتان في القرن التاسع عشر نصيب من الكشف عن حضارات الشرق القديم . ففي

عام ١٨٣٦ نجح كل من هلتون وكروتنندن البريطانيين في استنساخ نفوش سبئية من صنعاء .

وباسم البحرية الهندية أو شركة الهند البريطانية كلف الكابتن ولستد R. Wellsted وزميله هايس S.B. Haines في عام ١٨٣٦ بمهمة تتبع خطوط الساحل العربي . وكانت ولستد اهتماماته الخاصة بالرحلة والآثار فوجه الأنظار في حضرموت إلى أطلال ونقوش حصن الغراب الذي كان يحمي ميناء من أكبر موانئ دولة حضرموت القديمة . ونبه إلى أطلال مدينة نقب الحجر أحد المراكز الحضارية القديمة . وسجل ملاحظاته عن خصب وادي حضرموت . ووصل إلى أطراف الربع الخالي . كما بدأ رحلاته الجغرافية في عمان حتى وصل إلى الحافة الجنوبية للجبل الأخضر .

وشابهه في مثل هذا المجهود الألماني أدولف بارون فون فريده

Adolf-Barron von Wrede

وفي هذه الأثناء تفرغ بعض المستشرقين للتعرف على خصائص الكتابة العربية الجنوبية عن طريق مقارنتها بما يشبهها ويعرفونه من الكتابات الحبشية والعبرية والفينيقية وغيرها من الكتابات السامية القديمة .

وكان من أوائل من بدأوا هذا المجهود اللغويان إميل ريدجر Emil R. Rödiger (١٨٣٧) وولهام جيسينيوس H.F. Wilhelm Gesenius (١٨٤١) وتبعهما أرنست أوسندر .

وقامت البعثات الفرنسية بنصيبها الكشفي ، وكان أشهر رجالها أرنو ، وهاليفي .

وركز توماس جوزيف أرنو Thomas J. Arnaud وهو صيدلي رخالة ، جهوده في عام ١٨٤١ في صرواح ومأرب عاصمتي دولة سبأ - وسجل مشاهداته كتابة ورسمها عن سد مأرب ، ومحرم بلقيس (أو معبد إلهه) . ونسخ حوالي ٥٦ نقشاً قديماً نشرها فلجانس فرينل قنصل فرنسا في جدة في عام ١٨٤٥ في كتابه « بحوث في النقوش الحميرية » .

(م ٢ - تاريخ شبه الجزيرة العربية)

وأدت هذه الجهود إلى أن قررت الأكاديمية الفرنسية في باريس عام ١٨٦٩ البدء في إصدار موسوعة النقوش السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum وكان ذلك كسباً كبيراً للدراسات العربية القديمة .

وكان جوزيف هاليبي Joseph Halevy أكثر حظاً في التوغل في الجنوب العربي وفي وصف أهم آثاره الظاهرة واستنساخ العديد من نصوصه وترجمتها . وفي هيئة اليهودي الفقير وصل إلى مواضع لم يصل إليها من سبقوه . فلم يكتف بالآثار السبئية في مأرب وصرواح وصنعاء ، وإنما اجتاز أيضاً منطقة الجوف الجنوبي ، وتعرف على بعض آثار دولة معين القديمة في مدينتي قرناو ويطيل بما فيهما من أسوار ومعابد وحصون . ووصل نجران وأطراف الربع الخالي في عام ١٨٦٩ — ثم عاد إلى فرنسا وفي حصيلته ٦٨٦ نصاً من ٣٧ موضعاً . ونشر نتائج رحلته في المجلة الآسيوية في عام ١٨٧٢ وشفعها بدراسة تحليلية للنصوص الجنوبية المعروفة حتى وقته . كما نشر مقالا في عام ١٨٧٧ عن رحلته إلى نجران .

وأهم من بقرن بهاليبي من حيث غزارة المادة هو المستشرق النمساوي إدوارد جلاسر Eduard Glaser وقد اكتسبت رحلاته بنوع من العلنية والرسمية بعد أن يسر له المسئولون الأتراك في صنعاء هذه الرحلات في أعوام ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٢ ، وبهذا اتسعت دراساته للآثار والنصوص الحميرية في همدان وظفار ، والنصوص السبئية في مأرب ، كما اتسعت جهوده للآثار والنصوص المعينية والحضرية والقبتانية ، وقدم تخطيطاً دقيقاً لبقايا القنوات والسدود القديمة .

ومن الشخصيات التي ساهمت في استخلاص قواعد اللغة العربية الجنوبية فريتز هومل F. Hommel في بحث أصدره عام ١٨٩٣ اعتمد فيه على النصوص المعينية واعتبرها أصلاً لغيرها ، وهو ما يعارضه الآن فيه باحثون آخرون .

وهكذا مهدت رحلات ودراسات المستشرقين في القرن التاسع عشر السبيل أمام أبحاث أكثر عمقاً وشمولا في القرن العشرين . فبرز خلال هذا

القرن عدد ممن تتلمذوا على الرواد الأوائل اهتموا بتحقيق النصوص وتأريخ الأحداث والاستعانة بالدراسات المقارنة . وظلت الدراسات الجغرافية لطرق التجارة ومشروعات الري مكتملة لهذه الجهود .

وتعدت الدراسات الأثرية وصف الآثار الظاهرة إلى التنقيب عن الآثار الدفينة تحت التلال وفي باطن الأرض . وتعددت على هذا السبيل بعثات نمسوية وبريطانية وأمريكية . في اليمن بأجزائها وعدن وحضرموت ومسقط وعمان . فكشفت عن أعداد من المعابد والمقابر والحصون والمنازل فضلاً على النصوص والآثار المنقولة المتنوعة .

وبدأ عدد من الباحثين العرب ، ومن المصريين بخاصة ، يشاركون بجهودهم في المجالات اللغوية والأثرية في شبه الجزيرة منذ عام ١٩٣٦ وحتى الآن .

وعن طريق تعاون المؤرخين والآثاريين واللغويين زادت المعرفة بأسماء القبائل والمدن القديمة وتحديد مواقعها ، وزاد التعرف على كنه المعبودات الجنوبية ، والعلاقات بين الممالك المتعاصرة ، والصلات بينحكامها ، وتتابع عهودهم وما تم فيها من تجديدات سياسية أو عمرانية .

ولم يقل نصيب المناطق العربية الشمالية والغربية والشرقية في شبه الجزيرة من اهتمام الرحالة والباحثين في العصر الحديث كثيراً عن نصيب المناطق الجنوبية . وكان من مقدمات البحث فيها فضول بعض الرحالة الأجانب للتعرف على الأماكن الإسلامية المقدسة . وتتبع آثار الأنباط الكبيرة التي انتشرت في جنوب الأردن وامتدت حتى شمال المناطق الحجازية . وكانت عمائرها في الأردن واضحة معروفة وإن لم تكن نصوصها قد حلت رموزها بعد . وجدير بالذكر أن رحالة يدعى عبد الغنى بن أحمد بن إبراهيم النابلسي أخرج كتاباً في عام ١٦٩٣ بعنوان « الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » وصف في سياقه بعض آثار مدائن صالح والحجر ومغائر شعيب واستنسخ بعض نقوشها ، وسبق غيره من الغربيين في هذا السبيل .

وكما حدث في الجنوب العربي لم تعتمد الجهود الأولى للرحالة الأوروبيين الكشف العلمي مباشرة عن الحضارات القديمة ، وإنما صاحبها رغبة التعرف على ثروات البلاد الطبيعية ودراسة حياة البدو . وكانت أغلب رحلاتهم في شبه الجزيرة استمراراً لرحلاتهم الأخرى في بوادي الشام وفلسطين ومناطق الخليج العربي .

وعلى الرغم من تحريم دخول المدينتين المقدستين على غير المسلمين تحريماً قاطعاً ، فقد استطاع بعضهم دخولهما . وكان في تعدد أجناس الحجاج وتنوع هياتهم فرصة لبعض الأوروبيين الذين تظاهروا بالإسلام واستخفوا في هياث شتى لم تكشف عن أجنبتهم . وعن هذا الطريق تسلل عدد منهم إلى المدينتين المقدستين منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن أوائلهم الأسباني Domingo Badia Leblich الذي تنكر تحت اسم على بك ووصف الأماكن المقدسة في مكة وما حولها .

وكما مهدت رحلة نيبور للدراسات الحديثة في الجنوب العربي ، مهدت رحلة السويسى لودفيج بوركهاردت J.L. Burckhardt السبيل للدراسات الأجزاء الشمالية الغربية من شبه الجزيرة . وقد أشهر إسلامه وتسمى إبراهيم بن عبد الله ، وخرج من القاهرة إلى جدة في عام ١٨١٤ . وزار مكة والطائف وتبع الطريق الساحلى ، وربما دخل الحجر . ووصل المدينة عام ١٨١٥ . ثم عاد إلى ينبع ومنها إلى القاهرة . وحاول أن يكون دقيقاً في تسجيل ما شاهده في رحلته وما نشره عنها . ولم يكن بوركهاردت آثارياً ولكنه فتح الطريق أمام المهتمين بالآثار .

وكان إدوارد روبل أول أوروبى يزور مغاير شعيب وآثارها في العصر الحديث .

والى جانب الرحالة الأوروبيين العاديين والمندوبين السياسيين الذين زاروا أراضي الدولة السعودية في منتصف القرن التاسع عشر (مثل فالين . وسادليير) . وصف ر . برتون R. Barton المقابر النبطية في مغاير شعيب . ولفت الأنظار إلى آثار المناجم القديمة في منطقة مدين ، خلال دراساته

الطبوغرافية التي كان يقوم بها في الأراضي الحجازية الممتدة من هضبة حسمى إلى ساحل تهامة .

وتبعه ج . ر . ولستد في زيارة مغاير شعيب حيث استنسخ بعض نصوصها ، وكتب عن ميناء الوجه الذي يبدو أنه كان يخدم تجارة دولة ددان والحيان .

ومن الرحالة دوى الميول الأثرية وايم ج . باجريف W.G. Palgrave في سياق ما نشره عن رحلاته في أراضي نجد . شالها ووسطها وشرقها ، في عامي ١٨٦٢-١٨٦٣ . للأغراض المتنوعة التي استهدفها رحلته عسره . أشار إلى بعض المعالم الأثرية كالمقابر ونحوها في عام ١٨٦٥ . ولكن أخذ عليه أنه كان يعتمد على السماع أحبانا فيما يكتبه دون أن يمحسه ودون أن يقطع الشك فيه باليقين .

وهكذا استأثر بالتقدير دونه شارل مونتاج دوتى Charles M. Doughty الذي زار مناطق مدائن صالح ، والعلا والحريية . في عامي ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ - واستنسخ منها نصوصاً نبطية وتمودية ولحيانية نشرها في عام ١٨٨٤ - وترجمها الباحث اللغوى جوريف رينان J. Renan ، وأشار دوتى إلى معالم قديمة أخرى في تيماء والطائف ووادي فاطمة . ونبه خلال دراساته الجيولوجية إلى وجود أدوات حجرية لدهور ما قبل التاريخ في مكان .

وانتفعت دراسة آثار ونقوش شبه الجزيرة ووسطها كذلك بما جمعه منها تشارلز هوبر Ch. Huber خلال رحلاته في ١٨٧٨-١٨٨٢ . ١٨٨٣-١٨٨٤ وما نشره عنها في عام ١٨٨٤ وفي عام ١٨٩١ . وقد هلك خلالهما .

وكان قد شاوكة يوليوس يوتنج J. Euting في زيارة العلا ومدائن صالح والحريية . ثم زار تيماء . ونشر عن آثار متفرقة وعن نتائج رحلاته داخل شبه الجزيرة في عام ١٨٩٦ . وعام ١٩١٤ . وعن النقوش النبطية في عام ١٨٨٥ . والنقوش التمودية في عام ١٩٠٤ . وقد عاود ترجمة هذه النصوص كل من اللغويين د . مولر ، وإينو ليمان E. Littmann .

ومع أوائل القرن العشرين تجمعت من جهود الرحالة والباحثين حصيلة مناسبة لتحقيقات علمية أكثر شمولاً عن التاريخ القديم لشبه الجزيرة . وقد ساهم فيها بنصيب كبير ألواموزيل Alois Musil . فقدم دراسات تفصيلية عن شمال الحجاز وشمال نجد ، خلال عشرين عاماً (١٨٩٦-١٩١٥) ، قام فيها بعدة رحلات ، مع دراسات مستفيضة أخرى عن جنوب فلسطين وبادية الشام . وقد نشرها في عدة كتب بين ١٩٠٧-١٩٣٠ ، وتناول فيها طبوغرافية الأرض ومصادر المياه ، وحقق أسماء الأماكن ، والأعلام ، وترسم طرق التجارة ، وتعرف على كنهه المواضيع التي عثر فيها على النصوص القديمة النبطية والتودية واللحيانية ، والعربية والإغريقية واللاتينية . وحاول أن يربط بين هذا كله وبين ما ذكرته قصص الكتب المقدسة عن شعوب المنطقة وأنبيائها كشعوب مدين وثمود وإرم وقصة يوسف وقصة موسى وخروج بني إسرائيل مستعيناً بروايات المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان ، ومؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، وما انتهت إليه الدراسات الحديثة للآثار والنصوص حتى أيامه . وكل ذلك إلى جانب الكتابة المعتادة عن السكان وحياة البدو الاجتماعية في العصر الحديث الذي قام فيه برحلاته .

وفي نفس الوقت تقريباً ، غابت الصبغة اللغوية والأثرية على رحلات الباحثين جوسين وسافينيالك A. Jaussen; R. Savignac في شمال شبه الجزيرة وساحل الحجاز ، وكانا من الآباء الفرنسيين سكان في القدس ، وأسهما في نشر وإعادة نشر عشرات من النصوص النبطية واللحيانية والتودية وترجمتها ، ودراسة الآثار في تفصيل وتصويرها تصويراً دقيقاً ، لا سيما في مدائن صالح والحريبة ثم في تباء . وقد نشر ذلك كله في ثلاثة أجزاء كبيرة (١٩٠٩-١٩٢٠) وفي عدد من البحوث القصيرة . وكانت دراستهما من الأسس التي اعتمدت عليها المؤلفات المستفيضة عن الحضارة النبطية (مثل مؤلفات كرامرر ، وكونتنيو - A. Kramerer; J. Contineau) وعن الحضارة اللحيانية (في مثل مؤلفات فريدرك وينت ، وفريترز كاسكل F. V. Winnett; W. Caskel) ، وعن الحضارة التودية (في مثل مؤلف فان دن براندين A. Van den Branden)

واهتمت رحلات برترام توماس Bertram Thomas جزئياً بجنوب نجد ، فكان أول الأوروبيين الذين حاولوا كشف النقاب عن طبيعة الربع الخالي ، حين عبر الجزء الشرقي منه في طريقه من ظفار إلى قطر ، وقدم نماذج جيولوجية وأثرية من رحلته ، ورسم خريطة لمسالكه ومعالمه الطبيعية . وكانت دراساته عوناً لدراسات سان جون فليبي H. St. J.B. Philby وثيسيجر Z. Thesiger عن الربع الخالي ، وهى دراسات نهبت ضمن ما نهبت إلى بعض الطرق التجارية التى كانت تحاذى حافته الغربية وتقوم فيها بعض محطات القوافل .

ولعل الآراء لم تختلف فى الحكم على مؤلفات باحث فى تاريخ شبه الجزيرة العربية كما اختلفت فى الحكم على مؤلفات فليبي العديدة . وكل ما يمكن قوله إنه قدم فى ثناياها معلومات متناثرة كثيرة ، وترك لغيره أن ينتقى منها ويمحصها .

وتتابعت الجهود العلمية حتى الآن ، كما تعدد المشتغلون باللغويات والآثار والدهور الحجرية والتاريخ القديم عن كل هذه المناطق الواسعة ، وظهرت منهم أسماء لامعة لا تزال تقدم بحوثها حتى الآن من الأجانب ومن المواطنين ومن بنية البلاد العربية ، ممن سوف نعاود التنويه بهم فى الفصل الحادى عشر ، مع وجود التفاوت المعتاد بينهم فيما ينشرونه ، فمنهم من يستهدف الدعاية ولا تكاد صفحة مما يكتبه تخلو من اهتمامه بأنه قابل فلانا وأكل عند هذا وقال لهذا ومنهم من يكتفى بالوصف والدراسة السطحية . ومنهم كذلك من يفضل العلم للعلم فيدقق ويجدد ، وهو الأنفع والأبقى .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- بيرون (جاكلين) . اكتشاف جزيرة العرب - مترجم - بيروت ١٩٦٤ .
جروثمان، أ. : مادة العرب - في دائرة المعارف الإسلامية .
حمد الجاسر . في مجلة العرب - سبتمبر ١٩٦٩ .
عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية -
إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ؛ - الكويت ١٩٨١ . ص ٥٠٠ - ٩٣ .
وات . جونز ، بار ، لطفى ، الدوري ، الجاسر : في مصادر تاريخ الجزيرة العربية
- ج ١ - جامعة الرياض ١٩٧٩ (في مواضع مختلفة)
-

الفصل الثاني

مهدات العصور التاريخية

في شبه الجزيرة العربية

أسافنا أن المفهوم العلمي للتاريخ القديم في شبه الجزيرة العربية لا يقتصر على عهود الجاهلية بمعناها التقليدي الضيق ، وإنما يمتد كذلك إلى حضارات أخرى سبقتها بعصور طويلة وآماد بعيدة .

وبدا الشاهد العملي للإنسان القديم فيما قبل التاريخ في المناطق الصالحة للإقامة خلال ما يسمى اصطلاحاً باسم الدهور الحجرية . تلك التي تبعد أزمنتها عن عصرنا الحاضر بعشرات الآلاف من الأعوام . وقد قدمنا عنها في الفصل الثاني من كتابنا عن « الشرق الأدنى القديم » أنه تعاقبت خلالها على شبه الجزيرة العربية وغيرها من مناطق العروض الوسطى في الشرق الأدنى ، عصور مطيرة - لاهوية ، وعصور جفاف عنيف طويلة أيضاً (وذلك في مقابل ما شهدته البروفس العليا في أوروبا مثلاً من عصور تقدم الجليد وعصور تراجعه) . وقد لكل طائفة من هذه العصور نباتاتها وحيواناتها المناسبة لظروفها ، كما أن تأثيراتها الطبيعية أي تأثيرات العصور المطيرة وعصور الجفاف يمكن ترسيمها جزئياً حتى الآن في تكوينات الأودية الكبيرة التي يجري بعضها ناحية الخليج العربي ، و يجري بعضها ناحية البحر الأحمر ، ويضيع معظمها الآخر في قلب الصحراء . ومن هذه وتلك وادي الحمض ووادي الرمة ووادي حبيشة ووادي فاطمة ووديان حضرموت وبيحان وحريب وأذنة . . . إلخ . وكلها كانت قد شقها مياه أمطار غزيرة في فترات قديمة طويلة . وبغلب على الظن أن ما درجناها لا تزال تحتفظ ببعض أدوات الدهور الحجرية ، وهي أدوات متواضعة صنعها الإنسان البدائي واستخدمها في الدفاع عن نفسه وفي صيد الحيوان وفي تحصيل قوته . وعثر على نماذج منها في أنحاء مختلفة من

الأحساء والعروض، والأطراف الشمالية، ومناطق متفرقة من دول الخليج واليمن الشمالى والجنوبى. وفى البداية عثر على أغلبها عن طريق المصادفة، ولكن عددا من بعثات الآثار الدانمركية والعربية قد أولتها أخيراً عناية خاصة فى حفائرها بشرق شبه الجزيرة ومناطق دول الخليج العربى. وسوف نتناول خصائصها وما تدل عليه حين الدراسة التفصيلية للأماكن التى وجدت فيها فى الفصل الحادى عشر.

ومن المحتمل أن تكون شبه الجزيرة العربية قد شاركت بقية مناطق الشرق الأدنى منذ العصر الحجري الحديث فى الألف السادس ق. م. أو نحوه فى معرفة حرفة الرعى بعد مرحلتين متتابعتين مهدتا لها، وهما مرحلة أسر بعض الحيوانات البرية الصغيرة من آكلات العشب لتكون احتياطياً حياً من اللحم فى فترات الجفاف وقلة الحيوانات، ثم مرحلة استئناسها وتعويدها على جيرة الإنسان، لاسيما ما كان منها من ذوات الظلف المدرة اللبن.

وحين نتناول ظروف شبه الجزيرة فى تلك الدهور البعيدة، فلا ينبغي أن نتصور لها حدوداً مغلقة على أهلها أو أمام أهلها، فالحدود الإقليمية لم تكن معروفة بعد، وكانت الجماعات تنتشر هنا وهناك حينما استطاعت وفى كل اتجاه بحثاً عن الأراضى النباتية والمعشبة التى يتوافر فيها حيوان الصيد والرعى وموارد الماء على نطاق الشرق الأدنى باتساعه الكبير.

ومن المحتمل كذلك أن الموقع المتوسط لشبه الجزيرة العربية قد يسر لبعض سكان أطرافها أن يشاركوا فى نقل المتاجر المناسبة لعهودهم بين أقطار الهلال الخصيب حين بدأت عصورها التاريخية منذ الألف الثالث ق. م.، وازدادت معها إمكانياتها ومطالبها. وكما قام بعض هؤلاء السكان بدور الوسيط التلقائى فى المناطق التى يرتادونها. عملوا كذلك فى صلب العصور التاريخية على نقل ما يمكن الاتجار به من منتجات بلادهم نفسها لاسيما منتجات البخور واللبان والصمغ والمر من الجنوب العربى.

فيبدو أن هذا الدور التجارى لم يتم على نطاق واسع إلا بعد استئناس

الجمال سفينة الصحراء واستخدامه في النقل والأسفار، نظراً لما هو معروف عن قدرته على تحمل المشقة والعطش والسير المتصل في رمال الصحراء . وليس من المستبعد أن معرفة الإنسان بالإبل كانت قديمة وتقرب من قدم معرفته غيرها من الحيوانات آكلة العشب المدرة اللبن (ففي مصر القديمة مثلاً كشف عما يشبه هيئة الجمال في نحو ١٥ نموذجاً أثرياً منذ فجر التاريخ حتى الدولة الحديثة) . ولكن الغريب هو أن مصائد شبه الجزيرة والهلل الحبيب ومصر لم تذكر الجمال أو اسمه صراحة إلا في وقت متأخر يقدره الباحث ألبرايت (W. F. Albright) بالنصف الثاني من الألف الثاني ق . م (وفي حوالي القرن ١٢ ق . م .) . وإذا صح أن هذا التاريخ ينطبق فعلاً على استخدام الجمال في النقل والتنقل في شبه الجزيرة لكان فيه ما يفسر بداية التغيير في الحياة النبطية لسكانها في وقت لاحق بتقليل . ويبدو أن العرب كانوا قبل ذلك يعتمدون على الحمير . ولهذا ظلت تحركاتهم بطيئة . فلما استخدموا الإبل زادت إمكاناتهم الاقتصادية وأصبحوا أقدر على مداومة الاتصال بعضهم ببعض . وعلى تكوين الوحدات السياسية في بعض المناطق المشجعة على حياة الاستقرار . واتسعت آفاق اتصالاتهم حينذاك بجيرانهم في الهلال الحبيب وانتفعوا ببعض عناصر خصائص حضاراتهم المتقدمة وأخصها فكرة الكتابة . وربما زكى هذا الارتباط ما يتجه إليه بعض الرأي من إرجاع أوائل النصوص العربية المعروفة : وهي مجرد نخرشات أولية في مثل وادي بيسان بالجنوب العربي ، إلى أواخر الألف الثاني ق . م . ، وقد وجدت حول نبع ماء دائم وعدة برك صغيرة .

وبفضل العرامل الطبيعية والبشرية والتطور التي تقدم ذكرها ظهرت دول وإمارات عدة على فترات مختلفة في مناطق متفرقة من شبه الجزيرة . فتميزت في الجنوب العربي خمس دول كبيرة : وهي سبأ وقحطان وأوسان ومعين وحضرموت ، وقد تعاصر بعضها مع بعض ، وتعاقب بعضها إثر بعض . وكانت للدولة الأولى منها وهي سبأ عدة أطوار متعاقبة .

وانتفعت هذه الدول بما اتصفت به بيئاتها من الوفرة النسبية في الأمطار والوديان والأنهار . والوفرة النسبية بالتالي في محاصيل الزراعة ومنتجات البخور والصمغ واللبان والمر والذريرة ، وربما في بعض المعادن أيضاً كالذهب . وانتفعت كذلك بإشرافها على مداخل طرق القوافل التجارية الرئيسية التي كانت تربط بين جنوب شبه الجزيرة وبين شمالها ثم تتمتع بعد ذلك إلى مختلف مناطق الهلال الخصيب . ثم بإشرافها شيئاً فشيئاً على مناطق ساحلية طويلة أطلت بموانئها (المحدودة) وخارجاتها الطبيعية على البحر الأحمر وعلى المحيط العربي (أو الهندي) فتعاملت منها مع مناطق الإنتاج الطبيعي على سواحل أفريقيا الشرقية . وبعد ذلك مع سواحل الهند الغربية . وقامت بدور الوسيط التجاري في تصديرها إلى مناطق الاستهلاك والاستيراد في العالم الخارجي المتحضر القديم .

وتوزعت مناطق العمران والاستقرار والحصارة في المناطق الشمالية والغربية والوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية والخليج ، على أسس مشابهة . فتركزت في الوديان وحول موارد المياه في مناطق الواحات والحرث . وحول الطرق التجارية الداخلية . والطرق التجارية الكبيرة المؤدية إلى الخارج . وحول الخلجان والموانئ على السواحل البحرية .

وهكذا ظهرت مع توالي العصور إمارات مدين وعاد وثمود . وممالك دومة ، وقيدار ، وتيماء ، وددان ، ولحيان ، والأنباط ، وكندة وتجمعات مدحج والأزد وقحطان ومعد . كما ازدهرت مكة ويثرب ، وانتعشت موانئ الشعبية والبحار والوجه والخوراء وأملج على البحر الأحمر . وجرها وأقطار دلمون وماجان وملوخوا على الخليج العربي .

وربما قامت إلى جانب ذلك تجمعات قبلية أخرى في قلب الصحراء لم تكتشف آثارها بعد . وأخيراً قامت على الأطراف الشرقية والشمالية الغربية . دولة المناذرة . ودولة الغساسنة ، حتى طهر الإسلام وجعل من شبه الجزيرة العربية دولة كبيرة ، واحدة .

ولم يقتصر نشاط العرب القدماء على أرضهم ، وإنما خرجت جاليات منهم إلى جزيرة سوقطرة وساحل الصومال وشاطئ الحبشة وميناء رهابتا قرب دار السلام في شرق أفريقيا . وذلك بطبيعة الحال إلى جانب هجراتهم العشوية الكبيرة التي استوطنت في بعض أراضي الهلال الخصيب على فترات متباعدة ، لاسيما في مناطق الأطراف الواصلة بينها وبين البوادي القريبة منها .

وسوف يعرضنا خلال البحث التفصيلي للدول والإمارات العربية القديمة كثير من الجدل حول تحديد بداياتها ونهاياتها الزمنية . وترتب هذا الجدل على أن كتبة تلك الدول والإمارات لم يسجلوا أحداثها بتاريخ ثابت إلا في عهود متأخرة . ولم يسجلوا سنوات حكم ملوكهم إلا في عهود متأخرة أيضاً . ولم تعرف لهم حتى الآن قوائم ترتب أسماء حكامهم واحدا بعد الآخر . وذلك بحيث أنه لا يتيسر تحديد عهد حاكم منهم تحديدا قاطعا إلا إذا ورد اسمه أو ما يدل عليه في نص خارجي معاصر له ، من النصوص المسماة : والمصادر المصرية والشامية والإغريقية والرومانية ، أو إذا كانت عهده من العهود المتأخرة التي استخدم بعض العرب فيها التاريخ الثابت ، حين عرفوه على أطراف الشام بعد عام ٣١٢ ق . م . ، وعرفوه في سبأ وحير في عام ما بين ١١٥ وبين ١٠٩ ق . م . واستخدموه في دولة الأنباط في عام ١٠٦ بعد الميلاد .

خطوط الكتابات القديمة

في شبه الجزيرة العربية

ترجع خطوط الكتابات القديمة التي سبقت الخط العربي المألوف في شبه الجزيرة العربية ، إلى مجموعتين كبيرتين : مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وهي كتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة القديمة ، سبأ وقحطان ومعين وحضرموت وأوسان . ثم شاركها فيها بعض الإمارات والجماعات الشمالية والغربية في شبه الجزيرة العربية وما يتصل بها من جنوب الشام ، بعد أن حور كتبها في أشكال حروفها بما يتفق مع مدى إتقانهم لها وربما بما يناسب مخارج ألفاظهم ، تعديلات عفوية أحيانا وتعديلات مقصودة أحيانا أخرى . وهكذا خرجوا منها خطوط إقليمية امتاز منها الخط اللحياني والخط الثمودي والخط الصفوي . ويرى بعض اللغويين أن هذه الخطوط الإقليمية يمكن التمييز فيها أيضاً بين عدة خطوط فرعية محلية اختلفت فيما بينها باختلافات طفيفة .

تم مجموعة ثانية من الخطوط اعتمدت أساساً على قواعد الكتابة الأرامية وكتب بها فريق آخر من الدول والإمارات . العربية الشمالية والغربية ، بعد أن حور كتبها فيها هم الآخرون تحويراً قليلاً أو كثيراً . وأهم هذه الدول هي إدوم والأباط وتدمر ، مع احتمال وجود خطوط أخرى فرعية في داخلها . وأخيراً اشتق كتبة الحجاز الخط العربي الصريح من الخط النبطي في الأجيال القليلة التي سبقت ظهور الإسلام لاسيما في مكة ويثرب .

وعثر على بعض نصوص هذه الكتابات الشمالية منها والجنوبية منقوشة على سطوح حجرية كبيرة وصغيرة مثل جدران المعابد ومداخل المدن والحصون وسفوح الجبال وقواعد التماثيل وسطوح النصب وكسر الحجر الصغيرة . وعثر عليها منقوشة كذلك على سطوح معدنية . كالصحاف وقواعد التماثيل الصغيرة وقطع العملة وما إليها . وربما كانت منقوشة على الأخشاب أيضاً . ولكن ندر حتى الآن ما يحتمل معه أن العرب القدماء كتبوا عليه من

ألواح الصلصال التي كتب عليها كتابة الهلال الحصيب، والجلود والرق والعظام وحقاف النخيل التي كتب العرب عليها في صدر الإسلام، أو صحائف البردي التي صنعها وكتب عليها المصريون القدماء ثم تعلم استخدامها منهم بعض الآراميين . ولو أنه ليس من المستبعد أن العرب القدماء في الشمال وفي الجنوب كتبوا على بعض هذه المواد، ولكنها بليت بمرور الزمن نظرا لطبيعتها الهشة وفعل الأرضة والحشرات فيها .

وفي سياق النصوص المنقوشة يمكن التمييز بين نوعين : نصوص مطولة إلى حد ما نقش الكتابة المهرة حروفها بعناية على جدران المعابد والنصب وواجهات المقابر والمباني الدنيوية الكبيرة أحيانا ، وعلى بعض المصنوعات الثمينة . ثم نصوص أخرى مختصرة أطلق المستشرقون عليها لفظ الخربشات . وقد حزها أو خربش حروفها في عملة رجال عاديون من أهل المدن والقرى لخدمة مطالب حياتهم اليومية ، كما حزها وخربش حروفها بعض الكتابة المصاحبيين للقوافل على سفوح التلال وجوانب الوديان التي كانوا يمرون بها ويريحون عندها ، وسجلوا فيها بعض أسمائهم ودعواتهم بأسماء معبوداتهم ، بل وبعض ما عن لهم من خواطر شخصية أيضاً .

كتابة المسند :

ليس ما يمكن تأكيده حتى الآن عن المنطقة أو الدولة التي بدأت فيها كتابة المسند في الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية . فبينما كان هناك رأى قديم رد ابتداعها إلى دولة معين . ، نبه رأى آخر إلى دلالة العثور على أقدم صور معروفة لهذه الكتابة في دولة قتيبان . ونبه رأى ثالث إلى وضع ظاهرة تركيز أغلب النصوص المعروفة حتى الآن في دولة سبأ موضع الاعتبار . ومرة أخرى ليس ما يمكن تأكيده عن العهد الذي ظهرت فيه بداية كتابة المسند في هذه المناطق ، وذهب بعض الاحتمال إلى تعيين هذا العهد بأواخر الألف الثاني ق . م . أو أوائل الألف الأول ق . م . ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وإن افترضت جاكين بيرن لها تاريخا أحدث من هذا بكثير .

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرين حرفاً جامداً لم تتأكد أسماؤها القديمة ولا ترتيبها القديم حتى الآن . ولكن تشابهت أصوات ثمانية وعشرين حرفاً منها مع أصوات حروف الهجاء العربية الحالية ، وزادت عليها حرفاً واحداً يسمى (في العبرية) حرف «سامك» كان ينطق قريباً من نطق حرف السين على الرغم من وجود سين أخرى عادية في كتابة المسند ، (وقد وجد حرفان للسين في الكتابة المصرية القديمة أيضاً) . وذلك في مقابل عدم تضمينها حرف «لا» المركب في الكتابة العربية .

وتتصف كتابة المسند بصفات أخرى بعضها اختصت به ، وبعضها اشتركت فيه مع غيرها من الكتابات السامية القديمة . وكان من ذلك على سبيل المثال :

أولاً : كانت حروفها نخطيطية ، وليست صوراً صريحة أو مقاطع صوتية . وقد يدل ذلك على أنه كانت لها أصول أخرى تصويرية لم تكتشف بعد ، أو أنها نقلت حروفها ناضجة من كتابة أخرى متطورة هي فيما يغلب على الظن الكتابة الكنعانية المبكرة .

ثانياً : أن حروفها طلت تكتب منفصلة غير متصلة . الواحد منها بجوار الآخر . وكان ذلك هو شأن أغلب الكتابات القديمة أيضاً حتى ما قبل الميلاد بقليل .

ثالثاً : لم تتغير أشكال حروف المسند . سواء كتبت في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها . وكانت سطورها الأفقية تكتب عادة من اليمين إلى اليسار . ولكن فردية الحروف ، وثبات أشكالها ، كل منهما سمح لبعض الكتابة ببداية السطور من اليسار أحياناً . وقد يخالف الكاتب بين بدايتي سطرين متتاليتين فيبدأ أولهما من اليمين ويبدأ الثاني من اليسار ، إما لإظهار المهارة ورغبة التغيير ، أو للتنمية على القارئ العادي في النصوص اللغزية .

رابعاً : كانت كل كلمة فيها تنفصل عن الأخرى في سطرها الأفقي

بخط قائم ، دون ترك مسافة مقصودة بين كلمة وأخرى إلا في القليل النادر :
وذلك مع إلحاق حرف الوصل بأول الكلمة المتصل بها .

خامساً : أنها لم تتضمن حروفا لينة أو حروف حركة ولم تسجل تشكيل الحروف ، شأنها في ذلك شأن أغلب الكتابات السامية القديمة ، وإن لم يمنع هذا من ترجيح استعمال الحروف اللينة في لغتها المنطوقة ووجود قواعد شفوية لنطق كلماتها مشكلة .

سادساً : أنها لم تأخذ بالحروف المنقوطة ، واكتفت بتغيير أشكال حروفها المتقاربة بعضها من بعض .

سابعاً : أنها عبرت أحيانا عن التعريف والتنوين بإضافة نون أخيرة في نهاية الاسم ، كما عبرت أحيانا عن التنكير بإضافة حرف ميم أخيرة في نهاية الاسم ، وذلك بما يتفق مع لهجة أهلها .

ثامناً : أنها نسبت أغلب أفعالها إلى ضمير الغائب ، على الرغم من معرفة لغتها بضمائر المتكلم والمخاطب في الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث :

تاسعاً : أنها اكتفت في أغلب أحوالها بكتابة أصول الأفعال ، وتركت للقارئ أن يستنتج صيغ هذه الأفعال من سياق النصوص ، فيما خلا التعبير عن صيغة المستقبل بإضافة حرف السين أو حرف الهاء في بدايتها ، بما يتفق مع لهجة أصحابها .

عاشراً : أنها عبرت عن التشديد أحيانا بتكرار الحرف المراد تشديده ، ولم تتضمن ما يعبر صراحة عن صيغة الاستفهام وما يشبهها .

وتعددت آراء اللغويين في تعليل تسمية كتابة « المسند » - وأقرب هذه الآراء إلى الاحتمال رأيان وهما :

أولاً : أن العرب الجنوبيين كانوا يستخدمون كلمة « مسند » بمعنى الكتابة (م ٣ - تاريخ شبه الجزيرة العربية)

على الإطلاق . ويزكى هذا الفرض أن بعض الأوامر الملكية القديمة كانت تبدأ عندهم بعبارة « سطرو ذن مسندن » أى سطروا أو اكتبوا هذه الكتابة .
ثانياً : أن الفواصل القائمة بين كل كلمة وأخرى فى هذه الكتابة ، قد أوحى إلى أهلها ، أو أوحى إلى المؤرخين المسلمين ، بتسمية خطهم باسم الخط المسند . على اعتبار أن كل كلمة فيه تكاد تستند على الخط القائم الذى يسبقها والخط القائم الذى يليها .

أسلفنا أن بعض الدول والجماعات العربية الشمالية كتبت بالخط المسند ، نتيجة لظروف واتصالات نتعرض لها فيما بعد ، وأهمها دولة ددان أو لحيان التى قامت حاضرتها فى واحة العلا الحالية . وكانت حروفها أقرب الحروف الشمالية شبيها بحروف المسند الجنوبية . مع تعديلات طفيفة فيها . ثم جماعات النحويين الذين تعددت مناطقهم فى شمال الحجاز وشمال نجد وغيرهما من مناطق شبه الجزيرة وخارجها ، وقد كتبوا نصوصهم الرأسية بخط تقيدها فيه بأشكال حروف المسند التقليدية فى النصوص الرئيسية ، وخط آخر اشتقوا أشكال حروفه من أشكال المسند أيضاً ولكنهم حوروا فيها تحويراً ملحوظاً وغالباً ما استخدموه فى النصوص الموجزة والمخربشات . أما المنطقة الثالثة التى أخذت بكتابة المسند فقد انتشرت نصوصها أساساً بين جبل سبى شرقى دمشق وبين قلعة الزرقا إلى الشمال الشرقى من عمان (وعلى سفوح جبل حوران إلى الجنوب الشرقى من دمشق) . وسميت كتابتها اصطلاحاً باسم الكتابة الصفوية — مع أن أقدم نصوصها وجدت فى الحرة وليس فى الصفا ، ولكن كثرة الحرار واتقاء اللبس بينها دعياً إلى نسبتها تجاوزاً إلى الصفا . وقد حور كتبها فى رسم حروفها عن حروف المسند أكثر مما فعل غيرهم .

ولم ينتشر الخط المسند القديم فى هذه المناطق العربية وحدها ، وإنما وجد سبيله كذلك إلى منطقة أكسوم الحبشية حيث كتب به الجعزيون (وهم الإحرار من ذوى الأصول العربية) وحوروا بعض الشئ فى أشكال حروفه . وجمعت نصوصهم بين اللغة الأفريقية المحلية وبين اللغة العربية الجنوبية . ويرى بعض اللغويين أن تسميات الحروف وترتيبها فيما احتفظت به

الأبجدية: الحبشية قد تلقى ضوءاً على تسميات وترتيب الحروف في الجنوب العربي القديم نظر للصلات المكانية والبشرية والحضارية بين الجانبين .

الخط النبطي وتطوره إلى الخط العربي :

سلف التنويه بمجموعة رئيسية ثانية من الخطوط القديمة في شبه الجزيرة العربية رجعت أصولها إلى الكتابة الآرامية ثم سلكت وجهات إقليمية أو شعبية ، وتمايز منها الخط النبطي والخط التدمري فضلاً عن الخط السرياني . . . إلخ . ويعيننا الآن منها الخط النبطي بخاصة لوثق صلته بالخط العربي ووثيق صلة أصحابه بالعرب .

تعلم كتبة الأنباط الخط الآرامي من موضعين ، من إمارة إدوم بعد أن استقروا في أرضها وتغلبوا على حكمها في نواحي هضبة إدوم وجبل سدير شرق العقبة وجنوب شرق الأردن ، ثم من دويلة دمشق الآرامية الأصل التي اتصلوا بها عن طريق التجارة واستفادوا من حضارتها وحاولوا أن يحتلوها أكثر من مرة . وحين تعلم الأنباط الخط الآرامي تعلموه كيفما اتفق وفي غير دقة كبيرة ، فرسموا حروفه في أشكال مختصرة وكتبوا بها لغتهم المحلية وكانت لغة عربية في مجملها ولكنها عربية ذات رطانة آرامية لاسيما في مناطق استقرارهم الشمالية .

وكان الآراميون ومن أخذوا بخطهم قد كتبوا حروفهم من قبل مفردة : وكلماتهم متعاقبة دون فواصل بينها . فلما انفرد الأنباط بخطهم كان خير مازادوه فيه تجديدان ، وهما محاولة وصل حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض ، أو على الأقل محاولة وصل الحرفين المتجاورين مع بعضهما . ثم محاولة الفصل بين كل كلمة والكلمة التي تليها في سطرها الأفقي بطريقة ما . وأدى هذان التجديدان إلى زيادة الفوارق بين الخط النبطي وبين أصوله الآرامية القديمة .

وبدأ كتبة الأنباط خطوة وصل الحروف بالوصل بين حرفي الباء والراء في كلمة « بر » بمعنى « بن » نظراً لكثرة استخدامها في ذكر نسب الشخص

إلى أبيه . واتخذوا الوصل بين هذين الحرفين نموذجاً لكلمات ثنائية أخرى تبدأ بحرف الباء (مثل به) ، وذلك منذ القرن الأول قبل الميلاد على أقل تقدير . ثم طبقوا هذا الربط على أغلب الكلمات الثنائية الأخرى (مثل يد ، من ، نه ، إلخ) . - وبعض الكلمات الثلاثية التي يكثر استعمالها في كتابة النصوص مثل كلمة ملك ، وفعل عبد بمعنى صنع ، وذلك منذ القرن الأول الميلادي . وعملوا بعد ذلك على تطبيق هذه الطريقة على كثير من كلماتهم الأخرى خلال القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد ، مع استثناء حروف معينة تركوها مفردة (مثل الألف والواو) .

واستخدم الأنباط أربع وسائل في ربط الحروف ببعضها ، وهي :

(أ) سند الحرف على ساق الحرف الذي يليه .

(ب) ربط الحرف بذيل الحرف الذي يليه .

(ج) مزج الحرف مع الحرف الذي يليه (مثل لا) .

(د) ربط حروف الكلمة من أسفلها برباط واحد .

وشابه الأنباط في محاولات الربط بين الحروف ، كتبة دولة تدمر في القرن الثالث الميلادي على أقل تقدير .

أما خطوة الفصل بين كل كلمة وأخرى ، فاستخدم كتبة الأنباط لها أربع وسائل أيضاً لازلتنا نستعمل بعضها حتى الآن ، وهي :

(أ) التفرقة بين شكل الحرف إذا أتى في أول الكلمة وبين شكله إذا أتى في وسطها أو في نهايتها .

(ب) إطالة ذيل الحرف النهائي للكلمة .

(ج) الفصل بين كل كلمة والكلمة التي تليها بفراغ قليل ، ولو أن هذه الوسيلة كانت قليلة الاتباع .

(د) إضافة حروف أجنبية استعاروها من نصوص جيرانهم ، إلى نهاية الكلمة (مثل الألف النهائية والتاء النهائية) . ولو أنهم ما لبثوا حتى استغنوا عن بعضها بعد أن تعودوا على بقية وسائل الفصل الأخرى .

وظلت تنقص الكتابة النبطية خطوات أخرى لم يستكملها العرب إلا في صدر الإسلام ، وهي :

— عدم تنقيط الحروف المتقاربة مما أدى إلى تشابه كتابة التاء مع الثاء ، والذال مع الدال ، والصاد مع الضاد . . . إلخ .

— وعدم كتابة حروف الحركة أو حروف المد في داخل الكلمة (مثل كتابة ملك عوضا عن مالك) .

— وعدم تشكيل الحروف أو الكلمات .

— وكتابة تاء التانيث الأخيرة تاء مفتوحة على الرغم من نطقها هاء ، مثل حرثت عوضا عن حارثة ، وكليت عوضا عن كلبية ، . . إلخ .

ولكن في مقابل هذا تضمنت اللغة النبطية بعض القواعد التي عرفت في اللغة العربية ، مثل إضافة الـ التعريف ، واستخدام الفاء والواو للترتيب ، والاستثناء بكلمة غير ، واستخدام الماضي في الدعاء .

وبعد أن ورث العرب الشماليون خط الأنباط واستخدموه ، أضافوا إليه بضعة تجديدات قبيل ظهور الإسلام وفي أوائله . ومن هذه التجديدات ربط بعض الحروف من رأسها لتصبح تحت مستوى السطر مثل الراء والنون في لفظ الرحمن . وزادوا في تحوير أشكال بعض الحروف إلى صور قريبة مما نستخدمه لها الآن مثل شكل الهاء في بداية الكلمة ووسطها ونهايتها ، وشكل الياء في أول الكلمة وفي آخرها . . . إلخ .

وكما استفاد الكتبة العرب من أسلوب الخط النبطي أثروا في زيادة صيغ النصوص النبطية بلهجتهم العربية على حساب اللهجة الأرامية منذ القرن الثالث والقرن الرابع الميلاديين (كما يتضح في نقش النمارة ونقوش سيناء) ، ثم جعلوها عربية خالصة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين (كما يتضح من نقش زبد ونقش حران) .

واختلف المؤرخون المسلمون القدماء في تحديد المنطقة التي تطور الخط

النبطى فيها إلى صورته العربية التى عرف بها قبيل ظهور الإسلام . واتجه أغلبهم إلى سبىة هذا التطوير إلى الحيرة . وقالوا فيما قالوه إن أهل الحيرة أخذوه عن الأنبار وإن الأنبار أخذوه عن النين . وإن ثلاثة من قبيلة بولان فى الأنبار اجتمعوا فوضعوا الحروف المقطعة والموصولة، والمنقوطة وغير المنقوطة .

ويبدو أنه ساعدهم على القول بهذا رأى ما تواتر إليهم عن رقى حضارة أهل الحيرة فى عهود المناذرة ، وما علموه من أن بعض عربها النصارى كانوا يكتبون الإنجيل ويقرأونه ، ويدونون أخبارهم ويرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب ، وأن فريقاً منهم كان يقرأ الفارسية واليونانية .

واتجه الباحثون المحدثون وجهة أخرى ، ومنهم خليل يحيى نامى الذى أصدر بحثاً عن أصل الخط العربى استبعد فيه الرأى السابق ، على اعتبار أن المسيحيين من أهل الحيرة كانوا يكتبون بالخط السريانى ، والخط السريانى وإن كان فرعاً من الكتابة الآرامية إلا أنه فرع بعيد عن أصول الكتابة العربية . وكان المؤرخ العربى هشام الكلبي أكثر توفيقاً من بقية المؤرخين المسلمين القدامى فى تخمين منطقة تطوير الخط النبطى إلى صورته العربية ، فنقل عنه ابن النديم أن العرب أخذوا خطهم عن أهل مدين . وأن المقاطع التى حفظ العرب بها أنجديتهم تعبر عن أسماء ملوك مدين . ورأى خليل نامى وغيره أنه لا بأس من قبول الشطر الأول من هذا الرأى دون الشطر الأخير ، وذلك على اعتبار أن الأنباط انتشروا فى نفس المنطقة التى كان يسكنها قديماً أهل مدين وكتبوا فيها بخطهم (فى مثل مغاير شعيب والخوراء فى شمال الحجاز) ، وعن هذا الخط الأنباطى أخذ عرب الحجاز ولكن ليس عن خط أهل مدين بالذات ، ويسر ذلك لهم قربهم من المناطق الشمالية وتعاملهم معها فى التجارة وماتتطابه شئون التجارة من الكتابة . وكانت أهم مراكز الكتابة فى مناطقهم هى مكة ويثرب . وقد ذكر البلاذرى أنه لما ظهر الإسلام كان فى قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب . وكانت الشفاء بنت عبد الله العدوية تحسن الكتابة . ولما دخل الإسلام يثرب كان من الأوس والخزرج عدة يكتبون .

تشابهت النصوص القديمة في شبه الجزيرة العربية مع نصوص الحضارات الأخرى في الشرق الأدنى وغيره في بعض أغراضها واختلفت عنها في بعض آخر . فتشابهت معها في اهتمامها بتسجيل أخبار الانتصارات الحربية ، وإقامة المنشآت العامة والمشروعات العمرانية والدفاعية ، وتسجيل الدعوات الدينية وألفاظ التعبد ، والهبات المقدمة إلى المعابد ، وتسجيل مراسيم الضرائب وبعض المعاملات الشخصية كالبيوع والمواريث ، وتسجيل أسماء أصحاب المقابر ودعواتهم وتخصيصها لهم . ولكن هذه النصوص لاتزال تنقصها حتى الآن ماتتضمنته نصوص الحضارات الكبيرة القديمة الأخرى من قصص وأساطير وعلوم وتعاليم مطولة ، ولاتزال تنقصها كذلك المدونات التاريخية المنسقة التي تتحدث عن قصد عن أخبار الماضي وحوادثه وترتب أسماء حكامه وعهودهم تدوينا مرتبا متصلا . وليس من اليسير أن نقرر ما إذا كان العرب القدماء قد تجاوزوا عن الكتابة في هذه النواحي فعلا ، أم أنهم كتبوا عنها ولكن لازالت نصوصها خبيثة تنتظر كشف اللثام عنها ، لاسيما وأن قلة قليلة من النصوص المطولة نسبياً بدأت تلفت أنظار بعض الباحثين إلى احتمال صياغتها على هيئة السجع أو الرجز أو النشيد . ويقتضى هذا السياق أن نشير إلى حقيقة معروفة وهي أن نشأة الكتابة والنصوص المكتوبة لاترتبط بنشأة اللغة المنطوقة أو بمدى النشاط الفكري عند أهلها . فليس من شك في أن كل الجماعات البشرية كانت لها لغاتها التي تتفاهم بها سند أن بدأت تجميعاتها على سطح الأرض . وليس من شك كذلك في أن كل جماعة كانت تتناقل عقائدها الدينية وأخبار أسلافها وأنسابها وآدابها وأساطيرها عن طريق الرواية قبل أن تعرف الكتابة بأزمان طويلة . ولعل في ثراء الشعر الجاهلي وثرأ النثر معه ما يرجح دسامة الآداب العربية الشمالية القديمة التي لم تعرف طريقها إلى التدوين أو التي لم يعثر على مدوناتها الكبيرة حتى الآن .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

بيستون ، وريكانز ، والفول ، ومولر : المعجم السبئي — من منشورات جامعة
صنعا — بيروت — ١٩٨٢ .

خليل يحيى ناصي : أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام — القاهرة ١٩٣٤ .

Beeston, A.F. L., A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian,
London 1962.

Pirenne, J., Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, Brussel, 1956.

الفصل الثالث

في جنوب شبه الجزيرة العربية

تمهيد :

قدمنا بما يحتمل من قيام نشاط عمراني داخلي قديم في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية، وقيام نشاط اقتصادي مناسب للتعامل به في داخلها ومع ما في خارجها معا ، وذلك حتى عندما كان أهلها لا يزالون يتألفون من وحدات صغيرة وقبائل متفرقة ، ومن قبل أن ينشئوا دولة سياسية مستقرة بفترات طويلة . ويكفي هنا من القرائن التي تزكي هذا الاحتمال في إيجاز عثورنا على نص مصري قديم يسجل وصول وفد من تجار « جنبتيين » بمتاجرهم من اللادن والكندر والمر والبخور إلى مصر في العام ٣٢ من عهد الفرعون تحوتمس الثالث (أى في حوالى عام ١٤٥٨ ق . م .) . وكان « الجنبتيون » أو « الجبائيتاي » كما ذكرهم بعض المؤرخين الإغريق والرومان فيما بعد ، عشائر نشطة من العرب القتيانيين في جنوب شبه الجزيرة العربية . وحدث قبل وصول هذا الوفد إلى مصر أن اعتزم رجال البحرية المصرية في عام ١٤٨٢ ق . م . خلال عهد الملكة حاتشبسوت التي سبقت الفرعون تحوتمس الثالث في الحكم ، أن يصلوا بأسطولهم التجارى إلى مدرجات الكندر في الجنوب العربى ليتعاملوا مع تجارها مباشرة ويوفروا بذلك تكاليف الوساطة والوسطاء بينهما . وقد اعتبروا هذه المدرجات من أرض الله التي وقفها على تزويد معابدهم بأطياب البخور ، وأملوا خيرا في أن يهديهم ربهم إلى طرق البحر والبر المؤدية إليها . ولكن وسطاء التجارة من سكان منطقة بويته (أو بونت) على الشاطئ الأفريقى للبحر الأحمر قهرهم نواحي الصومال أو إريتريا الحاليتين ، خشوا أن يفقدوا مكاسبهم فبالغ أميرهم أمام المندوبين المصريين حين وصلوا إلى أرضه في تصوير استحالة عبور مضيق باب المندب المؤدى إلى مدرجات الكندر (في الجنوب العربى) وصعوبة اختراق ماورائه

من طرق برية ، وادعى أن أحدا لم يجرء على ذلك منذ أيام رع . ثم أَرْضَى المندوبين المصريين بأن استورد من أجلهم ٣١ شجيرة من أشجار الكندر العربى الثمين حتى يزرعوها فى حدائق معبد آمون المدرجة فى مدينة طيبة ماداموا حريصين على أن يعودوا إلى بلدهم بهذا النوع الثمين من البخور، وسوف تغنيهم زراعته عن تكبد مشقة الوصول إلى مدرجاته . ورضي المندوبون المصريون بهذا ، ولو أن هذه الشجيرات لم تنجح زراعتها فى مصر نظرا للاختلاف فى التربة وفى المناخ عن بيئتها الأصلية . وليس من المستبعد أن هذه الوقائع بلغت أسماع الجنبتيين فى جنوب شبه الجزيرة العربية وكانت من عوامل لفت أنظارهم إلى إمكان التعامل مع مصر مباشرة مادامت هى راغبة فى ذلك . وقد وجدوا فى عهد تحتمس الثالث الذى ساد مناطق واسعة من الهلال الخصيب امتدت من الشلال الرابع فى السودان إلى غزب الفرات بين الشام وبين العراق ، ووطد الأمن فيها ، ما شجعهم على تنفيذ رغبتهم . وليس من المستبعد مرة أخرى أن بعضهم سلكوا الطرق البرية فى سير طويل ومراحل متعددة حتى وصلوا إلى البلاط المصرى فى منف أو طيبة :

وبعد هذا العهد ظلت المناظر المصرية القديمة تصور ضمن تجار الكندر واللادن والبخور والمر الواردين إليها عن طريق البحر الأحمر وشواطئه ، والذين اعتبرتهم من وجهة نظرها أتباعا يؤدون الجزية إلى مصر . رجالا ذوى ملامح سامية ، يصلون إلى العاصمة المصرية تارة ، ويقفون عند سيناء تارة أخرى ، وعند بعض الموانئ المطللة على البحر الأحمر تارة ثالثة ، ويتبادلون المتاجر هنا وهناك مع المندوبين المصريين . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ثلاثة فروض، وهى أنه ليس من المستبعد أن بعض هؤلاء التجار ذوى الملامح السامية كانوا من سكان السواحل العربية الشمالية الذين قاموا بدور الوساطة فى نقل المتاجر من الجنوب العربى إلى مصر ، وأن ما قام به الجنبتيون أسلاف القتبانيين من تعامل تجارى مع مصر فى ذلك الزمن البعيد كانت تقوم بمثله طوائف عربية أخرى لم تعرف بعد أسماءها القديمة ، وأن

ما كانوا يؤدونه من التبادل التجاري مع مصر كانوا يؤدون مثله مع الشام والعراق . وكانت سلعهم من البخور ومشتقاته تلقى الرواج الكبير هنا وهناك لكثرة استخدامها في المعابد وفي القصور ، وفي المحافل والأعياد والمآتم والجنائزات ، وفي تركيب العقاقير ؛ وإن زادت مصر فاستخدمتها كذلك بكثرة في عمليات التحنيط التي اشتهرت بها . وكانت الشعوب المستهلكة لهذه المنتجات الثمينة تنتج بعضها في أرضها أحياناً ، وتستورد بعضها من المناطق الأفريقية التي تنتجها ، ولكن يبدو أن أفضل أنواعها هو ما كانت تستورده مباشرة أو عن طريق الوسطاء من مدرجات الجنوب العربي بالذات ولهذا عادت تجارته على أصحابه بأرباح وفيرة .

وقد استشهدنا من قبل برأى البرايت وغيره من أن احتمال استخدام الإبل في عمليات النقل والتنقل منذ القرن الثاني عشر ق . م أو نحوه قد زاد من الإمكانيات الاقتصادية لعرب شبه الجزيرة العربية وزاد من إمكانيات اتصالهم بالدول المحيطة بهم ، وأن هذه الإمكانيات وتلك قد هيأتهم لتكوين دول ودويلات غنية مستقرة تأخذ بأسباب الحضارة الراقية .

وأغلب الظن أن التحول من الأوضاع القبلية إلى تنظيمات الدول المستقرة لم يتم بسهولة أو في وقت قصير . ولعله بدأ في بعض صورته على الأقل بنوع من التحالف على قدم المساواة بين القبائل ذات المصالح المشتركة والمناطق المتقاربة، والمتراصة بروابط الدم والنسب، ثم عملت الظروف عملها في تغليب كفة فريق منهم على فريق في إطار هذا التحالف، ووصول أكبر زعمائه إلى الرياسة التي أصبحت وراثية في أعقابها ، سواء تحت راية الدين أم بتأثير القوة والثراء ونبالة الأصل . ويبدو أن أقدم الجماعات التي نهجت مثل هذا النهج المحتمل هي الجماعات السبئية التي أشارت الكتب السماوية إلى أهميتها منذ أيام سليمان عليه السلام ، أي منذ القرن العاشر ق . م على أقل تقدير . ولهذا سوف نبدأ فيما يلي بدراسة المراحل الأولى من تاريخ دولتها « دولة سبأ » ، دون أن ينفي هذا أن دولاً أخرى من الدول التي سوف نبحث تاريخها بعدها كانت تعاصرها فعلاً في بعض عهودها الأولى .

دولة سبأ في عصورها المبكرة

توافرت للدولة سبأ بين المؤرخين القدماء والمحدثين شهرة لم تتوافر لما عداها من بقية الدول العربية الجنوبية القديمة . وترجع عوامل هذه الشهرة إلى عدة أسباب ، أهمها : ذكر سبأ في أكثر من قصة من قصص العهد القديم ، وفي أكثر من آية من آيات القرآن الكريم ، وذكر أسماء بعض حكامها صراحة في النصوص المسماة العراقية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، واستمرار كيانها السياسي المتطور إلى ما قبل ظهور الإسلام بقليل ، وارتباطها بعدة حوادث دينية وسياسية تأثر بها العرب الشماليون والجنوبيون قبل ظهور الإسلام بقليل أيضاً ، ثم بقاء بعض معابدها ومنشآتها الكبرى ظاهرة فوق سطح الأرض خلال العصور الإسلامية نفسها وحتى الآن .

مشكلة النشأة :

تناول بعض المستشرقين نشأة السبأين (أو السبثيين كما يكتب اللفظ أحياناً) من أكثر من زاوية واحدة ، ويمكن إيجاز آرائهم فيها في نظريتين رئيسيتين ، وهما :

أولاً : نظرية زكاها عدد من الباحثين (مثل شرادر وكيرت وهارتمان ودلتش وفريتز هومل) ، ورأوا فيها أن السبأين عاشوا أصلاً في شمال شبه الجزيرة العربية قرب منطقة الجوف الشمالى واستمروا فيها على البداوة زمناً طويلاً ، ثم دفعتهم دوافع معينة إلى الاتجاه نحو جنوب شبه الجزيرة قبل بداية القرن الثامن ق . م بقليل حيث استقروا فيه . واعتمدت هذه النظرية على عدة قرائن سوف نناقشها واحدة بعد الأخرى بعد قليل .

ثانياً : نظرية ألمح إليها باحثون آخرون (ومنهم مولر وجلاسز وفنكلر وماير ثم ألوا موزيل) ، ويرون فيها أن السبأين عاشوا منذ بداية أمرهم في الجنوب العربى ، ولكن جالية منهم اتجهت خلال القرن الثامن ق . م أو قبله بقليل إلى الشمال وأقامت قرب واحة تبء ومنطقة الجوف الشمالى لترعى المصالح التجارية لقومها في شمال شبه الجزيرة وعلى طرق القوافل المتجهة منها إلى الهلال الخصيب .

ومع منطقية كل من هاتين النظريتين ، يبدو أن النظرية الثانية منهما هي الأقرب إلى الصواب لاسيما فيما يختص بأحوال السبأين في عصورهم التاريخية .

أما النظرية الأولى فثمة شواهد تدعونا إلى الاكتفاء بالخروج منها بما يحتمل من أن السبأين عاشوا قبل تكوين دولتهم السياسية المستقرة في منطقها الحصبة بجنوب شبه الجزيرة العربية ، على ما عاش عليه أغلب أهل القبائل القديمة لا يعترفون بحدود إقليمية مفروضة وتتفرق بطونهم بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب وفقاً لظروفها الخاصة ومصالحها الطارئة وعلاقاتها بجيرانها . ولم يكن هذا هوشأن القبائل القديمة في الشمال والوسط فقط من شبه الجزيرة العربية ، بل كان شأنها أحياناً أيضاً في الجنوب الحصيب نفسه .

ولتوضيح ذلك نعاود عرض ومناقشة قرائن هذه النظرية الأولى التي افترضت بداية حياة السبأين في شمال شبه الجزيرة ، وهي قرائن أوردها أصحابها ممن أسلفنا ذكرهم من الباحثين متفرقة في سياق مؤلفاتهم فخرجت واضحة حيناً وغامضة حيناً آخر . وهي في مجملها قرائن لا تخلو من منطقية وإن كانت في الوقت نفسه لا تخلو من شك . ويمكن أن نجعلها من ناحيتنا في ثمان قرائن نعرضها فيما يلي واحدة بعد أخرى ، ونعقب على كل منها بما يزكيها أو ما يضعفها .

أولاً : ذكرت التوراة كما ذكر القرآن الكريم أن حاكمة سبأية زارت سليمان (عليه السلام) في عاصمته أورشليم (خلال منتصف القرن العاشر ق . م) . وهي حاكمة لم تعرف حقيقة اسمها ولم يذكره لها القرآن الكريم . ولكن بعض الروايات العربية والعبرية والحبشية القديمة أطلقت عليها أسماء يلقمه ويلقمه وماقده وبلقمة وبلقيس ، على خلاف فيها بينها . وكلها فيما يرى أغلب اللغويين الحديثين قد تكون أسماء محرفة عن اسم « إلقه » المعبود الأكبر لدولة سبأ (وذلك مع وجود احتمالات أخرى لتفسير بعض الأسماء المفترضة آنفاً لهذه الحاكمة بمعنى الزهرة في اللغة العربية القديمة ، ومعنى الجارية أو المحظية في اللغة العبرية)

ولا بأس من أن نشير ابتداءً إلى أن الجدل في اسم ومكان حاكمة سبأ هذه لا يتعارض مع الكتب السماوية في شيء ، فكما أن هذه الكتب لم تذكر اسمها صراحة ، فهي أيضاً لم تحدد مكان دولتها بالشمال أو الجنوب . وعلى هذا الأساس من حرية البحث نستعرض ما ارتآه فريتز هومل وأصحابه من أن هذه الحاكمة كانت تحكم منطقة قريبة من مملكة سليمان الفلسطينية وتقيم في منطقة ما من شمال شبه الجزيرة ، وذلك بحجة أنه كان من المستبعد أن تسافر بحاشيتها من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى مقر سليمان في أورشليم ، وأنه ما من نص عربي جنوبي قد أشار إلى امرأة حكمت سبأ الجنوبية أو وليت حكم دولة أخرى من دول الجنوب ، على حين ذكرت النصوص الآشورية نحوست ملكات عربيات حكمن في منطقة شمالية من شبه الجزيرة العربية .

ومع منطقية هذا الفرض ، نلاحظ أن هناك أربعة شواهد أخرى تدعو إلى إعادة النظر فيه ، وهي :

(أ) جاء في القرآن الكريم عن حديث الهدهد مع سليمان (فكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين) . وإذا عنت جملة (فكث غير بعيد) قصر المدة الزمنية على الرغم من طول المسافة المكانية ، وهو المرجح للدلالة على إعجاز الحدث ، فإن سياق بقية معجزة الهدهد يدل على أن أرض سبأ كانت بعيدة عن مملكة سليمان بحيث لم يحط علما بها ، ولهذا لم يقم بينهما من قبل اتصال مباشر ، أو على أقل تقدير لم تكن إحداهما تحيط بأحوال الأخرى إحاطة كاملة .

(ب) وجاء عن حديث الهدهد أيضاً : (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . .) ، ومثل هذا الثراء الذي يتوافر فيه كل شيء أقرب إلى أن يناسب المناطق العربية الجنوبية التي كانت لها في عصورها القديمة مواردها الطبيعية والاقتصادية ذات الوفرة النسبية .

ولو كانت من المناطق العربية الشمالية فعلا لصح التساؤل عن ثلاث ظواهر ،
وهى : لم لم تظهر آثار دولتها الثرية هذه فى الشمال حتى الآن ؟ وهل لقلة
البحوث الأثرية هناك دخل فى ذلك ؟ — ولم أهمل الرواة والمؤرخون العرب
الشماليون ذكرها ولم يتفأخروا بها ؟ ، وهل كان لبعدها الزمنى الكبير عنهم
دخل فى ذلك ؟ — وأخيراً إذا كان السبأيون قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الثراء
فى الشمال فى عهد سليمان أى فى القرن العاشر قبل الميلاد ، فما الذى دعاهم
بعد ذلك إلى النزوح إلى الجنوب ؟ — وهل كان لتقلبات الظروف المناخية
دخل فى ذلك ؟ — أم أنهم كانوا يقومون فى عهده بدور الوساطة فى نقل
التاجر الجنوبية إلى الشمال ثم طمعوا بعد ذلك فى أن يسيطروا على مصادرها
بأنفسهم وقيموا عليها ؟ — هذه كلها تساؤلات تصعب الإجابة عنها بردود
شافية للأسف فى حدود المعلومات التاريخية والأثرية المعروفة لنا حتى الآن
على الرغم مما عقبتنا به عليها من احتمالات شتى .

(ج) ذكر القرآن الكريم جنتى سبأ وسيل العرم ، وكل منهما لا شك
فى قيامه فى جنوب شبه الجزيرة العربية دون شمالها ، بعد ذكر قصة سليمان
ودولته ، وذلك مما يمكن أن يدل على ترتيب مقصود للتنبيه إلى الرابطة
القديمة بين الدولتين ، دولة سليمان ودولة سبأ ، وإلى العاقبة التى انتهت إليها
أمر هاتين الدولتين .

(د) ردت الأساطير الحبشية نسب أسرتها الملكية القديمة إلى سليمان
وماقده ملكة شبا، أو بلقيس ملكة سبأ . وربما تواتر خبر هذه النسبة المزعومة
إلى الأحباش عن طريق أسلافهم القدامى ، أو عن طريق جيرانهم السبأيين
الجنوبيين ، أو عن طريق رواة العبرانيين الذين اتصلوا بهم منذ أواخر
القرن الرابع ق . م . وهى على أى وجه من هذه الوجوه تشير إلى أن دولة
الجددة ماقده التى انتسب ملوكهم إليها ، إن حقاً وإن ادعاء ، كانت فى
أغلب الظن قريبة من بلدهم أى فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

وعلى أية حال فإنه يبدو أنه إلى جانب الكسب الدينى الذى أحرزته

سليمان بتحويل حاكمة سبأ من عبادة الشمس إلى عقيدة التوحيد كما ذكر القرآن الكريم ، كان هناك كسب اقتصادي آخر ، إذ يسرت الصلة بينه وبين سبأ الانتفاع بطريق قوافل الإبل السبئية الجديدة التي تحمل منتجات البخور الجنوبية إلى دولته ، وهو طريق يعتبر أقل نفقة وأخطاراً من طريق نقل المتاجر بأسطول سليمان عبر البحر الأحمر إلى أوفير التي ذكرتها التوراة ، كما أنه أقل تكلفة قطعاً من طريق الوساطة عبر الخليج العربي والعراق إلى فلسطين . «وقد روت التوراة أن ملكة شبا حين قصدت سليمان «أتت إليه بحاشية كبيرة وجمال تحمل الطيوب وذهباً كثيراً وأحجاراً كريمة» وقالت كذلك « ولما سمعت ملكة شبا عن اهتمام سليمان بإسم الرب أتت تمتحنه بأسئلة صعبة » . وأشار القرآن الكريم إلى هدايا حاكمة سبأ إلى سليمان ورفضه قبولها وتفضيله دعوتها إلى ديانة التوحيد .

وبقى أخيراً أنه إذا اعتبرت الحجة الأولى لنظرية هومل وأصحابه باستبعاد سفر الحاكمة السبئية من الجنوب العربي إلى فلسطين حجة غير ذات موضوع نظراً لترجيح استخدام الإبل في السفر في عصرها ، فإن الحجة الثانية لها لا تزال بغير رد شاف حتى الآن ، وهي لماذا لم تتضمن النصوص السبئية القديمة المعروفة اسم ملكة وليت عرش قومها في الجنوب ؟ ولعل ما يمكن أن يرد به حتى الآن على هذا التساؤل هو أن الأمر قد يرجع إلى محض المصادفة ، بمعنى أن أرض سبأ الجنوبية لا تزال تتضمن نصوصاً قديمة لم تكتشف بعد ، هذا إذا كانت الكتابة قد عرفت فعلاً في عهد تلك السيدة التي قرئت رسالة سليمان في حضرتها أو تلت هي مضمونها وطلبت التشاور فيها .

ثانياً : ذكرت النصوص الآشورية السبأين وحاكين لهم في ثلاث مناسبات ترجع إلى أعوام ٧٣٨ و ٧١٤ و ٦٨٥ ق . م . فذكر نص للملك الآشوري تيجلات ييليسر الثالث في عام ٧٣٨ ق . م . أنه تلقى جزئاً السبأين من الذهب والإبل والتوابل . وأكد نص للملك سرجون الثاني ملك آشور في عام ٧١٤ ق . م . أنه تلقى من « إني أمر » السبأين (أو السبئي)

جزى من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب والحيول . ثم ذكر نص
لولده الملك الآشورى سينا خريب فى عام ٦٨٥ ق . م . أنه حين احتفل
بوضع حجر أساس « بيت أكيتو » (وقد يكون معبدًا أو حصنًا أو قصرًا) ،
استقبل مندوباً عن الحاكم السبأى « كريبى إيلو » حمل إليه جزاه (أو هداياه)
من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب ، ووضع جانباً منها بأمر مولاه
فى أساس المبنى الخليل

ولم يجد الباحثون المحدثون بأساً فى اعتبار اسمى الحاكمين السبأين اللذين
ذكرتهما النصوص الآشورية ، بحرفين عن « يثع أمر » و « كرب إيل »
وهما من حكام سبأ الأوائل . ثم أضافت النظرية الأولى أن السبأين الذين
صورتهم هذه النصوص يدينون بالولاء لدولة آشور لا بد وأنهم كانوا
يحسون بسطوتها ويخشون بأسها ، وبمعنى آخر كانوا قريبين منها فى شمال
شبه الجزيرة وليسوا بعيدين عنها فى مناطق الجنوب .

ولكن هذا الاستنتاج يضعفه من ناحية أخرى أن هومل وغيره (مثل
سان جون فلي) أرجعوا بداية الكيان السبأى لحكام سبأ الجنوبية بغام ٨٠٠
أو ٨٢٠ ق . م . وإذا صح هذا فلا بد أنه حدث بعد فترة طويلة تكفى
لاستقرارهم وبسط سيطرتهم على الأراضى التى نزلوها جنوباً . وهو أمر
يتعارض بداهة مع سابق الظن بوجود دولتهم فى الشمال وتأثيرها المباشر بسطوة
الآشوريين حتى عهد سينا خريب فى أوائل القرن السابع ق . م .

ولا يكفى فى هذا القول بأن الضغط الآشورى على طرق التجارة فى
شمال شبه الجزيرة هو الذى اضطّر السبأين إلى النزوح إلى الجنوب .
فالمصادر الآشورية لم تصور السبأين كأعداء تعمل جيوشها على طردهم
وحرمانهم من التجارة ، وإنما صورتهم مهادين للوكها تتوافر فيهم علامات
الود والطاعة ، وإن أدوا الجزى إليهم أو أرسلوا هداياهم إلى بلاطهم .

وهكذا يبدو أقرب إلى الاحتمال أن السبأين الشماليين المتصلين بدولة
آشور كانوا مجرد جالية تجارية أقامت قرب تيماء ومنطقة الجوف الشمالى
(م ٤ — تاريخ شبه الجزيرة العربية)

كما رأت النظرية الثانية ، لترعى المصالح التجارية لدولتها على طرق القوافل ، وكانت تحس بسلطة الآشوريين فعلا لقربها منهم وترى من مصلحتها أن تنتفع من الاتجار معهم والاحتواء بهم ، ولم تجد بأساً من أن تقدم إلى ملوكهم هداياها بأسماء ملوك دولتها الجنوبية ، كما أن الآشوريين لم يجدوا بأساً من ناحيتهم في أن يروا طاعتها لهم تعبيراً عن طاعة دولتها الجنوبية لسلطانهم .

ثالثاً : ذكرت عبارة في الإصحاح الأول من سفر أيوب في التوراة أن لصوصاً سبأين فتكوا برعاة أيوب ، وقال قائل : « البقر كانت تحرث ، والأتن ترعى بجانبها ، فسقط عليها السبأيون وأخذوها ، وضربوا الغلمان بحد السيف ، ونجوت أنا وحدي لأخبرك » . ولما كان أيوب فيما يجهل من أهل الشمال أكثر من أهل الجنوب ، فإن ذلك قد عني في رأى هومل وأصحابه أن السبأين كانوا يعيشون في عهد أيوب قريباً من دياره في شمال شبه الجزيرة وليس في جنوبها ، وهو استنتاج طريف لولا أنه أقرب إلى أن ينطبق على بعض رجال الجالية السبأية الصغيرة التي أشرنا إليها ، دون دولة سبأ الغنية الكبيرة .

رابعاً : ذكرت عبارة أخرى من عبارات العهد القديم اسم سبأ إلى جانب اسم ددان . وكانت ددان هذه دولة شمالية قامت حول واحة العلا في شمال الحجاز . وقد عني ذلك عند هومل وأصحابه أن سبأ كانت بدورها قريبة منها في الشمال وليست بعيدة عنها . وذلك استنتاج منطقي هو الآخر ، ولكن يمكن أن يرد عليه بما انتهينا إليه في القرينة السابقة من حيث أنه أقرب إلى أن ينطبق على الجالية السبأية التي سكنت حول واحة تيماء إلى الشمال الشرقي من واحة العلا أو ددان .

وقبل أن ندع قرائن التوراة لا بأس من أن نشير إلى أنه لما كانت أسفار التوراة قد أقرت في بعض قصصها الأخرى بالأمر الواقع من استقرار السبأين في الجنوب في دولة سياسية كبيرة ، اتجه بعض الباحثين إلى القول بأن هذه القصص عندما تذكر « شبا » تعني بها سبأ اليمن ، وعندما تذكر « سبأ »

تعنى بها السبأين القاطنين في الشمال ، وإن كان كتبة التوراة قد خلطوا بين التسميتين في صحفهم ولم يراعوا هذه التفرقة كثيراً .

خامساً : سجل كبيران منحكام ددان أيضاً في نص مشترك أنهما توجهتا بالشكر إلى أرباب معين (وكانت معين دولة جنوبية ارتبطت بها دولتهما بالولاء) على نجاة قافلة تجارية اضطرت إلى المرور في مناطق شملتها الحروب ، وتعرضت خلال سيرها لهجوم سبأى (وخولانى) عليها . ورأى هومل أن الأخطار التي تعرضت لها هذه القافلة كانت في شمال شبه الجزيرة العربية ، كما أضاف فلي أنه ليس من المعقول أن يعمل السبأيون على نهب قافلة تجارية في عهود نضجهم السياسى وإنما الأرجح في رأيه أنهم كانوا لا يزالون يعيشون حينذاك على حال من البداوة .

ومرة أخرى يمكن التعقيب على هذا الاستنتاج بأنه إذا صح أن السبأين الذين تعرضوا للقافلة المعينية كانوا من أهل الشمال فعلاً فإنه ليس هناك ما يحول دون اعتبارهم من أفراد الجالية السبائية الشمالية الصغيرة لا سيما وأن فشل هجومهم عليها يدل على قلتهم وبساطة شأنهم . ويمكن أن نتجاوز هنا عن أن قبائل خولان التي ذكرت مع المهاجمين السبأين قد عاشت هي الأخرى على أطراف الجنوب ، وأن تاريخ نجاة القافلة متأخر عن تاريخ إنشاء دولة سبأ الجنوبية بأجيال كثيرة .

سادساً : جمعت بعض النصوص السبائية بين اسم سبأ واسم يقرأه هومل يهليلج ويراه مرادفاً لاسم دقلة وأنه يدل على منطقة الجوف . في شمال شبه الجزيرة ، كما جمعت بينه وبين اسم يقرأه هومل أيضاً بيشان أو فيشان ويراه مرادفاً لاسم وادى الدواسر أحد أودية الشمال أو أودية اللجنة على حد تعبيره .

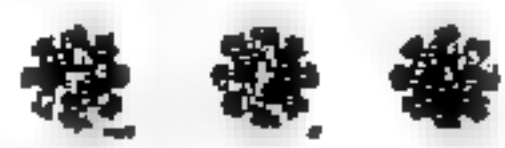
غير أنه يبدو أن هذا الاستنتاج لا يزال هو الآخر قرين الظن إن لم يكن قرين الافتعال ، وكل ما يمكن قوله الآن هو أن اسم يهليلج قد استعمل كذلك للدلالة على قبيلة عاشت حول صرواح أقدم عواصم سبأ في الجنوب . وأن اسم

بيشان إن دل على وادى الدواسر أو وادى بيشة فهو أقرب إلى حافة الربع الخالى ، وإن دل على قبيلة فهى قبيلة عاشت حول صرواح أيضاً وانتسب إليها أبواثل الحكام السبأين .

سابعاً : يرى هومل أن اسم مأرب (أو مريب) الذى اشتهرت به عاصمة سبأ الجنوبية (بعد صرواح) ذو صلة بلفظ أربى الذى أطلقه الآشوريون على أعراب شمال شبه الجزيرة وبادية الشام ، ولفظ يارب الذى أطلقته عليهم بعض نصوص التوراة ، وذلك مما يعنى فى رأيه أن السبأين كانوا من الأقوام الشماليين الذين عناهم الآشوريون والعبرانيون ، فلما انتقلوا إلى الجنوب أطلقوه على عاصمتهم .

ولكن يلاحظ على هذا الاستنتاج أن السبأين فى الجنوب لم يتخذوا مأرب عاصمة لهم منذ بداية أمرهم أى فى الوقت الذى كانوا يستطيعون أن يتذكروا فيه أصلهم ويخلدوا ذكره ، وإنما اتخذوا أولى عواصمهم فى صرواح قبل أن ينتقلوا إلى مأرب بعشرات السنين . وهم لم يصفوا أنفسهم صراحة فى نصوصهم المكتوبة بتسمية عرب أو أعراب المرادفة لتسمية أربى الآشورية . بل ولم يستعملوها إلا فى عهود متأخرة نسبياً ليصفوا بها أعراب الجبال والوديان التابعين لدولتهم ، وذلك فى حدود ما هو معروف حتى الآن من نصوصهم .

ثامناً : نبه هومل وأصحابه إلى أن اللهجة السبائية هى أقرب اللهجات الجنوبية صلة بلغة القرآن العربية الشمالية . وفى ذلك قرينة لطيفة لا تنكر . لولا أن هذه الصلة يمكن أن تفسر من ناحية أخرى باستمرار النصوص السبائية الحميرية حتى عهد نزول القرآن الكريم أكثر مما عداها من بقية النصوص الجنوبية الأخرى ، وأن عامل الزمن كان له أثره فى التقريب بين لهجات عرب الجنوب ولهجات عرب الشمال نتيجة لاستمرار الصلات التجارية والحضارية والتنقلات القبلية بين الفريقين ، وذلك فضلاً عن وحدة الأصل البعيد بينهما . وعلى أية حال ، فقد تعمدنا الإسهاب فى مناقشة وجهات النظر المختلفة حول الأصول السبائية كموردج لما يمكن أن تعالج به مشكلات التاريخ العربى القديم على أماس من أدب النقد ، ومقارعة الحقبة بالحجة ، وعدم التسليم برأى ما إلا بدليل يزكيه ، وعدم رفض رأى ما إلا بدليل يضعفه .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

تكاش ، ج . : سبأ - في دائرة المعارف الإسلامية - ج ١٨ - ص ١٦٨ وما بعدها .
نيلسن وهومل ورودوكاناكيس وجروهمان . التاريخ العربي القديم - ١٩٢٧ - ترجمة
فؤاد حسين - القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

Abdel-Aziz Saleh, "The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South
Arabian Gebbanitae of the Classical Writers", BIFAO, 1972, 245-262.

Eissfeldt, O., in CAH. II, 1965, 593 and references.

Grohmann, A., Arabien, 1961.

Musil, A., The Northern Hegaz, 1926.

الفصل الرابع

عهود المكربين (أو المكارب)

في سبأ

اصطبغت سلطة أوائل حكام دولة سبأ بصبغة ثيوقراطية أو دينية ، فتلقب كل منهم بلقب «مكرب» وهو لقب لا يزال غير محدد النطق والدلالة ، وإن أمكن تفسيره احتمالاً بمعنى «المقرب» للمعبودات ، أى من يشرف على توفير القرابين وتقديمها إلى معابدهم . أو بمعنى «المقرب» بين شعبه وبين معبوداته باعتباره وسيطاً مقدساً بينهما ، أو بمعنى «المقرب» إلى أربابه . وهو على أى وجه من هذه الوجوه يتولى رئاسة الكهنوت في دولته ويضمن إحاطة حكمة بقداسة روحية تكفل احترام الناس له وتدعوهم إلى تأييده . وتوافرت لهذه الصبغة الثيوقراطية سوابقها في أمم شرقية قديمة ، فتلقب أوائل الحكام السومريين في العراق ، على سبيل المثال ، بلقب « إنسى » أى النائب أو الوكيل ، إشارة إلى وكراته عن معبود مدينته في حكم أهلها ، وإشارة إلى القداسة بالوكالة التي يركز عليها في ممارسة سلطاته الدينية والمدنية . وتكررت نفس الظاهرة في دول عربية جنوبية أخرى عاصرت السبائين في بعض مراحل تاريخهم . وكان منها أن تلقب أوائل الحكام في دولة معين بلقب «مزود» ، وهو ما سوف نتناول مدلوله في حينه .

ولازال الجدل التاريخي قائماً في شأن تحديد البداية الزمنية لعهود المكربين السبائين (أو المكارب السبئيين) ، فبينما يلتزم باحثون بوضع عهد حاكمة سبأ المعاصرة لسليمان موضع الاعتبار وبدء قيام دولتها بالتالي بالقرن الحادى عشر ق. م. أو نحوه — يكتفى بعض الباحثين بالإنحصر على عهود الحكام الذين سجلت النصوص القديمة أسماءهم ، ضاربين صفحاً عن عهود ما قبل معرفة الكتابة في سبأ ، ولا يذهبون بتاريخ الدولة المؤكد بناء على ذلك

إلى أبعد من عهد «يشع أمر» السبئي الذي ذكره نص سرجون الثاني ملك آشور في عام ٧١٥ أو عام ٧١٤ ق . م . ، وربما قبل ذلك بفترات قليلة .

وقام جدل تاريخي مماثل حول أعداد المكربين الذين أتوا بعد « يشع أمر » وسبقوا عهود الملكية الصريحة في سبأ - فتراوحت النظريات في تقدير عددهم بين ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٧ . ولكل نظرية مبرراتها بطبيعة الحال .

وترتب هذا الجدل وذلك على ما سبق أن أشرنا إليه من أن كتبة السبائين وغيرهم من كتبة الدول الجنوبية لم يسجلوا الأحداث بتاريخ ثابت إلا في عهود متأخرة ، ولم يلتزموا بتسجيل سنوات عهود حكامهم إلا في عهود متأخرة أيضاً ، وفي حالات قليلة . ولم يتركوا قوائم ترتب أسماء حكامهم ومدد حكمهم واحداً بعد الآخر . وترتب على هذا كله أنه لم يعد في الإمكان معرفة تتابع حاكمين إلا إذا ذكر نص صريح أن أحدهما أكمل عمل الآخر ، أو إذا ورد اسم حاكم وأبيه . بل إن الاعتماد على هذين الأساسين لا يخلو من مخاطرة في بعض أحواله ، فقد يكمل أحدهم عمل جده وليس عمل أبيه ، وقد يحكم بعد عمه وليس بعد أبيه ، وقد تتشابه أسماء الحكام وآبائهم في فترات متباعدة . كما قد يحكم ابن مع أبيه في وقت واحد ، أو أخ مع أخيه في آن واحد . وهكذا لم يجد الباحثون بداً من ترتيب أسماء الحكام التي أتت الآثار بها ترتيباً اجتهادياً . وتقدير عهودهم تقديراً اصطلاحياً ، على أساس افتراض ما بين ١٥ أو ٢٠ أو ٢٥ عاماً لكل منهم . وعلى أفضل الفروض بالاستعانة بما ورد عن بعضهم عن طريق المصادفة في نصوص خارجية مؤرخة عاصرت عهودهم . على أنه مهما يكن من أمر بداية عهود المكربين وعددهم . فإن أهم ما ينسب إلى عهودهم هي آثار معابدهم الباقية ، وبداية مشروع سد مأرب . وعملهم على التوسع الخارجي في المناطق الجنوبية المجاورة لهم .

اتخذ المكربون عاصمتهم الأولى في مدينة توافرت لها بعض المقومات الضرورية للعواصم السياسية . وهي مدينة صرواح . فقد نشأت في وادٍ خصب شبه دائري كفل لها مطالبها الزراعية وبعض مواردها الاقتصادية . وأحاطت

بها بعض المرتفعات فكفلت لها الحصانة الطبيعية . وتوسط موقع صرواح بين مدينتي مأرب وصنعاء الشهيرتين ، وتقوم على أطلالها الآن كل من قرية القصر وقرية الحربية ، ويظهر على سطح الأرض من عمائرها القديمة أطلال قليلة ، بينما بقيت أغلب آثارها تغطيها الأنقاض حتى الآن .

ويبدو أن الصبغة الدينية التي استعان المكربون بها في تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماما كبيرا لمعابد معبوداتهم . إظهارا لتقواهم الشخصية . وتأكيذا لصلتهم الروحية بهذه المعبودات . وعملا على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضاً عن طريق تخصيص المرتبات العينية لهم من عائدات هذه المعابد .

وينسب إلى عهود المكربين البدء في إقامة أو توسيع عدة معابد قديمة تتخبر منها أربعة جرى الكشف عن بعض أجزاءها ، وهي : معبد في صرواح ، وآخر في صرواح أرحب (أو حجر أرحب) ، وثالث في أوام ، ورابع في المساجد . وكان هناك دون شك ما هو أكثر منها لولا أنه لم يكشف عنه بعد . وحين نبحث أمر المعابد في سبأ أو في غيرها نبحثها على ثلاثة أسس ، وهي :

(أ) أن المؤرخ يستمد تاريخ الحضارات القديمة ويستنتجه من كل ما تركه أهلها في عالم الفكر وعالم المادة .

(ب) ما سبق أن ذكرناه من أن الآثار القائمة للأمم القديمة تعتبر من أصدق الدلالات على مدى إمكاناتها الاقتصادية والصناعية والفنية ، فضلا عن دلالتها على معتقدات قومها الدينية .

(ج) أن المعابد لا تزال أكثر ما بقي من آثار الأمم القديمة ، نتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة . ومحافظة القدماء عليها بالترميم والإضافة جيلا بعد جيل ، نظرا لما كانوا يقرضونه فيها من الحرمه والقداسة .

ومع هذه الأسس التي يجب تقديرها في الدراسات التالية لا بأس من الاكتفاء

بالمعالم الرئيسية في دراسة المعابد وغيرها من الآثار المعمارية والفنية ، دون ضرورة للالتزام هنا بالتفاصيل الدقيقة فيها ، ولابأس كذلك من التعقيب على العناصر الدينية فيها بما يختلف به عن العقائد الإسلامية ، كلما تطلب الأمر ذلك .

أنشئ معبد العاصمة صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذي أطلق عليه اسم «إلمقه» ربما بمعنى الإله المقتدر أو الأمر . أو الإله البهي أو الجميل . ودل لفظ « إل » أو « إيل » عند العرب الجنوبيين وعند شعوب سامية قديمة أخرى في العراق والشام على معنى الإله . كما استخدم بنفس المعنى في اللغة العربية الشمالية أيضاً في مثل أسماء : اسماعيل وجبرائيل وميكائيل واسرائيل . . . وهلم جرا .

وتأكيداً لقداسة أصلهم تلقب حكام سبأ بلقب « والد إلمقه » أي أبناؤه . وخص السبأيون معبودهم الأكبر هذا برؤية القمر واعتبروه « سيد وعول صرواح » بما يعنى تعدد المعبودات فيها إلى جانبه ورئاسته لهم . وقدسوا معه في معبد العاصمة ربة باسم « حرمت » ربما كزوجة له ، وهي ترمز في أغلب الظن إلى ربوبية الشمس . وهكذا توافرت للقمر عندهم وعند بقية عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام منزلة أكبر من منزلة الشمس ، على عكس شعوب الهلال الخصيب الزراعية ، ربما لانتفاع أهل شبه الجزيرة بالقمر في مسرى القوافل وتوقيت الشهور . مع شدة هجير الشمس وقسوتها لاسيما في البيئات الصحراوية . وقد تعددت ألقاب هذين المعبودين بتعدد الصفات التي نسبها الناس إليهما واختلاف الأماكن التي عبدوهما فيها ، وكان شأنهما في ذلك شأن بقية ما تخيله القدماء من معبودات فعقب على خصائصها كلما أدت مناسبة الحديث إلى ذكرها .

وتألفت العناصر المعمارية الظاهرة في معبد « إلمقه » في صرواح من جزئين ضخمين ، أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو على هيئة البيضاضوى الناقص . وتضمن أحد نصوص المعبد اسم المكرب يدع إيل ذريح (حرفيا : يدع إل ذرح) وذكر أنه سور معبد «إلمقه» وقدم ثلاث

ذبايح لربته « حرمت » . ويميل أصحاب التاريخ المختصر إلى توقيت عهد هذا المكرب بنحو ٦٧٠ ق . م . — ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ولم يضع أساسه كله ، وإنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره كما أشار إلى ذلك نصه ، وترك لخلفائه أن يزيدوه اتساعا وارتفاعا . ويدعو إلى الأخذ بهذا الرأي أمران ، وهما أن بقية نقوش المعبد تضمنت أسماء عدة مكربين وملوك سبأين آخرين ، وأن مباني المعبد الحالية التي ترتفع بعض جدرانها الباقية نحو عشرة أمتار تدل على مهارة كبيرة في فن العمارة لم يكن من السهل على السبأين أن يبلغوها في أوائل عهودهم بالاستقرار وإقامة العمائر الضخمة . ولا زالت الأجزاء الداخلية من المعبد لم تكتشف كشافا علميا منظما حتى الآن . ويبدو أن جزءا منه تحول إلى حصن في العصور الإسلامية وزادت فيه حينذاك بعض المداخل والمخارج ، بل ولا زالت تقوم فوق جدرانه بعض المساكن الحالية التي غيرت إلى حد ما من خارطته الأصلية .

وأنشئ معبد « معرب » في قرية المساجد ببلاد مراد وعلى مبعدة ٢٧ كيلو متر من مأرب الحالية ، من أجل « إلمقه » أيضا . وأتم نفس المكرب يدع إيل ذريح عمارته في مناسبتين تحدثت عنهما نصوصه ، مناسبة قام فيها بتنظيمات اجتماعية ، وأخرى أحرز فيها انتصارات حربية . وذكر عن المناسبة الأولى أنه أسس كل الهيئات الخاصة بمعبوده ، والخاصة به شخصيا باعتباره حامى دولته ، ثم الخاصة بتحقيق الاتحاد والتحالف بين طوائف شعبه . ومعنى ذلك أن دولته الناشئة كانت بسبيل إقرار تنظيمات مستقرة تجرى عليها في شئونها الدينية والدنيوية . وتخليداً لذكرى هذه الإنجازات أقيم الجزء الداخلي من المعبد وتألف من هو أعمدة بقيت منها ثلاثة ، ويعقبه إلى الداخل فناء كبير تقوم في وسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفها أربعة أعمدة في صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات أعمدة ، ويصل بين أعلى هذه الصفة وبين أعلى المقصورة سقف حجري منحدر . ولا تزال هذه المجموعة المعمارية للمعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهديم .

أما المناسبة الحربية فقد أدت إلى توسيع رقعة الدولة بعد أن استولى بدع إيل ذريح بجيشه على منطقة يشقر ومزارعها . ولما كان يعتقد أن هذا التوسع قد تم بتأييد إلمقه (وذات حميم وعثر) عمل على توسيع مساحة المعبد أيضاً وإحاطته بسور مستطيل كبير بلغت أبعاده ١٠٤×٣٧ متراً . وتقدمت واجهة هذا السور صفة أخرى فخمة ذات ستة أعمدة مستطيلة المقطع بلغ ارتفاعها بين ٤.٥ و ٥ أمتار ، أقيمت فوق رصيف حجري ليضمن توازنها . وتآلف كل عمود منها من حجر واحد . وأدت هذه الصفة الخارجية إلى المدخل الرئيسي للمعبد الذي حف به مدخلان جانبيان فتوفر له شكل مهيب . واتصل أعلى الصفة بأعلى المدخل بسقف حجري منحدر . ولا ندري هل كانت ظاهرة السقف المنحدر التي تكررت مرتين في عمارة المعبد ، ظاهرة عفوية نتيجة لاختلاف الارتفاعات ، أم كانت ظاهرة مقصودة لتصريف مياه الأمطار من فوقها بسهولة .

وبنى المعبد الثالث المكتشف من عهود المكربين في بلدة صرواح أرحب (أو حجر أرحب) ، من أجل عبادة « عثر » الذي اعتبره العرب الجنوبيون رباً لنجم الشعرى وولداً لرب القمر وربة الشمس . وكان شأنهم في هذا يتعدد هو شأن أغلب أصحاب الديانات الوضعية القديمة ، ونعني بها الديانات التي وضعها البشر ولم تكن مما أوحى به من السماء إلى الرسل والأنبياء . وكانوا يتخيلون لكل ظاهرة طبيعية رباً يختص بها ، ويتخيلون لمعبوداتهم حياة تماثلها حياة البشر يتزاوجون فيها وينجبون . ويتآلفون فيها ويختصمون . وظل العرب القدماء هكذا حتى ظهر الإسلام فخلصهم من تعدد المعبودات ووجههم إلى ديانة التوحيد وعبادة رب العالمين دون سواه . وبنى المعبد بتخطيط بسيط ولكنه لا يخلو من خصائص مميزة تمثلت في تعدد المشكاوات وإدخال عنصر الزخرف على أجزائه المعمارية ولا سيما الأعمدة . فقد أقيم سور المعبد على هيئة مستطيل ينحرف قليلاً عن الجهات الأصلية الأربعة . وقامت في مؤخرة فناءه الداخلي المقصورة الرئيسية للعبادة ، وبنى أمامها حوض مربع متسع ، لعاءه كان يستخدم لماء التطهير .

وظهرت عناصر التجديد في عمارة المعبد في أنه تصدرت واجهته الخارجية مشكاة عليا تطل على الطريق . وتصدرت جداره الخلفي مشكاة عليا أيضاً تطل على فناءه . كما تصدرت الجدار الداخلي لمقصورة العبادة مشكاة ثالثة كبيرة تطل على المتعبدين فيها . ويبدو أنه كان يوضع في كل مشكاة من هذه المشكاوات تمثال لصاحب المعبد . ثم تجديد زخرفي آخر ، تمثل في إقامة تسعة أعمدة مثمثة الأضلاع على الجوانب الخارجية لحوض ماء التطهير الكبير . وإقامة تسعة أعمدة أخرى كل عمود منها ذو ١٦ ضلعاً داخل مقصورة العبادة الرئيسية . وكان لكل عمود منها تاج زخرفي في أعلاه يضيق من أعلى إلى أسفل بما يشبه بعض العنائم اليمينية . وقد تهدمت الأعمدة ولم يتبقى غير قواعدها وأجزاء من تيجانها .

وتكرر اسم المكرب يدع إيل ذريح ، الذي أولى اهتماماً خاصاً للمعابد ضمن نصوص معبد ضخيم آخر يقع إلى جنوب شرقي مارب الحالية بنحو أربعة كيلو مترات . وهو معبد أطلق السبأيون عليه اسم بيت أوام أي معبدها على اعتبار أنه يعتبر بيتاً مقدساً للمعبود الأكبر في البلد الذي يعبد فيه ، وخصصوه لإلقاه بعل أوام أي سيدها . وكانت منطقة أوام هذه ذات صلة بعشيرة مرثد السبائية التي انتسب إليها كثير من حكام سبأ . وأطلق المسلمون على المعبد تجاوزاً أو خطأ اسم محرم بلقيس تأثراً بما نشرته القصص عن هذه السيدة . ويظهر السور الكبير للمعبد على هيئة بيضاوية تقريباً . ولا يزال داخله لم يكتشف بعضه . بينما اكتشفت بعثة أمريكية آثارية أجزاءه القرينة من مدخله فأظهرت بضعة عناصر معمارية راقية بنيت في أغلب الظن بعد عهد المكربين ولهذا نوجّل الحديث عنها إلى حين نبحث منشآت عصور الماكية في سبأ .

ويكفي هنا ما يستنتج من اتساع النشاط المعماري في عهد المكربين في أكثر من مكان . وإذا لم يكن لدينا حتى الآن ما نقدمه من صور هذا النشاط غير المعابد . فإن المعابد لم تكن تقام في مناطق مقفرة وإنما لابد أنه صاحب قيامها نشاط أكبر في توفير العمران السكاني والاقتصادي بقرىها . وإذا كان مكرب واحد مثل يدع إيل ذريح قد أسعد الحظ ذكره

بأن أبقى على نصوصه في ثلاثة معابد على أقل تقدير لتكون شاهداً على اهتماماته الدينية والعمرانية والتنظيمية والحربية كما أسلفنا ، فالمرجح أن مكربين آخرين سبقوه وخلفوه كان لهم مثل نشاطه ، وتحدثت بعض نصوصهم الباقية فعلاً عما عملوا على تشييده في عهودهم من معابد ، وإن لم يعثر على آثار معظمها حتى الآن . وأخيراً فقد كان اتجاه النشاط الإنشائي والديني إلى قرب مدينة مأرب مبشراً بقرب انتقال الأهمية السياسية إليها واستغلال ماحولها . وقد أقيم فيها بالفعل أكبر مشروع بدأه السبأيون في عهود المكربين وهو :

مشروع سد مأرب :

قامت مأرب عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيحان وحضرموت وموانئ البحر العربي والبحر الأحمر الجنوبية ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من مكوس التجارة . وقامت في الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نحو نصف كيلو متر وبعرض يبلغ نحو ٣٥٠ متراً كفل لها بعض الحماية الطبيعية . كما أشرفت ، وهذا هو الأهم ، على وادي أذنة الكبير الذي عمل السبأيون على استغلاله في الزراعة على نطاق واسع .

وغالباً ما كانت الأمطار الغزيرة تسقط على مرتفعات اليمن في بعض مواسمها السنوية وتجري على هيئة السيول العنيفة في عدة وديان ينتهي بعضها إلى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبي جبل بركاني مرتفع سمي جبل البلق ، وهو جبل يفصل بين الصحراء وبين مرتفعات اليمن في منطقة مأرب ويسمى جانباه عند هذه الفتحة باسم « جبل البلق الأوسط » وجبل البلق الشمالي . ويبدو أن تسمية « البلق » كانت تعني الحجر كما تعني الفتحة أيضاً . وإن سميت هذه الفتحة الآن باسم « الضيقة » . ويتراوح اتساعها في بعض أجزائها بين ٥٠٠ متر وبين ١٩٠ متراً ، بمتوسط للاتساع يبلغ ٢٣٠ متراً . وكانت السيول بعد أن تعبر هذه الفتحة تندفع إلى وادي أذنة (أو ذنة) الكبير فتتفرق فيه ، ولا تلبث حتى يضيع أغلبها في التربة بغير فائدة .

واستهدف السبأيون (أو السبثيون) من إنشاء السد ثلاثة أغراض ، وهي أن يقللوا من اندفاع السيول إلى وادي أذنة وما يمكن أن تؤدي إليه من بوار الزرع وتدمير القرى في مواسم الأمطار العنيفة . وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول في جوف الأرض حين تتجاوزها . وأن يرفعوا مستوى مياه الري عدة أمتار تسمح لها بأن تصل إلى المدرجات المرتفعة القابلة للزراعة على جانبي الوادي ، ثم توزيعها عن طريق فتحات جانبية يسهل التحكم فيها . وهكذا يميل المهندس ريتشارد بوين من دراساته لمشروعات السدود الجنوبية إلى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهي فكرة تخزين المياه خلفه في بحيرة صناعية كبيرة أو نحوها وذلك لوجوده في بيئة يمكن أن تتشرب أرضها المياه بسهولة .

وطبق بوين هذه الفكرة ، والعهد عليه فيها بحكم تخصصه ، على سدود ييخان وغيرها من المناطق الجنوبية الأخرى . وكرر أن العرب الجنوبيين لم يعملوا قط على تخزين المياه وراء السدود ولكنهم بنوها لكسر حدة السيول وتوزيعها على أكبر مساحة ممكنة . كما أشار إلى أن سدود الجنوب بنيت في وديان جافة وليست عبر أنهار ، مع عدم توافر الخبرة لبنائها تحت الماء .

وأقدم من سجل اسمه من حكام سبأ على صخور سد مأرب مكرب يدعى ستهو عالي ينوف (حرفياً : سمه على ينف) . وهو مكرب يرد فليي عهده إلى منتصف القرن السابع ق . م ، ويرده البرايت إلى القرن الخامس ق . م . (ويعتقد فيسمان بوجود مكربين اثنين حملا نفس الاسم وحكما في هذين التاريخين) . وتخبر المستولون عن بناء السد منطقة تلي فم وادي أذنة وبمعنى آخر تلي مدخل فتحة جبل البلق نظراً لتحديد النسيبي . وإمكان التحكم فيها ، وسهولة الاعتماد على جوانبها الحجرية البركانية الصلبة .

وبدأوا بتشيد جسر ضخيم من الرديم تختلف الآراء في تحديد امتداده الأصلي ، وكسوا واجهته بالأحجار في مواجهة تيار الماء ، ثم أعيد بناؤه كله بعد ذلك بأحجار جيدة في عهود تالية . وامتد هذا الجسر في الجانب الأيمن

من اتساع الفتحة، وجعلوا له بوابة متسعة اعتمد أحد كتفها عليه ، أى على الجسر أو الجدار من ناحية ، واعتمد كتفها الآخر على الجبل نفسه من ناحية أخرى . ووجه المشرفون على المشروع المياه بعد هذه البوابة إلى مجرى واسع ينتهى إلى حوض ضخم حددوا جوانبه بالحجر للحيلولة دون سرعة تهدمها أو تسرب المياه منها . وتركوا في نهاية الجانب الأيمن منه فتحات مناسبة يسهل التحكم فيها لتصريف المقادير الضرورية من المياه لرى الجانب الأيمن من وادى أذنة عن طريق ترع تختلف أطوالها واتساعاتها واتجاهاتها . وأطلقت النصوص القديمة على مشروع عهد سموه على ينوف اسم رحب ، أو رحاب ، أو رحابوم ، كما يقترح بعض اللغويين قراءته ، وهو اسم قد يعنى السد بمعناه الواسع . بينما أطلق اليمينيون المسلمون على بوابته اسم مربوط الدم (أى مربوط القط تأثرا بأسطورة عربية قديمة مستحيلة التصديق) .

وعدل مشروع السد وأكمل في عهد المكرب « يثع أمر بين » ابن حفيد سموه على ينوف (الذى تسمى بمثل اسمه) منذ حوالى ٤٦٠ ق . م . وعمل رجاله على توفير مياه الرى للناحية اليسرى من وادى أذنة كما توفرت للناحية اليمنى منه من قبل . فلدوا الجسر أو جدار السد فى عرض فتحة الجبل حتى نهايتها ناحية اليسار ، وأطلقوا على مشروعهم الجديد اسم (وادى) حبابض وتركوا في نهايته بوابة ضخمة أخرى ذات فتحتين - وأجروا خلفها مثل ما تم خلف بوابة الجانب الأيمن ، فلدوا وراءها مجرى طويلا دعمت جوانبه بالحجر ، وانتهى إلى حوض واسع ذى فتحات تؤدي إلى عدة ترع للمياه تتوزع في الناحية اليسرى المتسعة من وادى ذنة .

هذه صورة عامة لفكرة سد مأرب وبداية أجزائه - أما أبعاده الحالية فيفهم من وصف من اهتموا بدراسة مقاساته التفصيلية أن الارتفاع الحالى للجزء الباقى من جدار السد يبلغ ١١ مترا ، ويبلغ امتداده العرضى ١٢,٤٠ من الأمتار . ويبلغ عرض البوابة اليمنى ٤,٥٥ من الأمتار ، وامتداد ضلع الخوض الواقع خلفها ٧٨,٨٠ من الأمتار .

أما في الناحية اليسرى وهى الأكبر فيمتد المجرى المائى الأساسى فيها

نحو ١١٦٠ متراً ، وتتفرع من الخوض الذى ينتهى إليه ١٤ ترعة يبلغ عرض الواحدة منها نحو ثلاثة أمتار . وقد فتحت فى أعلى الجانب الأيسر لسد حبابض أربع فتحات تساعد على تصريف المياه الزائدة عن المنسوب المطلوب ، وتؤدي إلى تخفيف ضغط المياه على جدار السد نفسه . وقد اتبعت فكرة الأهوسة فى الفتحات أو البوابات خلال مراحل التقدم المعماري التالية . فشق فى الكتفين الجانبيين لكل بوابة تجويفان رأسيان يمتدان بارتفاعها لتزلق فيهما كتل الأخشاب الصلبة حين يراد قفل البوابة . وترفع فيهما إلى أعلى حين فتحها . ولا تقل طرق البناء المتمثلة فيما بقي سليماً من السد دلالة على براعة المعمارين ، فقد شيد فى عصور اكتماله من أحجار ضخمة قطعت من جبل البلق وثبتت فى مداميكها بمونة صلبة . وربط أحياناً بين بعض أحجارها وبعض آخر بقضبان من النحاس المنصهر والرصاص المنصهر رغبة فى زيادة ترابطها وتماسكها . (وقد يقارن لهذا استخدام ذى القرنين لمصهور الحديد والنحاس فى بناء سد دفاعى كبير - أنظر سورة الكهف ... آية ٩٦) .

والمرجح أن جانبي وادى أذنة اللذين انتفعا بمشروع سد مأرب هما اللذان عناهما القرآن الكريم بقوله : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ..) . ولا تزال آثار القرى التى انتفعت بالحجرى الأيمن لسد مأرب تدل على عمرانها القديم وإن تخربت الآن إلى حد كبير . ومنها مدينة النحاس وخرابة مروث ومحرم بلقيس والعايد . وكانت مأرب أكثر انتفاعاً بالحجرى الأيسر . وقد أطلقت النصوص على منطقته اسم يسرن .

والواقع أن روعة وضخامة سد مأرب بأجزائه كما سبق وصفها تدعوان إلى الشك فيما إذا كان قد بدأ هكذا منذ عهد منشئه سموه على ينوف وعهد سفيده البعيد شيع أمر بين ، أم أن شقى المشروع بدءاً متواضعين فى عهديهما ثم زاد اتساعهما وارتفاعهما وتقويتهما فى عهود من تبعوهما من المكربين والملوك ، ولعل هذا رأى الأخير هو الأرجح . فقد أصلحت جدران السد أكثر من مرة بعد أن تعرضت للتهدم نتيجة لتراكم الإرساب خلفها حيناً ، وبتأثير عامل الزمن فى مبانيها حيناً ، وشدة السيول حيناً آخر . ويحمل عدد من

الحكام السبأيين. أنخبار مرات الإصلاح التي تمت في عهودهم . وكان من ذلك على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشمالى فى عهد الملكين ذمر على يهأبر وثاران بعد القرن الميلادى الأول . واتخذت الفتحات الشمالية للسد صورتها النهائية فى عهد الملك شمر يهرعش فى حوالى عام ٣٢٥ م . ثم جدد المبنى كله أو دعم فى عهد الملك شرحبيل يعفور فى عام ٤٤٩ م . كما أعيد لإصلاح صاعد فيه فى العام التالى أى عام ٤٥٠ م .

وتمت آخر إصلاحات السد فى عهد أبرهة ملك سبأ حوالى عام ٥٤٢ م وبذلت فيه حينذاك جهود ضخمة . بحيث ذكرت نصوص أبرهة أن رجاله قوضوا فى ترميم السد أحد عشر شهرا . واستهلكوا ٨٠٦.٥٠ غراره من المدقيق . و ٢٦.٠٠٠ حمل من التمر . و ٣٠٠٠ بعير وثور . و ٢٠٧.٠٠٠ رأس من الغنم . وعلى الرغم من قيام ثورة ضده حينذاك فى منطقة مأرب وتفشى الوباء فيها . إلا أنه أقام حفلا كبيرا بمناسبة انتهاء العمل فى إصلاح السد . حضره وفد من الحبشة . و وفد من فارس ، و وفد من بزنطة . و وفد من الحيرة و غسان .

وعلى أية حال فقد استطاع السبأيون على امتداد عصور اهتمامهم بسد مأرب أن يتدوا مشروعات كبيرة حق لهم أن يفخروا به بين المشاريع المائية الأخرى فى العالم القديم . وهى مشاريع كان من أقدم ما يمكن ترجيحه منها حتى الآن مشروع سد اللاهون فى مصر الذى شيد فى أوائل القرن الثامن عشر ق . م . لتوجيه جانب من فيضانات النيل إلى منخفض الفيوم لرفع مستوى المساء فيه حتى تنتفع به أكبر مساحة ممكنة من أراضي المدرجات الحصبة التى تحيط به . ثم الانتفاع ببعض مياهه لرى الأراضى القريبة منها فى غير أوقات الفيضان . وربما سبق مشروع هذا السد آخر فى منطقة الجزيرة بمصر أيضاً أقيم حوالى القرن السادس والعشرين ق . م . ولكن استخدامه لم يعمر .

وظل سد مأرب يودى أغراضه حتى نهاية عهد أبرهة فى عام ٥٧١ م أى بعد عهد بداية لإنشائه بأكثر من أحد عشر قرنا . ثم انهار أغايه عام ٥٧٥ م بما وصفه القرآن الكريم ووصف نتائجه فى قوله : (فأعرضوا فأرسلنا (م ٥ - شبه الجزيرة العربية)

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خيط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) - سورة سبأ - الآيات ١٥ - ١٨ .

وأقام السبأيون سدوداً أخرى محلية في عهود متفرقة في المناطق التي تصلها مياه السيول بعيداً عن منطقة مأرب . ومنها سد يعرف باسم « بني الحشرج » لتنظيم مياه وادي السيلة ، ويتكون من ثلاثة جدران ضخمة يقال إن كلا منها يمتد ما بين ١٥٠ - ١٨٠ متراً ، وتوجد فتحات كثيرة طويلة بينها ، وعثر جلاسراً على عشرة نقوش على صخورها .

ولم تغن السدود السبأين عن دعوات الاستسقاء وطلب رحمة السماء من حين إلى حين . وتختلف من نصوصهم القديمة التي وجهوها إلى معبوداتهم نص من عصر المكربين لرجل قدم هداياه وأضاحيه إلى معبوده عثر ذييان ، وقال في نهايته : « وسقى خرف ودثا سبأ وجوم شعبهم » ، أى وسقى (الرب) خريفا وربيعاً سبأ وجوماً (سقاية) مشبعة .

واختلف اللغويون في تفسير كلمة « جوم » في هذا النص ، ففسرها بعضهم بمعنى الشعب أو بمعنى الحلف . وفسرها بعض آخر بمعنى النهر أو معنى السهل ، وفسرها بعض ثالث بأنها تعنى الأراضي المنخفضة من تهامة اليمن .



التوسع الحربي :

غالباً ما تترتب على المشروعات الداخلية الكبيرة في الدول الفتية الناشئة مطالب ونتائج متنوعة يعبر الحكام عنها ويتولون رسم سياستها باسم شعبهم . فهى من ناحية تستدعى توفير الأمن لتنفيذها، وتستدعى العمل على تغطية نفقاتها سواء من موارد داخلية أو خارجية ، كما تستدعى في الوقت نفسه العمل على حمايتها من الأخطار المتوقعة الداخلية منها أو الخارجية أيضاً . فإذا

تم تنفيذ هذه المشروعات وآتت ثمارها وزاد الدخل القومي منها غالباً ما يرتفع شأن أصحابها في نظر أنفسهم ونظر شعبهم ، وهنا إما أن تشجعهم شهرتهم على أن يستزيدوا من الرفاهة لأنفسهم ويخلدوا إلى النعيم . وإما أن تشجعهم على أن يستزيدوا من قوتهم العسكرية والسياسية ليزيدوا لأنفسهم عن طريقها ما يعتقدون أنهم يستحقونه من الحمد والشهرة .

ومرت دولة سبأ بأمثال هذه الملاحظات والظروف حين مهدت لمشروعات الري الكبرى فيها وحين أتمتها . فقبيل البدء في مشروع سد مأرب عملت دولة سبأ على الاستزادة من موارد اقتصادية جديدة ولو على حساب جيرانها ، كما أخذت توطن نفسها منهم . وكان أقرب هؤلاء الجيران إليها : دولة معين في شمالها ودولة أوسان في جنوبها الغربي . وكانت الأولى تنافسها فيما تأتى به تجارة البر ، وكانت الثانية تنافسها فيما تأتى به تجارة البحر . وبدأت دولة سبأ منذ عهد المكرب يدع إيل بين الذي يؤرخ أصحاب التاريخ المختصر عهده ببداية القرن السادس ق . م . تقص أطراف دولة معين القريبة منها . ويفهم من نصوصه أنه عمل على تسوير مدن الحدود وتقوية أبراجها ليتخذها جيشه مراكز دفاعية أو هجومية في الوقت المناسب . ويحتمل من نفس النصوص أن مدنا حدودية معينة الأصل دخلت فعلاً في حوزة دولته مثل نشق ودابر (في جنوب منطقة الجوف) : ثم أعاد رجاله تحصينها لنفس الأغراض الدفاعية والهجومية السابقة .

وجرى خلفاء هذا المكرب على سياسته وعملوا على توسيع المدن الحدودية ومنها المدن المعينية التي دخلت في طاعة دولتهم . وأسكنوا فيها جماعات من السبأين لينتفعوا بها ، ويكونوا رقباء على أهلها : وسندا لدولتهم فيها . وكان من ذلك أن زيد اتساع مدينة نشق ٦٠ شوحطاً في عهد المكرب كرب إيل بين (في حوالى عام ٥٦٠ ق . م .) - ثم زاد اتساعها مرة أخرى وأصلح ماحوطها وأوقفت على مصلحة السبأين في عهد ولده ذمر عمالي وتر (منذ حوالى عام ٥٣٥ ق . م .) .

وانتفعت الدولة بحالة الأمن والرخاء التي وفرتها هذه الإنجازات وأمثالها لمضت في تنفيذ مشروع سد مأرب الكبير . وما أن تم تنفيذ مراحله

في عهد يثع أمر يمين حتى التفتت إلى توسيع الحدود وإرهاب الجيران مرة أخرى . فقد واصل هذا المكرب العمل على تسوير المدن وتجديد الحصون وروت نصوص عهده أنه هاجم (والأصح أن جيشه هاجم) مدن معين حتى منطقة نجران . ودمر بعضها وأحرق قراها وقتل منها الألوف وسبي الألوف . وروت نفس النصوص أنه (أو جيشه) اندار على دولة قتيان التي تجاور دولته من الجنوب وأنزل بمدنها دمارا ماثلا . ويلاحظ هنا أننا وإن سلمنا باتجاه النشاط الحربي لدولة سبأ إلى هذه الاتجاهات إلا أننا حرصنا على أن نقول وروت نصوص الملك السبائي كذا أو ادعت كذا للإشارة إلى أننا غير مازمين بالضرورة بأن نسل بحرفية ماورد فيها عن ألوف القتلى وألوف الأسرى وتوالي الانتصارات دائما لصالح أصحابها . ذلك أن المبالغات في تقارير الحروب أمر مألوف في العصور القديمة بل والعصور الحديثة أيضاً . وهو ما سنضعه دائما في الحسبان في مناسبات أخرى تالية .

وبعد جيلين أو نحوهما نشأت سبأ إلى حرب توسعية أخرى في عهد آخر مكربيها كرب إيل وتر (الثاني) . وكان داهية في الحرب والسياسة . ويفهم من نصوص عهده أنه هادن دولة قتيان ودولة حضرموت ليتفرغ لحربه مع دولة معين . وضمن حيادهما مرة أخرى ليحمي ظهوره في حربه مع دولة أوسان . وبدأ فاتجه بأطباعه إلى دولة معين ليستغل ما أنزلته الجيوش السبائية من قبل في نفوس أهل مدنها من الرعب وما صاروا إليه على أيامه من تفرق الكلمة وما لجأ إليه بعض أمراءهم من إعلان استقلالهم الذاتي عن جسيم دولتهم ، وهاجمها ببعض جيوشه . وعندما اتجه إلى دولة أوسان استمال إليه بعض حلفائها وأتباعها ليضعفها ويخرمها من معونتهم . ثم انخط عليها بقواته . وهكذا أخذت الجيوش السبائية تضرب هنا وهناك وتخرب وتحرق المدن والقرى بضراوة ثم اتجهت شمالا لتكمل سيطرتها على منطقة الجوف ومنطقة نجران . وهنا ادعت نصوص كرب إيل وتر سيطرته على الألوف من الأسرى وقضاءه على الألوف من الجنود مما سنعود إلى ذكره حين نعالج تاريخ كل من الدولتين معين وأوسان في تفصيل . وتكفي الإشارة هنا إلى ما عقيت به نصوص ذلك

المكرب المنتصر من أنه أعاد توزيع الأقاليم التي خضعت له . فاحتجز بعضها لنفسه : وخصص بعضها لمعبودة الأكبر «إلمقه» . وأقطع بعضها للقبائل الموالية له ولاسيما قبياته التي كانت تسمى فيشان أو بيشان . كما تنازل عن بعضها لدولتي قتيان وحضر موت . مكافأة لهما على حيادهما . خلال حروبه الطويلة مع خصومه : وتعويضاً لهما عن سبق اعتماد أوسان على حدودهما .

وعندما اطمأن كرب إيل وتر إلى سلامة مركزه شجعت انتصاراته على أن يصبح حكمه بالصبغة المدنية علانية إلى جانب قداسه الروحية . فأعلن نفسه ملكاً . وادعى في نصوصه أن ربه إلمقه هو الذي تخيره ملكاً أو صيره ملكاً وأيده في مشروعاته . وسجل أخبار انتصاراته (عن طريق كتبه) في نص كبير في المعبد الأكبر بالعاصمة القديمة صرواح . ومن تصارييف الأقدار أن نص النصر الكبير هذا قد آل مصيره إلى التلف والمهانة في بداية العصر الحاضر بعد أن أطل وجه الحجر الذي نقش عليه على حظيرة للمشاة وأطل وجهه الآخر على طريق السابلة ليعيث الصغار فيه ما شاءت لهم رغبة العبث .

وكما كان كرب إيل وتر خاتمة لعهود المكربين أصبح بداية لعهود جديدة في تاريخ دولته وهي عهود الملكية السبائية التي يبدؤها أصحاب التاريخ المختصر نحوالي عام ٤١٠ ق . م . (بينما كان أصحاب التاريخ المطول يبدؤونها نحوالي عام ٦٣٠ ق . م .) .

وقبل أن ندع عهود الكربين نود الإشارة إلى نظرية جديدة خرج بها الباحث A. G. Loundine منذ عام ١٩٥٦ . ولم تستقر صحتها تماماً حتى الآن . ومفادها أن السبائين وإن لم يؤرخوا نصوصهم بسنوات حكم المكربين ولم يدرجوا أسماء أولئك المكربين في قوائم متصلة . مما أدى إلى الاختلاف الواسع في تأريخ عهودهم كما أسلفنا من قبل : إلا أن التنظيمات السبائية جعلت إلى جانب المكرب موظفاً كبيراً بلقب « رشو » . ربما بمعنى الكاهن النائب ، ليؤرخ الناس باسمه في فترة نيابته التي تسمى « رشوة » أو « رشاة » وكان يلي

الكهانة لمعهود قومه «عثر» بالوراثة ولداً عن والد في أكبر عشيرة في الدولة بعد عشيرة الملك (وهي عشيرة حزفر من قبيلة خليل) — ويشرف إلى جانب كهنته على مشروعات الري والزراعة بخاصة . وربما لم تكن لنيابته فترة محدودة في عهود المكربين ولكنها أصبحت محددة بست أو سبع سنوات في عهود الملكية كما سنعود إلى ذلك فيما بعد ، وقد يحمل مع لقبه الخاص لقب « مود » أى صديق إشارة إلى الصلة أو المودة بينه وبين مكرب دولته .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم - القاهرة ١٩٦٣ . ص ١٥٩ - ١٨٥ .
جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - بيروت ١٩٦٨ - ج ٢ - مادة سبأ .
نيلسن ، وهومل . ورودوكانا كيس ، وجروهمان : المرجع السابق - ص ٧٥ - ٨٧ .
٢٨٩ - ٢٩٢ .

Bowen, R. Jr., Albright, W. F. and Others, Archaeological Discoveries in South Arabia, I, Baltimore. 1958, 70—75.

Philby, H.J.B., The Background of Islam, Alexandria. 1947; 32—41.

Phillips, W., Qataban and Sheba, New York 1955.

Shahid, I. Pre-Islamic Arabia. C H I. Cambridge 1970.

الفصل الخامس

دولة قتيان

أ - التكوين السياسى :

قامت دولة قتيان (ق ت ب ن) إلى الجنوب من دولة سبأ وتضمنت وادى ييحان ووادى حريب وما يشغل جزءاً من اليمن وجزءاً من عدن الحاليين . وعاصر كيانها السياسى فى بعض عهوده بقية الدول العربية الجنوبية ، سبأ وحضرموت ومعين وأوسان . وتراوحت آراء الباحثين فى تعيين بداية هذا الكيان القتيانى السياسى بما بين منتصف القرن التاسع ق . م . وبين القرن السابع ق . م ولكن الوجود الاجتماعى والنشاط الاقتصادى لجماعات القتيانيين قد رجحنا (فى ص ٤١ - ٤٣) إرجاعه إلى ما قبل ذلك بعدة قرون ، حينما دللنا على قيام التبادل التجارى بين الجنبتين القتيانيين وبين مصر القديمة فى عهد الملك تحوتمس الثالث خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ووجد هذا الدليل المصرى القديم أدلة أخرى تقاربه فى نتائج أبحاث بعثة أثرية أمريكية حديثاً فى قتيان . فقد عثر الباحثان ألبرت جام وفرانك ألبرايت A. Jamme and F. P. Albright على مخربشات قتيانية (أى نصوص قصيرة غير متقنة) فى هجر بن حميد ووادى فرع اتجهت بعض سطورها من اليسار إلى اليمين مما يعنى فى رأيهما قدم عهدها ، كما تعرفا فيها على أشكال حروف هجائية أرجعا أسلوب كتابتها إلى حوالى القرن العاشر ق . م . واعتبارها من حيث الشكل بقية من مرحلة التحول من الخط الكنعانى القديم الذى يحتمل أن نقله بعض العرب عن جنوب الشام . إلى خط آخر تميزت به النصوص الجنوبية وهو الخط المسند . وأضاف جام عن بدائية أشكال هذه الحروف أن رسمها لم يلتزم باتجاه ثابت ، فبعضها يميل يميناً وبعضها يميل يساراً ، وبعضها مقلوب وبعضها رسم على جانبه ، وكان تعدد الاتجاهات فى رسم الحروف من مظاهر المرحلة الأولية فى الأبجدية الكنعانية فى الشام حتى

القرن الثاني عشر ق . م . وزكى فان بيلك وآخرون هذا الوجود القتباني القديم من ناحية أخرى بدراسة تتابع الفخار في مستويات العمران في هجر بن حميد . حيث أرجعوا أنواع الفخار في أقدم مستويات هذه البلدة إلى مايا دور حول القرن الحادي عشر والقرن العاشر ق . م . وزاد وندل فيليبس على هذا فافترض من ملاحظة مستويات أطلال المباني في المدن القتبانية احتمال بناء بعضها في أواسط الألف الثاني ق . م .

ومع هذا القدم النسبي للكيان القتباني -- ونعني بالنسبية هنا ما يتعلق بالجنوب العربي : وهو أحدث بطبيعة الحال في تكويناته السياسية كثيرا عن دول الهلال الخصيب الكبيرة القديمة -- فقد لاحظ بعض اللغويين أن اللهجة القتبانية وإن بدت أقرب إلى لهجات حضرموت ومعين منها إلى اللهجة السبئية ، إلا أن أسلوب الكتابة القتبانية الرسمية وأسلوب تركيب أسماء وألقاب الحكام الكبار فيها ظلا أقرب إلى أمثالهما في دولة سبأ . ومن التفسيرات المحتملة هاتين الظاهرتين أن أقواما من الحضارمة والمعينين كانوا يشاركون القتبانيين أصلهم القبلي . أو كانوا يشاركونهم أرضهم في عصور قديمة . ولكن هذه الأرض خضعت في فترة ما لنفوذ سبأى سياسى وانتقل إليها ما كان شائعا في سبأ من أسلوب الكتابة الرسمية وطريقة تركيب أسماء (أو ألقاب) الحكام . وإذا صح الشطر الأول من هذا التفسير كان فيه ما يزكى ما سبقت الإشارة إليه من أن الجماعات العربية القديمة في الجنوب وفي الشمال : كذلك ظلت لفترات قديمة طويلة لا تلتزم بحدود إقليمية أو قومية قاطعة فيما بينها : من قبل أن تقوم فيها الدول السياسية واضحة المعالم والحدود .

وبدأ الحكم في دولة قتيان بنفس الصيغة الشوقراطية أو الدينية التي بدأ بها في بقية الدول العربية الجنوبية . فتلقب أوائل حكامها الكبار منذ القرن السابع ق . م . (في عرف أصحاب التاريخ المختصر) بلقب «مكرب» وهو لقب تناولنا مدلولات مثله من قبل في سياق الحديث عن حكام سبأ . ومنذ نهاية القرن الخامس ق . م . أو بداية القرن الرابع ق . م . فيما يرى البرايت غلب الحكام القتبانيون الصيغة المدنية والسياسية في حكمهم وتلقبوا بالألقاب

الملوك . وليس من المستبعد أن ذلك التحول قد ارتبط في حينه بنصر سياسي أو حربي رفع من شأن الحاكم القتياني في نظر نفسه ونظر شعبه وجعله يعتبر نفسه لا يقل مكانة عن ملوك سبأ الذين سبقوا في التحول إلى نظام الملكية ، لاسيما بعد أن خف الضغط الذي فرضته هذه الدولة على جيرانها في عهد ملكها الداهية كرب إيل وتر .

ويبدو أن قتيان قد استفادت من وضع كانت قد سمحت لها به دولة سبأ المعززة بقوتها . ثم استغلته لمصلحتها . فقد مربنا أن كرب إيل وتر منشئ نظام الملكية في سبأ أقطع قتيان بعض الأراضي التي استولت جيوشه عليها من دولة أوسان مكافأة لها على التزامها بموقف الحياد خلال حروبه ، وهو مطمئن إلى بقاءها موالية له . وكانت هذه الأراضي الأوسانية الأصل تطل على ساحل البحر الأحمر وتنتفع من موارده التجارية ، ولهذا عملت قتيان على تدعيم سلطتها عليها وتوسيع رقعتها لمصلحتها .

ومع منطقية هذين السببين السياسي منهما والتوسعي للتحول إلى الملكية في قتيان ، لا بأس من تقدير عوامل أخرى داخلية غالباً مماثلة نتائجها في نظم الحكم الشيوقراطية الأصل . ذلك أن تجارب التاريخ أوضحت أن الصيغة الشيوقراطية في الحكم أشبه بسلاح ذي حدين : فهي وإن ضمنت القداسة للحاكم الأعلى وكفلت له الولاء الروحي من شعبه . إلا أنها كانت تخلق أمامه على مر الزمن منافسين من كبار رجال الكهنوت الذين يشاركونه السلطة باسم الدين ، وحينئذ يري من مصلحته أن يرتفع عن مستوى رئاسة الكهنوت إلى مستوى الملكية ذات السلطات الشاملة .

وعلى أية حال . فإن التحول نحو الملكية في قتيان لم يمنع بعض ملوكها من العودة إلى التلقب بلقب المكرب بين حين وآخر تأكيداً لصفته الدينية ولا سيما في أوقات الأزمات (وقد تلقب به الملك يدع أب ذبيان في القرن الثاني ق . م . ، وكذا الملك شهر يجل يهرجب) ، ولم يقلل من استمساكهم بالألقاب التي أكدت صلتهم المباشرة بمعبوداتهم والتي كان منها ما يعتبر الملك ولد (المعبود) عم . والابن البكر (لكل من) أنباى وحوكم .

واستمر الحكم الأعلى وراثيا في الأسر المالكة في قتيان يتولى العرش فيه الابن بعد أبيه ، أو الأخ بعد أخيه إن لم يكن له ولد يخلفه . وربما اشترك ولي العهد مع الملك الحاكم بعد أن تتقدم به السن كى يأخذ عنه خبرته ويمارسها بصورة عملية ، ويؤيد حقه الوراثي عن طريق هذا الاشتراك ويضمن عدم منافسة إخوته له فيه بعد موت أبيه ، وحينذاك تصدر المراسيم باسمي الحاكمين الشريكين معا . ولم يكن الوطن القتياني أقل منزلة عند أهله من مقدساتهم الدينية ، فإلى جانب القسم الرسمي بأسماء المعبودات لاسيما عم وأنباى ، وباسم الملك الحاكم ، كان يقسم كذلك باسم قتيان .

وفي ظل الملكية قام في قتيان مجلس للأعيان من شيوخ القبائل وكبار الموظفين أطلق عليه اسم (م س د) أو «مسود» ، ووجد له شبيه بنفس الاسم في دولة معين ، ولاندرى أيهما سبق الآخر . وجرت العادة على أن يجتمع هذا المجلس في العاصمة « تمنع » بدعوة من الملك ، ربما لمرتين على الأقل في كل عام ، للنظر فيما يعرض عليه من شئون الضرائب والمنشآت العامة ، وللمداولة في أمور الحرب والسلم . وإصدار العفو الكلى أو العفو الجزئي في القضايا الكبيرة . ويتعرف الملك على نتائج قرارات المجلس فإن أقرها صيغت على هيئة مراسيم وأعلنها باسمه . أو وقعها معه رئيس مجلس المسود . وربما وقعها كذلك في بعض الأحوال كبار رجال المجلس بأسمائهم مشفوعة بأسماء عشائريهم أو قبائلهم . وهكذا توافرت لمجلس المسود القتياني صفات متعددة : فهو مجلس ملكي يجتمع بأمر الملك وينفذ بأمره ، وهو مجلس استشاري يحق للملك أن يقبل اقتراحاته أو يرفضها ، ثم هو في الوقت نفسه مجلس للدولة يضم كبار أعيان قبائلها وأقاليمها ويبحث في مصالحها . كما أنه مجلس تشريعي يصوغ القوانين والملك عليها بعد موافقة ثم يوقع رئيسه عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك بعد توقيع الملك عليها .

وعلى الرغم من صدور المراسيم باسم الملك القتياني الحاكم إلا أنها لم تكن تؤرخ بسنوات حكمه ، وإنما تؤرخ بعام رئاسة رئيس مجلس المسود . ويبدو أن هذه كانت رئاسة دورية يتعاقب عليها كبار أعضاء المجلس لفترات

محدودة قد تقتصر على عام أو عامين لكل منهم ، وقد تزيد عن العامين في أحوال استثنائية يتجدد فيها اختيار الرئيس أكثر من مرة لسبب أو لآخر

وكانت الأوامر أو المراسيم الملكية تنقش على مدخل العاصمة « تمنع » أحيانا ، وتنقش على نصب تقام في السوق الرئيسية وفي المعابد . وتخدم بذلك أغراضاً شتى منها توفير العلنية للمراسيم ، وتخليدها للذكرى الملك الحاكم الذي صدرت باسمه ، ولتظل مرجعاً لما يعقبها من عهود وقوانين . ويضاف إلى هذه الأغراض فيما يختص بنقشها على نصب المعابد أن من المعابد ما كان لها موضعها المتوسط داخل المدن ، ويتردد عليها كثير ممن يعرفون القراءة ، فضلاً عما توحى به من وضع الأوامر الملكية تحت رعاية أربابها : وإشعار الناس أن هؤلاء الأرباب شركاء فيها ، لا سيما إذا تناولت حقوقاً مفروضة للمعابد ومنشأتها وكهنتها . وليس ما يمنع بعد هذا من إفراض وجود منادين يعلنون مضمون هذه الأوامر والمراسيم شفاهة في الأحياء والأقاليم والقبائل باسم الملك الحاكم .

ومن أهم ما تضمنته نقوش البوابة الجنوبية للعاصمة تمنع . والتي يحتمل تسميتها ببوابة « ذو سدان » . بقايا نص لتشريع صدر في عهد الملك يدع أب ذبيان بن شهر في بداية القرن الثاني ق . م . وفيه ما يقضى على القاتل القتباني بالحرمان (من الحقوق المدنية أو الدينية) بحكم خروجه على القانون ، فإن تجاهل مقتضيات هذا الحكم . وأصر على البقاء في قتبان أباح الملك دمه ، دون أن ترتب على قاتله عقوبة أو ملامة .

ب - في الحياة الاقتصادية :

اعتمدت اقتصاديات قتبان وسلطة حكامها على ما اعتمدت عليه أغلب الدول العربية الجنوبية . من التجارة الداخلية والتجارة الخارجية ، وتنمية الثروة الزراعية والصناعية . وربما الثروة الرغوية أيضاً . ثم الاستفادة في الوقت نفسه من تحصيل المكوس والضرائب على هذه وتلك . ووجدت مسألة حجرية صغيرة داخل العاصمة تمنع نقشت عليها بعض تنظيمات التجارة الداخلية والضرائب في عهد الملك شهر هلال بن يدع أب ، وهدفت إلى ضمان حقوق

الدولة في ضرائب التجارة ، وحماية مصالح المواطنين التجار والمستهلكين ، وتركيز تجارة العاصمة في سوق شمر ، وإلزام التجار الأغراب بتبليغ الدولة عن شئون تجارتهم سواء للإذن بممارستها أو لتقدير الضرائب عليها .

وجاء في هذا المرسوم على سبيل المثال أنه « أما تاجر في تمنع أوفى برم ، مهيا كانت تجارته . يجب أن يدفع ضريبة في تمنع ليكون له دكانه في (سوق) شمر . وهذا حق (وواجب) لكل تاجر أيما كانت قبيلته . فإذا أسس دكانه أصبح له الحق في أن يتاجر وحده أو يشارك غيره . دون اعتراض من مدير شمر . وإذا سمح مدير شمر للتجار القتبانيين بأن يتجولوا بين القبائل للتجارة وأعلن ذلك أصبح حقاً لهم .

فإذا أخطروه بأن أجنياً نافسهم في هذه التجارة أو خدع أحدهم ، غرم هذا الأجنبي خمسين وزنة ذهبية .

ومن أدى ضريبة سوق تمنع ليتاجر فيها . فتاجر مع قبيلة أخرى : فقد حقه في ممارسة هذه التجارة . وذلك حفاظاً على حق القتبانيين الذي خصصه الملك .

وإذا أجر مواطن داره أو مختناً ، (٤) لتاجر أصبح ملزماً بأداء ضريبة السوق في تمنع إلى الملك : من تجارة (المستاجر) وما تغله : فإن لم تكف دفعها مما يملكه ومن كسبه الخاص .

وإذا باع شخص تجارة جملة . وكان ينبغي أن تباع في سوق شمر . وجب أن يجرى بيعها بالتجزئة عن طريق وسطاء قتبانيين .

وإذا دخل تاجر سوق شمر بتجارة يود أن يبيعها لبلا . وجب على الناس أن ينفضوا من حوله حتى يطلع النهار .

وانتهى المرسوم بالنص على أن للملك حق السيادة على كل معاملة وكل تجارة تجرى في منطقته — وهذا أمر ينبغي على كل ملك (قال) أن يؤيده .

ويبدو أن ما يستخرج حتى الآن من كميات الملح من نهاية وادي بيهان . وعلى أعماق مختلفة فيه : ثم يصدر بعضه إلى مناطق أخرى من الجنوب العربي . كان يمثل مورداً اقتصادياً له اعتباره كذلك في العصور القديمة .

ومن أجل خدمة وتشجيع قوافل التجارة الخارجية أو تجارة المرور (الترانسيت) لا سيما فيما يختص بالبخور بأنواعه ومشتقاته . ومن أجل إحكام الإشراف عليها في الوقت نفسه . مد القتبانين الطرق البرية ومهدوها . ومن أهمها طريق ممر مباتمة (العقبة) الذي بذل فيه مجهود بارع بالنسبة لعصره وبيئته ليصل عبر الجبال بين وادي بيهان ووادي حريب . وتعتبره القوافل المتجهة من عدن إلى نواحي مأرب في سبأ . عبر الأراضي القتبانية . وقد مهدت أرضيته بالأحجار باتساع يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار . وامتد نحو ثلاثة أميال بين ارتفاع وانخفاض بانحناءات كثيرة في أجزاء سقها الطبيعة وأجزاء أخرى مهدتها يد الإنسان على مدرجات جبلية تحدى جوانبها جدران منحوتة أو مبنية . وأقيم على كل من طرفي هذا الطريق الطويل حوض للماء لخدمة القوافل وسقاية الإبل . ووردت ثلاثة نصوص من عهد الملك يدع أب دبيان بن شهر تحدثت عن تعبيده في أيامه . ولوحظ أن هذا المجهود كان يمكن توفيره باستخدام طريق سهلي آخر يمتد من غرب العاصمة تمنع رأساً إلى وادي حريب . لولا حرص القتبانيين على التحكم في التجارة التي تمر في منطقتهم ورغبتهم في إطالة مسالكها داخل أرضهم ليحصلوا أكبر نسبة من المكوس عليها . ونظراً للأهمية الاقتصادية لهذا الطريق نشأت بعض البلدان حوله . ومنها ذوغيلان (حصن الحضيري) عند مدخله . وبحوارها هجر بن حميد على جانبه الشرقي . وحنو الزرير على جانبه الغربي . ولعلها قامت في بداية أمرها كمحطات للقوافل ومراكز لتحصيل المكوس ثم اتسع عمرانها .

ومهد القتبانيون طريقاً آخر في ممر نجد مرقد على الحافة الصحراوية بين وادي بيهان ووادي حريب أيضاً . ورصفوه . وتمر القوافل خلاله بين جدارين يبلغ سمك الواحد منهما نحو المتر - وقام فيه مركز لتحصيل المكوس من قوافل التجارة المتجهة إلى حريب التي تبعده عند بنحو خمسة أميال . أو الخارجة منها في اتجاهها إلى بيهان والعاصمة تمنع .

وتوفر للاستثمار الزراعي دور كبير آخر في اقتصاديات قتبان ، ولا سيما في سهلي بيهان وحريب . وبدأت مشروعات الري في وادي بيهان منذ

القرن الخامس ق . م . وهو واد كبير ينحدر من المرتفعات الجنوبية ناحية الشمال التقريبي ويبلغ متوسط اتساعه بين ثلاثة وأربعة كيلو مترات ، وإن زاد عن ذلك كثيراً أو قل عنه في بعض أجزائه . وفي انحداره تتعاقب على جانبيه تكوينات بركانية من الشست والكوارتز . ثم لا تلبث هذه التكوينات حتى تختفي تحت رملة السبعيتين الصحراوية الضخمة . وقامت على البداية الشمالية للوادي مدينة تمنع عاصمة قتيان . كما قامت على بدايته الجنوبية حاضرة أخرى تعرف الآن باسم بيجان القصاب ولا زالت أغلب آثارها لم تكتشف بعد .

وعادة ما كانت مياه الأمطار الموسمية تصل إلى وادي بيجان على هيئة السيول فتملاً مجراه الذي يمتد نحو ٦٥ كيلو متر بعد أن يترك الجبال . وباتساع يتراوح بين مائة ومائتي متر عرضاً . وقد تنقطع هذه السيول لعدة سنوات ، وتتشرب الأرض الرملية جانبياً منها — ولكن مواسمها وسيولها القديمة أرسبت على مدرجات الوادي مع توالي الأزمنة طبقات كثيفة من الطمي تراوح عمقها في بعض مواضعها بين ١٥ وبين ١٨ متراً .

ولا ندري هل استفاد القتيانيون خبرة ما من نتائج مشروعات الري في أراضي جارتهم سباً وقلدوها أم لا . ولكن الدلائل تشير إلى أنهم أحسنوا استغلال أوضاع واديهم فأنشأوا فيه شبكة مائية ضخمة . يفهم من وصف المتخصصين لها أن مجارى المياه الرئيسية منها ، والتي تتلقى معيها من سيول الأمطار الموسمية . امتدت كيلو مترات طويلة وبلغ اتساع بعضها نحو ٤٠ متراً وارتفعت عن مستوى الأراضي الزراعية بنحو أربعة أمتار ولهذا بنيت فيها أهوسة ساعدت على نقل مياه الري من المجارى المرتفعة إلى أهوسة أخرى فرعية منخفضة في مستوى الحقول . حيث تتوزع منها على قنوات كثيرة صغيرة . وكانت سرعة توزيع المياه على هذه الفروع الصغيرة مما يضمن الاستفادة بها . وعادة ما كسيت منحنيات الترع بمداميك حجرية تتراجع مع جوانب المجرى إلى الخلف لمنع تآكلها .

وقامت منشآت ري أخرى وشقت ترع في وادي حريب الذي يقع إلى

الغرب من وادى بيهان ويصل بينهما وادى مبلقة عبر الجبال . ووادى حريب أعرض من وادى بيهان ولكنه أقصر . وامتدت الترع والمنشآت المائية إلى وديان فرعية تتصل به (مثل وادى العين ووادى مقبل ووادى مبلقة ووادى وهبة) . ولا تزال بعض أطلال مبانى هذه المشروعات المائية ظاهرة بينما غطت الأكوام على بعضها الآخر ، وتآكلت بقيتها نتيجة لارتفاع المجارى المائية عن الحقول المنزرعة كما أسلفنا مما جعل عوامل التعرية تعمل عملها فيها . ولا تزال تتناثر في الوديان نتيجة لهذه المشروعات بعض حفر وجذور ما كان ينمو فيها من نخيل التمر والدوم وأشجار المر الذى أشار الرحالة استرابون في القرن الأول ق . م . إلى شهرة قتيان بالتجار فيه وإنتاج بعض أنواعه .

ومارس القتيانيون إنشاء السدود ضمن مشروعات الري . على نطاق ضيق . ومنها سد فرعى في منطقة الحضرة يمتد إرجاعه إلى القرن الرابع ق . م . لصد مياه وادى حماد . وشيد بأسلوب بسيط فبنى بأكوام من الرديم والطين الجاف دعمت واجهتها المواجهة لتيار الماء بالأحجار كما دعمت أعاليها بالأحجار أيضاً . وثمة بقايا سد آخر بجوار بيهان القصب .

ومن المشروعات المائية القتبانية أيضاً حفر الصهاريج . ولا تزال تتوزع على قمة جبل ريدان وسفوحه آثار صهاريج قتبانية كان البعض منها يتسع لآلاف الجالونات . ويبدو أنها وزعت على مستويات مختلفة بحيث إذا فاض الماء من أحدها نزل الفائض منه إلى ما يليه . وحفرت هذه الصهاريج في الأرض وكسيت من الداخل بلياسة من أسفلها حتى الارتفاع المحتمل لما تحتزنه من الماء . واختلف الرأي في توقيت إنشائها بين ما يعاصر العصر الفارسي في القرن الخامس ق . م . وبين القرن الميلادي الأول .

ولم تغن كل هذه المشروعات القتبانيين عن حفر الآبار العادية في المناطق التى تحتاجها ، ويحتمل أنه كانت تتسرب إليها المياه الزائدة في المزارع فتختزن طبيعياً فيها حتى يحين وقت الحاجة إليها ويتيسر رفعها .

وحول نبع طبيعى في وادى فرع إني بيهان ظاهرة طريفة : حيث مهد الطريق إليه بممرات ضيقة مرصوفة ، ولتيسر وصول الرعاة ورجال القوافل

إليه حفرت علامات على الصخور قبل الوصول إليه بنحو كيلو متر ، ومنها ما يمثل شخصا يشير بإصبعه إلى مكان الماء . ولهذه العلامات ما يماثلها في مناطق متفرقة من صخور بيحان وفي مناطق قريبة من الربع الخالي حيث تشتد الحاجة إلى معرفة أماكن المياه .

ومع هذه التيسيرات لتوفير مياه الري والشرب : لوحظ في آثار المدن والقرى (في هجر بن حميد والخرجة وجبل الحضرة والنقب) أنه كان يوضع أمام كل دار حوض قليل العمق مئیس لون الداخل . ملأه بالماء .

وظلت ميروعات المياه تؤدي أغراضها حتى القرن الثالث الميلادي . لا سيما في وادي بيحان . غير أن استمرار الاستفادة منها كان يتطلب استمرار العناية بها . فقد كان ارتفاع الحجاري الرئيسية عن مستوى الأراضي المزروعة يعرضها لعوامل التعرية كما ذكرنا . كما أن ارتفاع الإرساب نتيجة لنظام الصرف المستعمل وتوزيع المياه في الحقول . كان يتطلب الارتفاع بالقنوات الفرعية والارتفاع بمدخلها إلى مستوى الحقول .

واستفادت الدولة من ضرائب الزراعة كما استفادت من ضرائب التجارة . ويفهم من دراسات الباحث رودوكاناكيس Rhodokanakis للنظم القبطانية أن الضرائب في قبطان وفي غيرها من الدول العربية الجنوبية كانت تعادل العشر أو ما يقرب منه ، وتؤدي عبية عادة أي من نفس محصول الأرض والمصانع والمتاجر . ويتولى الإشراف على تحصيلها ولاية الأقاليم وشيوخ القبائل أحيانا . كما كانت الدولة تأخذ بنظام الالتزام في تحصيل ضرائبها أحيانا أخرى ، فتسمح لبعض كبار أهل القرى والأقاليم والمعابد بأن يتولوا جباية ضرائب معينة وتخصص لهم جعلا منها .

وامتد تحصيل الضرائب إلى ما هو أكثر من هذا ، فورد في أمر أصدره ملك قبطاني إلى كبير إحدى القبائل بأن يؤدي إلى خزائنه من ضرائب قبيلته ما ترجمه رودوكاناكيس : « عشر كل ربح صاف وكل ربح يرد عن طريق الالتزام وكل ربح يجبي من بيع ومن إرث » . وقد تدل العبارة الأخيرة على

تحصيل رسوم على عقود البيع وعقود التوريث على نحو ما تجرى عليه قوانين الضرائب في أغلب المجتمعات المعاصرة .

ج - من آثار العمران والفنون :

قدر الاتساع القديم لمدينة تمنع (هجر كحلان الحالية) عاصمة قتيان بنحو ٥٢ فدانا - وخلد الرحالة بليبي أهميتها حينما روى أنها كانت تتضمن ٦٥ معبدا . ومع ما في رواية بليبي من مبالغة واضحة فإن الآثار الباقية في تمنع تشهد بروعتها النسبية القديمة فعلا رغم عوامل التخريب التي لحقت بها قديماً وحديثاً . وقد أنشئت هذه العاصمة فوق ربوة مرتفعة بعض الشيء عند النهاية الشمالية لوادي بيحان ، وكان يحيطها سور يحميها وإن تداخلت بعض المساكن في أجزائه نتيجة لازدياد العمران . وتضمن السور أربع بوابات كشف عن اثنتين منها في ناحيتي الجنوب الغربي والجنوب الشرقي للمدينة . وكانت أولى البوابتين وتعرف عادة باسم البوابة الجنوبية ، هي الأقدم ، وترتب على بنائها بأحجار صلبة كبيرة أن بقي للآن جزء من بنيانها يرتفع أكثر من ثلاثة أمتار ، وأجزاء من الصرحين أو البرجين اللذين كانا يحيطان بها . ويبدو أنه كان لدخلها باب خشبي ضخيم ينزل من أعلى إلى أسفل حين غلقه ويدعمه من الخلف عارض خشبي أفقي متين . واحتفظت جدران البوابة ، وهذا هو الأهم ، بنصوص عديدة سجلت بأسماء بعض ملوك قتيان ، وكان من أقدمهم يدع أب ذبيان - كما تضمن أحدها تشريعاً للدولة أشرنا من قبل إلى فقرة منه .

وقام في داخل المدينة مبنى متسع فخم ، اعتبره فان بيك معبداً رئيسياً ، واعتبره جام قصرأ ملكيا للاحتفالات العامة . وقد شيدت الأجزاء الأقدم منه على مرحلتين خلال عهود المكربين بين القرن السابع والقرن السادس ق . م . ثم جددت أجزاؤه وأضيفت إليها إضافات مرتين أيضاً على الأقل في عصور الملكية في أواخر القرن الرابع ق . م . ثم في القرن الأول ق . م . وتشابهت بعض هذه الإضافات مع أساليب العمارة الشائعة في الحضارات الخارجية التي اتصل القتيانيون بها ، فشيدت جدران المبنى خلال مرحلة البناء الثانية بمشكاوات

رأسية (أو دخلات رأسية) متسعة تعاقبت على مسافات متساوية . وكان هذا الأسلوب المعماري شائعاً من قبل في أقطار شرقية قديمة مثل نواحي العراق ومصر وفارس وغيرها . وعندما تمت المرحلة الأخيرة لتجديد المبنى في عهد الملك شهر يجل يهرجب في بداية القرن الأول ق . م . أخذت عناصره ببعض خصائص فن العمارة الهيلنستية الشائعة في عصره . وقد بدأ في صورته العامة عند اكتماله تؤدي إلى بابه درجات متسعة يحف بها جداران جانبيان . ويؤدي مدخله إلى فناء كبير مرصوف كانت تحيط به من ثلاثة جوانب أعمدة مربعة ، بينما يتوسط ضلعه الشرقي (المقابل للمدخل) خمس درجات حجرية متسعة أخرى يزيد عرضها عن ستة أمتار . وتؤدي إلى بهو كبير مرتفع تحتمل تكسية أرضيته وأسافل جدرانها الداخلية ببلاطات من الألباستر القرمزي رقت بحروف تساعد على وضع كل صف منها في موضعه المناسب . وتوسط هذا البهو ممر للمواكب قامت على جانبيه أربعة صفوف من المبانى الصغيرة لم يتضح الغرض منها حتى الآن . ولعل الارتفاع التدريجي من باب الدخول إلى الفناء ومن الفناء إلى البهو كان مقصوداً لذاته .

وكشفت البعثة الأمريكية للآثار التي أظهرت تفاصيل هذا المبنى الفخم منذ عام ١٩٥٠ - ١٩٥١ عن مساحة واسعة أيضاً حول البوابة الجنوبية لمدينة تمنع تضمنت مزيداً من الجدران المتصلة بها ومدخل فنائها وشارعين وعدة مبان . كما كشف الأهليون بعد ذلك بطريق المصادفة عن مبان أخرى . وتعددت الفروض بشأن الأغراض التي خدمتها هذه العناصر المكتشفة . وكانت منها دور تضمنت نصوصاً تحدد أسماءها وأسماء أصحابها أحياناً (مثل : دار يفش ، ودار يافع ، ودار هدث ، ودار شبعان ، ودار عثمان ... إلخ) .

وظهرت مبان أخرى افترض مكتشفوها أنها خدمت أغراضاً عامة . ففي داخل بوابة المدينة وجدت على سبيل المثال ساحة رصفت بالحجر وقامت على جانبيها دكات حجرية مما احتمل معه أنها كانت ساحة سوق أو ساحة لاجتماعات (بما يشبه ساحة أو داراً للندوة) . ومبنى آخر شيد على دكة مرتفعة ويؤدي إليه درجان (أحدهما من ناحية الجنوب والآخر من ناحية

(الشرق) . وتضمن في مدخله صفوفاً من المناضد الحجرية ، مما دفع بمكتشفه إلى أن يفترض أنه كان يمثل دار محكمة مركزاً للشرطة أو نحوه .

ومن أهم الدور الح : التي أشرنا إلى . "الكشف عنها قرب بوابة المدينة مبنيان متصلان سمي أقدمهما بيت يفش . وسمي آخر بيت يافع (أو يفعم) ، واتصل به بطريق يؤدي إلى فناء . وكنموذج للمباني الثرية في تمنع لا بأس من تقديم وصف مفصل لبيت يفش . فقد تألف من طابقين : طابق أرضي ذي صغرات أو بواكي مسقوفة . وعدة غرف تقوم بدور صانع خاصة صغيرة . ثم طابق علوي تضمن شرفات ومتصورة مباحر ومخزير للبخور . ويستنتج من ستة نصوص تعلقت به أنه شيد في أواخر القرن الثاني ق . م . (كما يعتقد أ. أيت) . ثم اشتراه وجدده رجل من أثرياء العاصمة يدعى هوفعم بن ثوب في بداية القرن الأول ق . م . ووقفه بإسمه (وربما بإسمه مع إثنين من أسرته مرة أخرى ؟) على كبار معبودات قتيان : أنباي ، وإيل تعلاي ، وعثر ، وعم ، وذات سنم ، وذات ظهران ، وورفو . وبقيت بين أطلال هذا المبنى ثلاث غرف في حال طيبة بحيث عثر في داخلها على صناديق للبخور ومرايا برونزية وما شابهها .

وأمتع ما عثر عليه بجوار جداره الجنوبي المواجه لبوابة العاصمة : تمثالان من البرونز (ارتفاع كل منهما ٦١ سم وطوله ٧٠ سم) ولا يعرف إن كانا في الأصل متجاورين أو متقابلين . ويمثل كل منهما لبوة بكفل أسد ترفع إحدى ساقيها الأماميتين ، ويعتليها غلام عار يمسك قوساً يميناه ويقبض بيسراه على حلقة لسلسلة كانت تنتهي بطوق يحيط بعنق اللبوة ، ولعله كان يمسك أيضاً بسوط أو نحوه . والغلaman توأمان مع اختلاف يسير بينهما في الملامح . ويعتبر التمثالان من أروع القطع الفنية التي احتفظت بها مناطق الجنوب العربي حتى الآن والتي تزكي ما رواه استرابون في القرن الأول ق . م عن مهارة العرب الجنوبيين في الصناعات المعدنية . وسجل على قاعدة أحد التمثالين إسم الفنانين ثويب وولده عقرب (بحرفيا : ثويم وعقربم) ، اللذين قاما بزخرفة الدار وقلدا بالتمثالين نموذجا من الفن الهيلينستي السكندري فنجحا في عملية

التقليد إلى حد ملحوظ وإن ظل تشكيلها أقل اتقاناً من الأصول الهيلينستية المماثلة لها والتي وجد بعضها في منف في مصر . وإلى جانب الهدف الزخرفي في هذه المجموعة الفنية افترض بعض الباحثين أنها رمزت إلى معنى ميثولوجي (أى ديني أسطوري) . وفي تحديد هذا المعنى آراء شتى . ومنها ما يرى أن اللبوتين ترمزان إلى شمس الشتاء وشمس الصيف ، وأن راكميهما التوأمين يمثلان عثر نجم الشعري ابن القمر ، كما يقومان بدور سدنة عم المعبود الأكبر لدولة قتيان وقد أخضعوا له الشمس وروضهاها . وليس ما يمنع من افتراض أن المجموعة كلها كانت تخدم كذلك غرض الحماية الرمزية لبيت يفشان ، أو غرض الحماية الرمزية لما يدخل من بوابة المدينة المجاورة له من قوافل التجارة . ولكل من هذه الفروض والآراء ما يبرره من عقائد العرب الجنوبيين ومن العقائد الهيلينستية المنقولة لا سيما من مدينة الاسكندرية التي روى بعض المؤرخين الكلاسيكيين أن وفوداً من التجار العرب الجنوبيين كانوا يشتركون في مواكبها وأسواقها ويتبادلون الأفكار مع أهلها ، فضلاً عما كان يقصد بلاد العرب نفسها من رحالة العصر الهيلنستي ، وما يصلها عن طريق التجارة من القطع الفنية ذات الدلالات أو الأغراض العقائدية والتي تغرى الفنانين بتقليدها .

ولم تخل دار من الدور الباقية الأخرى من آثار تدل على ثراء أهلها وتدل على أهمية ما يمكن أن يظهر من آثار بقية المدينة حين يتم الكشف عنها ، وهو ما ندع التفصيل فيه الآن .

وكانت لقتبان فنونها المحلية في النحت والنقش وصناعة الحلي وقطع الزينة وهذه تتجاوز عنها أيضاً مؤقتهامراعاة للإيجاز . ومن نماذج النحت في الحجر التي تأثرت بالفن الهيلينستي ودلت على اتساع صلات قتيان بالخارج ، رأس مرمرية توضع في مستوى تمثال اللبوتين والغلامين البرونزيين ، وهي لأنثى أطلق عمال الحفائر الأثرية عليها اسم مريم أو مريام فاشتهرت به . وعثر عليها في إحدى مقابر حديد بن عقيل جبانة العاصمة ، ويحتمل إرجاع صناعتها إلى ما بين القرن الأول وبين القرن الثاني ق . م . وقد انعقدت خصل شعرها خلف رأسها من نفس مادة الحجر بما يشبه الطريقة المصرية القديمة ، واحتفظ

محجرا عينيها بآثار التطعيم باللازورد على عادة كثير من تماثيل الجنوب وعادة التماثيل المصرية أيضاً . وعنقها طويل كانت تحيط به قلادة ، وأذناها مثقوبتان ليتدلى منهما قرطان . ومع ما أخذت به هذه الرأس من الأسلوب الهيلينسى ، حزن فنائها على صدغها تقليداً لوشم أو تشريط قد يعبر عن عادة محلية أو قبلية ، إن لم يكن تقليداً لأثر حجامة أجريت لصاحبة الرأس ابتغاء الشفاء من مرض ما .

د — علاقات قتيان بجيرانها :

شهدت دولة قتيان أطواراً مختلفة من التوسع ومن الانكماش في تاريخها الطويل . وكيفت سياستها نحو جيرانها الأقربين . صداقة أو عداوة أو حياداً . بما يتمشى مع قدراتها وإمكاناتهم . فقد مر بنا في تتبع العلاقة بينها وبين جاراتها القوية سبأ ، كيف أنها لزمت الحياد والشماتة أيام حروب كرب إيل وتر السبأى ضد معين وأوسان (قبل عام ٩٣٠ ق . م) ، وكيف أمنت بهذا على أرضها من أطماعه بل وحصلت منه على بعض أراضي أوسان القريبة من البحر الأحمر مكافأة لها على مسلكها إزاءه . غير أن تلاصق الحدود بين الدولتين الطموحتين سبأ و قتيان كان من شأنه أن يهيئ استمرار فرص التنافس والاحتكاك ثم الاشتعال بينهما . وقد ورد في نصين ذكر حربين بينهما صعب توقيتهما إن كانتا سابقتين على أيام الحياد في عهد كرب إيل وتر السبأى أم تاليتين لها . وصعب كذلك ترتيب أسبقتية إحداهما على الأخرى . وعن إحدى هاتين الحربين تحدث قائد سبأى (يدعى تبع كرب) عن حرب بين الدولتين استمرت خمسة أعوام . وكانت قتيان فيما يبدو هي البادئة بها . وانتهت إلى ما يشبه الصلح أو الهدنة . الأمر الذى دعاه إلى أن يخصص أوقافاً كثيرة لمعابد أرباب سبأ الكبار . وذلك مما يعنى من ناحية أنه اعتبر الصلح كسباً ينبغي شكر أربابه عليه . ويعنى من ناحية أخرى أن الحرب بين الدولتين لم تنه إلى نتيجة فاصلة وأن أياً منهما لم تستطع القضاء على الأخرى .

وتحدث قائد قتيانى يدعى يذمر ملك عن الحرب الأخرى وروى عن مرحلة منها أنه هزم عدة قبائل وعشائر واستولى على مدنها ونخيلها وأرضها .

ثم أعلن تقديمها إلى المعبود عم وإلى أنباى وإلى ملكه يدع أب يجل بن ذمر على ملك قتيان . وذلك مما يعنى أنه مع فخره بمجهوده في الحرب قد رد الفضل في النصر والحق في تملك الأرض المكتسبة ونتائج النصر إلى معبودى دولته الكبيرين وإلى ملكه الذى كان يعتبر نفسه ولداً لهما وممثلاً لهما على وجه الأرض . وزاد ذلك القائد عبارة في نصه تحدث فيها عن مرحلة حرب واسعة شنتها سبأ وإمارة رعان وقبائلها التي ساءها أن تملك القتيانيون جزءاً من أرضها ، ضد قتيان . ولكي يوضح المائد القتياني من كثرة الأعداء وضراوة الحرب ألمح إلى أنه تجمع فيها عقد عهود المكربين وعهود الملوك السبائيين ضد ملكه يدع أب يجل بن ذمر على ملك قتيان وضد قتيان نفسها وضد أولاد عم جميعاً .

وبعد هذه الحرب التي لا يعرف شئ مؤكد عن نتائجها ، والتي يفترض البرايت أن الملك القتياني الذي ذكر في سياق نصها وهو « يدع أب يجل » قد حكم في منتصف القرن الرابع ق . م - شقت قتيان طريقها وظلت تسيطر على أجزاء من المناطق الساحلية التي كانت تشغلها من قبل دولة أوسان والتي عاشت في بعض أجزاءها قبائل حمير ذات الصلة والقزابة بالقبائل السبائية . وقد تلونت هذه القبائل الحميرية حينذاك بالولاء القتياني واعتبرت نفسها من « ولد (المعبود) عم » معبود القتيانيين . وأطلقت على حصنها الرئيسي اسم ريدان ، وهو اسم يراه الباحث فون فيسمان قتياني الأصل كان يطلق من قبل على حصن رئيسي للعاصمة القتيانية تمنع وقام على ملتي الوديان إلى الجنوب منها . وقد ذكر في نص إيشاته (قبيل بداية القرن الرابع ق . م) أنه في اتجاه حدن ، ولا زال حصن حدن (أو حادي) هذا قائماً أسفل الجبل حيث توجد أطلال ريدان .

على أنه لم يكن من المنتظر أن تسير الأمور في مصلحة قتيان دائماً . فبعد عام ٢٨٥ ق . م استطاعت جيوش الملك السبائي شمع أمر بين أن تسترد بعض الأراضي التي اكتسبتها قتيان من أسلافه خلال القرن الرابع ق . م ، وذكر نصه من المدن التي استردتها جيوشه حينذاك مدن نعمان وصنعاء وذبحان ذو حمرو .

وشهدت قتيان فترة ازدهار أخيرة في عصر أسرة حاكمة ثالثة أو رابعة بلغت شأوها في عهد « شهر يجل يهرجب » الذي يؤرخ ألبرايت وفون فيسمان عهده ببداية القرن الأول ق . م . وقد تطلعت قتيان في عهده إلى دولة معين الواقعة إلى الشمال منها فاجتزأت جانباً من أرضها وعقدت معها حلفاً احتفظت لنفسها فيه بالمكانة الأسمى ، ولعلها استهدفت من وراء هذا الحلف أن تضيق به على دولة سبأ فتضغط هي عليها من الجنوب وتضغط حليفها معين عليها من الشمال . ويرجع إلى أيام هذا التحالف نص من عهد ملك معين « وقه إيل يشع » أرخه كاتبه المعيني باسم ملكه واسم ولي عهده وشريكه في الحكم « إيل يفع يشور » الثاني ، كما أرخه في الوقت نفسه باسم الملك القتياني « شهر يجل يهرجب » ، وذلك مما يدل على اعترافه الضمني بنفوذ قتيان على بلده . وعندما انفرد ولي العهد المعيني إيل يفع يشور بالحكم بعد أبيه حضر حفل توليته في عاصمته كاهنان قتيانيان نيابة عن ملكها . ولعل هذه الفترة من الازدهار القتياني هي التي روى عنها الرحالة الروماني بليني أن إنتاج الكندر كان يأخذ طريقه من حضرموت وعاصمتها شبوة إلى حيث تتسلمه قتيان وعاصمتها تمنع على طريق البخور الممتد حتى ساحل البحر المتوسط ، وروى عنها كذلك ما سبق أن استشهدنا به من أن الجبائيتاي (أو القتيانيين) لهم مدن كثيرة أكبرها نجاو وتمنع ، وأنه كان في هذه الأخيرة ٦٥ معبداً مما يشير إلى ثرائها.

ولكن يبدو أن بلوغ القمة قد يعقبه الانحدار أحياناً . فقبيل عهد شهر يجل يهرجب اهتز أحد الموارد الاقتصادية للدولة بعد نجاح السفن المصرية في عصر البطالمة في اجتياز مضيق باب المندب حوالى عام ١٢٠ أو ١١٧ ق . م . للاتجاه إلى الهند والاتجار معها رأساً دون وساطة عرب السواحل الجنوبية ومنهم القتيانيون . وليس من المستبعد أن هذا الوضع كان من أسباب تحول أطماع قتيان إلى دولة معين لكي تعوض من مكاسب تجارتها البرية ما أوشكت أن تخسره من مكاسب تجارة الساحل .

ولكن ترتب على تخفيف قبضة قتيان الاضطراب على المناطق الساحلية للبحر الأحمر أن تألبت عليها قبائل حمير المنتشرة فيها ، ويبدو أنها كانت قد

نجحت في تجميع كلمتها من قبل بداية القرن الأول ق . م ، وبيتت النية على الاستقلال عن قتيان . وليس ما يعرف حتى الآن عن تفاصيل هذه المحاولة إلا أنها حققت هدفها في النصف الأخير من القرن الأول ق . م . فقاتلت قتيان وأخذت منها ما كان باقياً لها من سواحلها .

وتوفرت بهذا فرصة ذهبية لسبأ التي سكنت على الازدهار القتياني المجاور لها على مضض ، وعانت من تضيق قتيان عليها من الجنوب وتضييق حليفها أو تابعها معين عليها من الشمال . فاستغلت فرصتها وبدأت بأضعف الفريقين وهي معين فهاجمت عاصمتها واستولت على مناطق واسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق . م .

وانكشفت قتيان على خارطة الجنوب بعد أن خسرت أرض حمير وخسرت حليفها معين ، ولكنها جاهدت في سبيل البقاء وساعدها على الاستمرار أن غرمتها دولة سبأ كانت تعاني هي الأخرى من مشاكل متعددة نتعرض لها في حينها ، فلا تستطع إحداهما أن تقضى على الأخرى ، وإن اتصلت المناوشات بينهما .

وفي هذه المرحلة المضطربة من تاريخ قتيان توالى ملوك لا يذكر لعهودهم من الأعمال الإنشائية إلا أن أول عملة ذهبية قتيانية سكنت في عهد أحدهم وهو « وراو إيل غيلان » في الحصن الملكي القتياني « حريب » . وكانوا في مجموعهم ضعاف الحيلة إزاء اضطراب موازين القوى في الجنوب ، وكان ازدياد ضعفهم مشجعاً أو مترتباً على هجوم جديد غير متوقع من جاراتهم الشرقية دولة حضرموت التي بسطت نفوذها على الأجزاء الشرقية من قتيان ، بحيث عثر على ثلاثة نقوش في وادي بيحان القتياني تمجد ثلاثة ملوك حضرميين ، وقد روى أحدها أن ملكه الحضرمي عمل على تسوير مدينة غيلان بعد أن تغلب أبوه على قتيان (أو على جزء منها) . وروى آخر أنه تم في عهد ملك حضرمي مشروع للرى في منطقة وعلان (القتيانية) .

وكان في العاصمة تمنع ملك قتياني لا يزال يحسن الظن بسلطته وهو « شهر هلال بن ذرأكرب » . إذ وجد له نص مرسوم يطلب فيه إلى كبير

العاصمة (أى المدير المحافظ أو من يؤرخ باسمه) بتحصيل الضرائب ممن يسكنون ويزرعون الأراضي فى سدو (قرب العاصمة) ، وأمر المزارعين بأن يلتزموا بمرسومه ابتداء من أول ذى فرعم إلى السادس من ذى فقحو يومابيوم وشهراً بشهر . واستنتج الباحث رودوكاناكيس من العبارة الأخيرة أن ذى فرعم يمثل أول شهور السنة الزراعية عند القتبانين وأن ذى فقحو يمثل آخرها . ولو أنه ما من بأس فيما يبدو أن يكون ذى فرعم أول الحصاد ، وذو فقحو آخره . فمواسم الحصاد هى التى يستطيع المزارعون أن يوفوا فيها بالتزاماتهم تجاه الدولة ، وليست مواسم الزراعة كلها . وربما دل اللفظان فى سبأ على العشريين الأوليين من الشهر .

وفى عهد الملك شهر هلال أيضاً حوالى ^٤ عام ١٠٠ أو ١٠٦ م دمرت تمنع عاصمة قتيان تدميراً عنيفاً لا زالت آثاره باقية فى معالمها القديمة التى اكتسى بعضها بطبقة كثيفة من الرماد دلت على حريق متعمد، لا تعرف حتى الآن حقيقة المتسببين فيه .

وعلى الرغم مما لحق بها ، جاهدت قتيان فى سبيل البقاء لفترة أربعين عاماً أخرى أو نحوها ، فاكتفت بمناطقها الغربية ، ونقلت عاصمتها إلى نريب التى أشرنا إلى سك أول عملة ذهبية قتيانية فيها ، ووجدت بها بالفعل عملات أخرى ضربت بها ، ونقشت على بعضها صورة البومة وتحتها خنجر . وكانت صورة البومة من رموز بعض العملات الإغريقية السكندرية . ويبدو أن قتيان قد اضطرت نتيجة لضعف حيلتها أن تنضم إلى حضرموت فى مشاكلها ضد دولة سبأ بعد أن أصبحت هاتان الدولتان هما مركز الثقل فى الجنوب العربى فحاربت، فى صف حضرموت ، ثم تهاوت حوالى عام ١٤٠ م (أو ١٤٦ م) بعد أن استهلكت قوتها ، وانحسر كيائها السياسى ، وهجرت مناطقها الزراعية بعد أن قلت رعاية مشاريع المياه فيها ، وغطت الرمال عليها . وآلت أرضها فيما بعد إلى حوزة دولة سبأ وذوريدان منذ أوائل القرن الرابع الميلادى .

ملحوظة :

أبهرنا بعض الشيء في الفصول السابقة في مناقشة تاريخ دولة سبأ وتاريخ دولة قتبان ، من حيث مشكلات النشأة ، وتطور الحياة السياسية ، ومشاريع العمران وفروع الفنون ، وتأثير العوامل الداخلية والخارجية في كيان كل دولة منهما - لكي نجعل من هذه المناقشات نموذجاً للتوسع فيما يعالج به تاريخ بقية الدول العربية القديمة الأخرى التي سنحاول الاكتفاء بخطوطها الرئيسية فيما يلي ، مراعاة للتخفيف مؤقتاً . وندع التفصيل فيها للجزء الثاني من كتابنا " الشرق الأدنى القديم حين يصدر في وقت لاحق قريب بإذن الله .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- نجواد غل : المرجع السابق - ج ٢ - مادة قتبان .
نيلسن وآخرون : المرجع السابق - ص ١٣٢ - ١٣٦ ، ٢٧٩ - ٢٨٩ .
Abdel-Aziz Saleh, op. cit.
Bowen, R. Jr., Albright, W.F., and Others, op., cit., 43—68, 155—163.
Philby, op, cit., 59—63.
Phillips, op. cit., 51 f.
Pirenne, J., Le Royaume Sud-Arabe des Qataban et sa Datation,
Louvain 1961.
Rhodokanakis, N., Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, I-II,
Vienne 1919, 1922.

الفصل السادس

دولة معين

كانت دولة معين أقرب الدول الجنوبية اتصالاً بالمناطق الشمالية في شبه الجزيرة العربية . ونشأت في الجوف الجنوبي فيما يمتد بين حدود حضرموت وبين المنطقة الحدودية الحالية الفاصلة بين المملكة العربية السعودية وبين جمهورية اليمن الشمالية عند نجران . وانتفعت معين بسهل متسع يغذيه بالخصوبة ومياه الري نهر خارد وفروعه .

واختلفت تقديرات المستشرقين في تعيين البداية السياسية لدولة معين فيما بين القرن الثالث عشر ق . م . والقرن الحادي عشر ق . م . وبداية القرن السادس ق . م . وبداية القرن الرابع ق . م . ويبدو أن أكثر هذه التقديرات احتمالاً هو بداية القرن السادس ق . م .

واتخذت الدولة عاصمتها في مدينة « قرناو » في شرق الجوف الجنوبي ، وبُنيت مستطيلة في مساحة صغيرة نسبياً تبلغ نحو مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخيم ذي مدخلين تحميها الأبراج الحجرية ، وبقي جزء من البرجين اللذين يحفان بمدخلها الشرقي . وقام إلى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو معبد « رصف » ولا زالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفاية أصحابها وإن تجاوزنا عن وصفه مراعاة للإيجاز واكتفاء بما وصفنا به أمثاله في سبأ وقتبان .

وتناولت البحوث الأثرية من مواطن العمران الأخرى في معين مدن : يثل (خربة براقش) ، وكنهو (خربة كمنة) ، ونشان (خربة السودا) ، ونشق (خربة البيض) ، ورجمة (في أخلود نجران) وغيرها .

تعاقت على حكم معين خمس أسر حاكمة لم تحتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ، ولكن يرجح أن سلطتهم بدأت بنفس الصيغة

الدينية التي ظهرت عند جيرانهم ، فتلقب كل منهم بلقب « مزود » ربما بمعنى من يزود المعبودات أو المعابد بقرايينها ، أو من يزود دولته بخيراتها . واعتمد هذا الترجيح على بقاء هذا اللقب « مزود » ضمن ألقاب حكام معين المتأخرين حتى بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك .

وعملت معين على استثمار أراضيها الصالحة للزراعة بإقامة بعض مشروعات الري الصغيرة للاستفادة من الأمطار والسيول ومياه نهر نخارد وفروعه ، وذلك مما جعل الرحالة الروماني بليني يصف أراضيهم بأنها أرض خصبة تكثر فيها الأشجار والنخيل والأعناب ولهم فيها قطعان كثيرة . غير أن معين اعتمدت في حياتها الاقتصادية أكثر ما اعتمدت على الاشتراك بنصيب كبير في تصدير منتجات الجنوب إلى أسواق التجارة الخارجية ، ولا سيما منتجات اللادن والكندر والمر التي كانت ترحب بها معابد الهلال الخصيب ودول البحر المتوسط ترحيبا كبيرا ، وذلك مما جعل نفس الرحالة بليني يعقب بقوله « والمعينيون منطقتهم يمر فيها ترانسيت الكندر عبر طريق ضيق . وهم الذين بدأوا التجارة وأهم من مارسوها . واتخذ (نوع من) البخور اسمه من اسمهم وهو البخور المعيني "Minacan" .

ويبدو أن مكاسب هذه التجارة التي سبقت عهد بليني بقرون طويلة هي التي حركت أطماع دولة سبأ منذ عهود المكربين ضد دولة معين . وقد مر بنا كيف تكررت الحروب بينهما في عهود المكربين الأواخر ، وكيف أسرفت جيوش كرب إيل وتر (الثاني) السبأي في تدمير مدن معين وتشريد أهلها حتى ما يمتد إلى نجران . وإذا كنا قد تشككنا في صحة الأعداد الضخمة التي ذكرتها نصوصه عن قتلى المعينيين وأسراهم (راجع الفصل الخامس) . فإن نفس هذه الأعداد تعبر ضمنا عن اتساع عمران معين القديم .

وعندما استردت معين كيانها بدأت بها عصور الملكية في أوائل القرن الرابع ق . م . واعتاد ملوكها على أن يتلقبوا بكنيات شخصية معبرة حاول هومل وغيره تفسيرها ، مثل : صدق بمعنى الصادق أو العادل ، ويشور بمعنى المستقيم ، وريام بمعنى المتعالي . . . إلخ .

وعلى الرغم من غلبة نظام الحكم الملكي في معين ظل لمشايخ القبائل وأعيان العاصمة مجلس « مسود » (بنفس الإسم الذى عرف به مثيله في قتيان ويراجع له الفصل السادس). وقد وصف بأنه « مسد منعن » أى المجلس المنيع أو شىء من هذا القبيل . وكانوا يجتمعون فيه بدعوة من الملك للبحث في أمور الضرائب والمنشآت العامة والمداولة في أمور الحرب إن وجدت ، والتصديق على العقود التى تبرمها الدولة مع كبار الأفراد وتعهد إليهم بمقتضاها بتنفيذ بعض مشروعاتها الدينية أو المدنية وتتفق معهم فيها على الموارد التى ينفقون منها على هذه المشروعات .

ويغلب على الظن أنه قامت إلى جانب هذا المجلس الرئيسى في العاصمة مجالس أخرى فرعية في المدن الكبيرة والأقاليم كانت تشكيلاتها واختصاصاتها تشبه المجالس البلدية أو القروية الحالية .

وتولى رئاسة حكم الأقاليم والمدن الكبيرة في معين موظفون تلقب كل منهم بلقب « كبر » أى كبير ، أو وال ، وتولى كل منهم رعاية شئون إقليمه باسم ملكه في شئون القضاء وفي جباية الضرائب وفي إقامة المشروعات الإقليمية .

غير أن الكبراء أو الولاة لم يكونوا المشرفين وحدهم على جباية الضرائب وإنما أخذت دولتهم في نفس الوقت بنظام الالتزام في تحصيل بعض ضرائبها ، وهو نظام سبق أن أشرنا إلى تطبيق مثله في قتيان وغيرها (في الفصل السادس) . وكان معدل الضرائب يدور حول العشر أو ما يقرب منه ويؤدى عينيا عادة .

وبحكم موقعها الشمالى ظلت معين أكثر اتصالا بطرق التجارة الشمالية الرئيسية التى تخرج من عاصمتها « قرناو » ومن تابعتها « نجران » ، إلى نجد وما ورائها وإلى الحجاز وما ورائه . ولرعاية قوافل المتاجراتى تسلك الطريق التجارى البرى الكبير على طول الحجاز والممتد إلى العقبة وما يتفرع منها إلى سيناء المصرية ، وإلى غزة ومعان في جنوب الشام ، زودت معين هذا الطريق بحاميات وجاليات معينة كان استقرارها في مدن الحجاز من عوامل التزاوج والاختلاط السلمى بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب كما كان من أسباب

ما تناقله النسابون عن تناثر بطون جنوبية أو قحطانية بين العرب الشماليين (في مثل مدينة يثرب في عصور تالية) .

وأقامت أكبر الجاليات أو الحاميات المعينية في واحة العلا شمال يثرب وكانت في بعض عصورها مقراً لدولة ددان ودولة لحيان مما سنتناوله فيما بعد بتفصيل. وعندما زاد النفوذ الاقتصادي لهذه الجالية زاد بالتالي نفوذها السياسي حتى غدت منطقتها خليفة للدولة معين يتولاها كبير أو كبيران على صلة بالملك المعيني الجنوبي . وربما حدث هذا التطور في أواخر القرن الثالث ق . م . وأصبحت المنطقة تذكر معه في النصوص إلى جانب أسماؤها السابقة باسم حـ الجنوبى أى « معن » أو معين ، مع تخصيصها بكلمة « مصرن » .

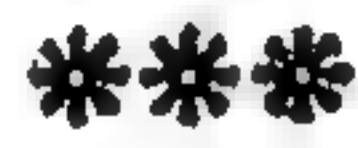
وتعامل تجار معين ووسطاؤها من « معن » مع العواصم المصرية واستقر بعضهم فيها . ومنهم رجل يدعى « زيد إيل بن زيد » دفن في مصر ووجد له تابوت في منطقة منف كتب عليه بحروف المسند ما يفهم منه أنه عمل في خدمة معبد مصرى لعله سيرايوم منف ، وتولى توريد بعض المنتجات العربية إليه مثل المر والذريعة (قصب الطيب) وغيرهما على سفينة بحرية في مقابل ما كان يصدره إلى بلده من المنسوجات المصرية . وليعبر زيد إيل بن زيد عن استغراقه في الحياة المصرية تلقب بلقب « وعب » وهو لقب دينى مصرى قديم يعنى الكاهن المطهر . وأرخ هذا النص بالعام ٢٢ للملك « توليما يوثـ برتولومايوس » وقد يقابل عام ٢٦٣ ق . م . خلال عهد بطلميوس الثانى ، أو بعده .

ووصل تجار معينون بتجارهم إلى جزيرة ديلوس في بحر إيجه في النصف الأخير من القرن الثانى ق . م . حيث وجدت فيها آثار صغيرة نقشت بنصوص عربية تدعو لأصحابها آلهة معين (وآلهة سبأ) .

واستمرت معين في سبيلها السياسى وسبيلها الاقتصادى حتى دب الزهن في نظامها الحاكم واشتد بأس جيرانها ، وتجرات عليها دولة قتيان ودولة سبأ . وبدأت قتيان فاقتطعت جانباً من أرضها ، وأجبرتها (كما مر بنا في الفصل السادس) على عقد حلف معها احتفظت لنفسها فيه بالمكانة العليا لا سيما في أيام ملكي معين « وقه إيل يشع » وولده « إيل يشع يثور » الثانى . وحاولت

قتبان أن تستغل معين في التضييق على دولة سبأ من الشمال ، ولكن هذا زاد من حقد سبأ عليها فما لبثت هذه الأخيرة حتى استغلت انشغال قتيبان بمشكلاتها الداخلية مع قبائل حمير وانقرضت بمغني فدمرت عاصمتها قرناو واستولت على أجزاء متسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق . م . بحيث لم يذكرها استرابون في عام ٢٤ ق . م . حينما صحب حملة القائد الروماني آيليوس جالوس ضد الدول العربية الجنوبية ، مما يعنى أنها كانت قد فقدت استقلالها على أيامه .

ولكن الانكماش السياسى لم يؤد إلى وقف نشاط المعينيين في مجالات التجارة فظلوا يقومون بدورهم فيها ويجنون مكاسبها تحت طاعة دولة سبأ القوية ، وهذه الصورة كتب عنهم بليني في القرن الميلادى الأول ما نقلناه عنه من قبل ، كما كتب عنهم الرحالة الجغرافى بطلميوس في القرن الميلادى الثانى :



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- جواد علم : المرجع السابق ، ج ٢ - مادة « معين » .
خليل نامى : نقوش خربة معين - القاهرة ١٩٥٢ ، نقوش خربة براقش - القاهرة ١٩٥٧ .
محمد توفيق : آثار معين في جوف اليمن - القاهرة ١٩٥١ ، نقوش خربة معين - القاهرة ١٩٥٢ .
نيلسن وآخرون : المرجع السابق - ص ٦٤ - ٧٥ ، ٢٦٧ - ٢٧٣ .
Philby, op. cit., 42—58.
Ryckmans, J., L. 'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam (Maein et Saba), Louvain 1951.
Winnett, F.V., The Place of the Minaeans in the History of Pre-Islamic Arabia, BASOR, 73, 1939, 3—9.

الفصل السابع

دولة حضرموت

شغلت حضرموت منطقة واسعة من جنوب شبه الجزيرة العربية، وجمعت في أرضها الواسعة بين الجبال العالية وبين الوديان العميقة. ويبدو أن واديها الكبير وادي حضرموت كان مجرى مائياً ضخماً خلال الدهور المطيرة القديمة، ويمتد جزؤه الخصب نحو ٦٠ ميلاً وتجري فيه بضعة أنهار صغيرة منها نهر ميفع وهو نهر يحتمل أن يكون لإسمه صلة قديمة باسم مدينة « ميفعة » التي كانت من أقدم العواصم المعروفة لحضرموت .

وانتفعت حضرموت بساحل طويل على بحر العرب (أو المحيط الهندي) قامت عليه ميناء رئيسية أسمتها النصوص القديمة « قنأ »، وأطلق العبرانيون القدماء عليها اسم كنية ، بينما أطلق الإغريق عليها اسم كاني Cane وتقوم على أطلالها بير على الحالية .

ولا يزال المعروف من تاريخ المراحل الأولى لحضرموت قليلاً — ولا زال الخلاف بين تقديرات الباحثين لبداية تكوينها السياسي واسعاً ، فبينما أخذ فلي برأى هو مل ببداية عصور الملكية فيها بأواخر القرن الحادى عشر ق . م . أرخها ألبرايت بأواخر القرن الخامس ق . م . على أساس أنه بعد أن اختفت شخصية كرب إيل وتر السبأى القوية من الجنوب قامت الملكية في حضرموت وربما بدأت بما يشبه التبعية للدولة معين بحيث حكمها معاً ملك واحد يدعى صدق إيل . وإذا صح هذا فقد يعنى ترابط الجارتين معين وحضرموت في مجالات التجارة وتحالفها للوقوف في وجه دولة سبأ ذات المطامع الواسعة . وبعد جيلين أو ثلاثة انفرد بحكم حضرموت أمير من أصل معينى يدعى « معدكرب » أسس بها أسرة حكم مستقلة ، مع بقاء العلاقات الودية بين البيتين الحاكمين قائمة بحيث كان الكتبة في كل منهما يسجلون أحياناً اسم ملك الدولة الثانية إلى جانب اسم ملكهم في النصوص التي تتناول ذكر المنشآت.

الجديدة والاحتفالات الكبيرة . وامتد هذا الموضع الذي لا زال الشك يحيط بتفاصيله فترة صعب تحديد أمدتها ، ثم غابت أسماء ملوك حضر موت . وعلل بعض المؤرخين هذه الظاهرة باحتمال تخضوع حضر موت مرة أخرى خضوعاً مباشراً لدولة معين ، بينما عللها بعضهم الآخر بخضوعها للدولة أخرى من الدول الجنوبية مثل سبأ . وكان الملك السبئي شعر أوتر فقد تزوج أخته ملكة حلك من الملك الحضرمي العزيباط ثم خاصمه وهاجم عاصمته .

وبعد هذه الفجوة ازدهرت الملكية الحضرمية من جديد وبدأها ملك يسمى يدع إيل بين . ومرة أخرى ليس ما يعرف يقيناً عن الظروف التي بدأ بها ملكه ولكن تخلفت بضعة قرائن يمكن الاستفادة منها في تصور هذه الظروف . ومنها أن يدع إيل بين هذا ذكر في نصوصه أن أباه رب شمس كان من أحرار يهبار . وذلك مما قد يعنى أنه لم يكن من بيت مالك قديم وأنه بلغ العرش بمساعاه الشخصي . وقد يزكى هذا الاستنتاج أن عدداً من رعاياه تفاخروا في نصوصهم بأنهم ساعدوه . دون أن يبينوا نوع هذه المساعدة . وليس من المستبعد أنها كانت مساعده على بلوغ العرش . وقد بدت العلاقات بين مملكته الجديدة وبين دولة سبأ التي أصبحت أكبر الدول الجنوبية في ذلك الحين علاقات طيبة . وذلك مما يخلل معه أن سبأ عاونته على إعلان ملكه أو أنها على الأقل رضيت بما قام به في سبيل إعلان ملكه .

وزادت منذ عهد يدع إيل بين شهرة العاصمة الحضرمية « شبرة » التي ذكرت نصوصه أنه عمرها بعد خرابها وأعاد تشييد حصن ومعبد رئيسي فيها . وتناقل المؤرخون والرحالة الكلاسيكيون اسم هذه العاصمة بمترادفات متقاربة تحرفت بعض الشيء عن إسمها الحقيقي . ومن هذه المترادفات :

Sabbatha. Sabatha, Sabata .

وتعاقب بعد عهد يدع إيل بين عدد من ملوك حضر موت . استطاعت دولتهم في فترة ما من القرن الأول الميلادي أن تسيطر على الأجزاء الشرقية من دولة قتبان بعد أن ضعف شأن هذه الدولة الأخيرة . فسيطرت على جزء من وادي بيهان وعثر فيه على ثلاثة نصوص تمجد أسماء ثلاثة ملوك حضرميين

(م ٧ - تاريخ سبه الجزيرة العربية)

كما أسلفنا من قبل (في سياق الفصل السادس). غير أن تدخل حضرموت في شئون الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة جر عليها مشكلات كثيرة مع القبائل الحميرية حتى أصبحت الحدود بينهما بين مد وجذر لإحديهما على حساب مصلحة الأخرى. وجر عليها مشكلات أخرى مع دولة سبأ نتحدث عنها خلال العصر الملكي السبأى. ثم أعقبت ذلك عهود سلام ظهر فيها الملك الحضرمي «إيسل عزيليط» أو «إلغزيط» الثاني. وأثبت في نص من نصوصه أنه إيل عزيليط ملك حضرموت ابن عم ذخر. وأنه سار إلى حصن أنود ليتلقب (بلقب الملك). وأشار عدد من أتباعه إلى أنهم صاحبوه في هذه الرحلة. كما سجل رجلان من أشراف حمير أن ملك سبأ وذوريدان «ثاران يعوب» أوفدهما لحضور حفله. وتتم هذه المصادر مجمعة عن أن حصن أنود هذا الذي لا زالت بعض أطلاله باقية تشرف على واد ينتهي إلى العاصمة شبوة قد توفرت له ذكريات خاصة في عهود الملكية الحضرمية، وأن حفل التولية كان حفلاً ضخماً يلائم المناسبة التي أقيم من أجلها. وأن العلاقات بين حضرموت وبين دولة سبأ التي دخلت في طور جديد من أطوار الملكية جمعت فيه بين سبأ وحمير، أو سبأ وزريدان، قد غدت علاقات طيبة. وورد في نص ملك حضرمي آخر أنه حين احتفل بيوم توليته العرش في حصن أنود ضحى بقرايين كثيرة نفست ٣٥ ثورا و ١٢ كبشا و ٢٥ غزالا وثمانه فهود (٤).

ويذهب الظن إلى أن إيل عزيليط الثاني ابن عم ذخر هو الملك الذي ورد ذكره باسم إليازوس Eleazus في مصدرين إغريقيين، عرف أحدهما باسم كتاب الطواف حول البحر الإريتري، ومن الآثار الحديثة في شأنه ما يحتمل تأليفه في حوالي الربع الأول من القرن الثالث الميلادي، وقد وصف فيه إلياروس بأنه ملك بلاد البخور والطيب وأنه أقام في عاصمته Sabatha وامتد سلطانه إلى قنأ. وذكر عن هذه الميناء قنأ أنها كانت «سوقاً لكل اللادن الذي ينمو في البلاد ويؤتى به إليها على ظهور الجمال وفي الأرمات المحلية المصنوعة من الجلد، وفي القوارب، ولها نجارة أخرى مع مادن الساحل البعيد، ومع بيريجازا وسكيثيا (في وادي السند) وعمانة وفارس المجاورة

لها « . وفي هذا الوصف ما يشير إلى ثراء حضرموت من تجارتها البرية والبحرية في أيامه .

وعبر الحضرميون عن معبودهم الأكبر الذى تخيلوه يهيمن على القمر باسم « سين » وهو الذى عبر عنه جيرانهم من الجنوبيين بأسماء « عم » ، و « ود » ، و « إلقه » . وإذا كان هناك ما يضاف إلى هذه المقارنة فهو أن اسم « سين » سبق أن أطلقه الأكديون والبابليون كذلك فى العراق على معبودهم الذى تخيلوه معنياً بالقمر أيضاً . مما يعنى أنه كان اسماً سامياً قديماً واسع الانتشار . وربما كانت له صلته أيضاً بتسمية سيناء المصرية وإن وحدث آراء أخرى لتفسير هذه التسمية .

وانتشرت معابد سين هذا فى العاصمة شبوة وفى الخواضر الحضرمية الكبيرة وعرفت فى كل منها بصفة مميزة . وكان منها معبد كشفت عن آثاره بعثة جرترود كيتون طومسون فى بلدة حضرمية عرفت قديماً باسم « مذاب » وتعرف الآن باسم « الحريضة » . وكشفت هذه البعثة حول المعبد عن عدد من المقابر القديمة تضمنت إلى جانب جثث أصحابها أعداداً كثيرة من أدوات الحياة اليومية كالأواني من الفخار والخزف ، والفلائد وما إليها ، مما يعنى أن المعبد كان محوراً لعمران واسع من حوله ضم مساكن الأحياء وقبور الموتى .

وإذا كانت حضرموت قد أقامت أغلب بنيانها الاقتصادى على امتداد نشاطها إلى منطقة ظفار المنطقة الرئيسية لإنتاج أفضل أنواع اللادن والكندر . ثم تصديرها شرقاً وغرباً ، فهى قد اهتمت كذلك، بتنمية ثروتها الزراعية التى كشفت البحوث الحديثة عن عدد من مشروعات الري التى خدمتها . والى نتجاور عن التفصيل فيها « وثقتا اكتفاء بما ذكرناه عن أمثالها فى سبأ وفتبان .

راستمرت حضرموت فى سبيلها الاقتصادى والسياسى حتى اشتدت المنافسة بينها وبين صديقتها العديدة سبأ ودوريدآن ، وتطورت هذه المنافسة إلى حروب عنيفة حملت حضرموت معها على زياده حصونها وأسوارها لمقاومة السبائين . وبقيت من هذه الأسوار أطلال سور كبير كان يحمى منطقة ميفعة .

ولكن الحروب انتهت بانتصار السبأين في عهد ملكهم « شمر يهر عش » الثالث في أواخر القرن الثالث الميلادي . وبلغ من أهمية انتصاره عليها أن شجعه على أن يبدأ عهداً جديداً للملكية السبئية تلقب فيه هو ومن تلاه من الملوك بلقب « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت » . ويذهب رأى حديث إلى اعتبار « يمنت » هذه أو يمانة تمثل الجزء الجنوبي من حضرموت والمطل على ساحل البحر العربي (أو المحيط الهندي) . وربما حاولت حضرموت النهوض بعد ذلك بقليل ولكن الحملات السبئية الحميرية تكررت عليها وأخضعها لنفوذها المباشر منذ أواسط القرن الميلادي الرابع .

* * *

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- Bowen, Albright, and Others, op. cit., 77—81, 139—142.
Brown, W. L., and Beeston, A.F.L., JRAS, 1954, 43-62.
Caton Thompson, G. The Tombs and Moon Temple of Hureidha
(Hadhramaut), Oxford, 1944.
Philby, op. cit., 77-81.
Phillips, op. cit., 43.
Pirenne, J., Première mission archéologique française au Hadramout, C.R.
de AIEL, 1975; Deuxième mission..., ibid. 1976.
Stark, R.F., in GJ, 93, 1939, 1-17; JRAS, 1939, 480-498.
Van der Muelen and Wissmann, H. von, Hadramaut, Some of its Mys-
teries unveiled, Leiden 1932.

جواد علي : المرحع السابق ، ج ٢ - مادة « حضرموت » .
سلس وآخرون ، المرحع السابق ، ص ٢٧٤ - ٢٧٩ .

الفصل الثامن

دولة أوسان

شهد جنوب شبه الجزيرة العربية من دولة الصغرى الترية قصيرة الأجل دولة سميت باسم أوسن أو أوسان. نشأت إلى الجنوب من قتبان وامتدت في عصور مجدها حتى حدود حضرموت . وبقي اسمها حيا في القاب بعض مواطنيها إلى ما بعد ظهور الإسلام .

ويبدو أن أوسان لم تكن في بداية أمرها غير منطقة رئيسية من دولة قتبان قرب مدخل البحر الأحمر وأشرفت على جزء من الساحل العربى الجنوبى ، ثم انفصلت عنها في ظروف غير معروفة بعد أن جمعت الأحلاف حولها من أقاليم وقبائل مسورا ويافع ولحج ودثينة وأبيان ، ووفرت لنفسها وحلفائها كيانا مستقلا جنبا إلى جنب مع قتبان وسبا .

ومضت أوسان تشق طريقها الحضارى مستعينة فيه بنشاطها التجارى الذى انتفعت فيه بخليج عدن . حتى اتسع طموح السبأيين في أواخر عهود المكربين وتحولت أطماعهم إليها . وحينذاك تداولت المناوشات بينهم وبينها ، وحالفهم النصر عليها أحيانا وحالفها النصر عليهم أحيانا أخرى وذلك مما سمح لأملاك الأوسانيين أن يسجلوا أخبار انتصاراتهم في معابد أربابهم . وسمح لهم كذلك بأن يأسروا جماعات من السبأيين ويحتفظوا بهم رهائن في أرضهم .

ومالت كفة النصر إلى جانب السبأيين في عهد المكرب الأخير كرب ليل وتر الثانى الذى دلت الشواهد على أنه تمتع إلى جانب مهارته في إدارة دفعة الحرب بمهارة أخرى في شئون السياسة . فاستطاع أن يضمن حياد قتبان وحضرموت في حربه ضد أوسان كما ضمن حيادهما في حربه ضد معين على نحو ما سبق ذكره من قبل . وإذا صح أن أوسان كانت قبل استقلالها جزءا من قتبان فعلا كان في ذلك تفسير لرضى هذه الأخيرة بمهاجمة

السبائين لها . وعدم دفاعها عنها . وراد كرب إيل وتر على ذلك فاستمال حلفاء أوسان وأتباعها للتخلي عنها والانضمام إليه فاستجاب له بعضهم . ومن هؤلاء أمير كان يتولى أمر إقليم دهس وقبائل يافع . وهو واحد من أكبر أقاليم أوسان وحلفائها .

وانخط كرب إيل وتر بجيوشه على أوسان في عهد ملكها مرتوم (أو مرتو أو مرتاوا) وادعى فيما روت نصوص انتصاراته التي سجلت بأمره في معبد عاصمته صرواح أنه (أى جيشه) قتل من الأوسانيين آلاف كثيرة دل على مبالغته بشأنها أن تراوح عددهم في سياق عباراته بين ١٦ ألفا وبين ما هو أكثر من العشرين ألفا ، وأنه أسر منهم آلاف كثيرة تراوح عددهم أيضاً في سياق عباراته بين ٤٠ ألفا وبين ٥٦ ألفا . وافتخر بأنه حرر الأسرى السبائين الذين احتجزهم الأوسانيون من انتصاراتهم القديمة ، واستعبد عوضاً عنهم أعضاء مجلس المسود الأوساني أنفسهم وجعلهم رقيقاً للمعبودة السبائية « سميت » إمعانا في إذلالهم . وأمر بمحو وتهشيم النصوص التي كان ملوك أوسان قد تفاخروا فيها بانتصاراتهم القديمة على نصب معابدهم . ثم عامل حلفاء أوسان بنفس القسوة فدمر جيشه مدنها وأحرقها . واستعبد هو مدنا أخرى لصالحه الخاص على نحو ما ذكر في نص له أنه « اقتنى كل إقليم كحد بأحراره وعبده » - وتعهد أن يقطع أجزاء أخرى من جسم الدولة المهزومة ورد بعضها إلى قتيان ، كما كافأ حضرموت ببعضها الآخر ، جزاء لهما على حيادهما في حروبه مع أعدائه ، وربما تعويضا لهما عن سبق اعتداء أوسان على أراضيهم .

وانطوت أوسان في ظل الخضوع والسيان لفترة طويلة . ثم استردت كيانها السياسي في ظروف غير معروفة . واعتلى عرشها من جديد ملوك وطنيون في أواخر القرن الثالث ق . م . فيما يظن فلبى . وباعتبارهم محررين توافرت لهم قداسة واسعة بين رعاياهم دعيتهم إلى التقرب إليهم بالهدايا والقرابين ربما ليحتفظوا بها في قصورهم ثم في قبورهم . أو ليضعوها بأسمائهم في معابد دولتهم . وأشهر من احتفظت الآثار بذكره من هؤلاء الملوك ملك يدعى « يصدق إيل فرعم شرح عت » . وقد سجل أحد رعاياه على أثر له ما يفيد أنه

« الفاضل مصداق الذي قدم (الأثر) إلى سيده يصدق إيل فرعم شرح عت ملك أوسان ابن ود ». وكان « ود » فيما أسلفنا اسما أو صفة لمعبود تخيله المعينيون من قبل يهيمن على القمر وامتد تقديسه إلى بعض قبائل وإمارات العرب الشماليين أيضا . وكان في انتساب ملوك أوسان إليه واعتبارهم ولدا له ، كما كان القتبانيون يعتبرون أنفسهم « ولد عم » ضمانا لإحاطة حكمهم بالقداسة الدينية بين رعاياهم . ولعلمهم تعمدوا اتخاذ ود اسما لإلههم مخالفة لتسمية قتبان لإلهها الأكبر باسم عم .

وازدهرت أوسان في عصر هذه الملكية الأخيرة وامند نفودها من باب المنذب على الساحل إلى الأحور ، كما امتد في الداخل إلى حدود قتبان . واشتهرت من مناطقها الأثرية مسوره ومرخا ونعمان وحلة والسقية وأم ناب ، فضلا عن خايح عدد Arabia Eudaimon . وكان في امتدادها الساحلي الطويل ماسمحا لتجارة واسعة مع شاطئ شرق أفريقيا المواجه لها حتى زنبار بحيث سمي جزء من هذا الشاطئ حينما باسم الساحل الأوساني . وانعكست موارد هذه التجارة على ثراء مقابر ملوك أوسان وآثارهم التي نقل بعضها إلى متحف عدن .

ومن أهمها بصعة تماثيل من الألباستر مثلت عددا منهم في هيئاتهم العربية وملابسهم القومية ، على الرغم من أن فنانيها قلدوا في نحتها أسلوبا فنيا يشبه أسلوب الفن الهيلينستي الذي انتشر في الشرق منذ القرن الثالث ق . م . وكانت الاسكندرية من مراكزه الرئيسية . وأظهرت بعض هذه التماثيل أصحابها يمدون أيديهم إلى الأمام كما لو كانوا يقدمون بها قرابين وهدايا إلى معبوداتهم . ونوعت بين هيئاتهم فأظهرت بعضهم بشعور قصيرة . وبعضها آخر بشعور طويلة تنسدل إلى ما تحت الأذنين أو تسترسل على هيئة الجداول على الكتفين . ومثلتهم حليقي اللحى ، وجعلت لبعضهم شوارب خفيفة . وبينما أظهرت بعضهم بشباب طويلة كاسية تزخر فيها أحيانا زركشة لطيفة في وسطها وعند أطرافها وعند دمالج الذراعين ، أظهرت بعضها آخر بنقبة (أو فوطة) طويلة .

ولاتبرأ هذه التماثيل من قلة التناسق بين أعضائها . حيث تبدو قاماتها قصيرة أحيانا إلى حد ملحوظ . وسيقانها غليظة . وأكفها عريضة بالنسبة إلى بقية جسومها . ولكنها على الرغم من ذلك بلغت صناعتها مستوى لا يأس به بالنسبة لإمكانات بيثها . كما أصبحت بتنوع هياتها مصدرا مهما للتعرف على سمات أهلها وأزيائهم .

وكجزء من مشكلات التاريخ في دول الجنوب العربي . افترض فلبي أن النهاية السياسية لدولة أوسان حدثت في أواخر القرن الثاني ق . م . بينما افترضت جاكين بيرت بقاءها إلى قبيل ميلاد المسيح . والمرجح على أية حال هو أن أراضيها انطوت بعد ذلك تحت سيطرة حمير ثم دولة سبأ وذو ريدان . ودخلت معها تحت إشراف هذه الدولة الأخيرة المناطق التي امتدت تجارتها أو ولايتها إليها على الساحل الأفريقي المواجه لها .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

Conti Rossini, C., Dalle Rovine di Ausan, Dedalo, 1927, 727-754.

Hamilton, R., GJ, 101, 1943

Philby, op. cit., 82-86.

جواد عل : المرجع السابق - ج ٢ - مادة « أوسان » .

نيلسن وآخرون : المرجع السابق - ص ٨٢ - ٨٤ ، ٩١ ، ٢٩٨ - ٢٩٩ .

الفصل التاسع

عودة إلى دولة سبأ

في عصر المملكة السبائية

بدأت عهود الملكية في سبأ باتخاذ كرب إيل وتر الثاني لقب الملك عوضاً عن لقب المكرب . أو إلى جانبه . في حوالي عام ٤١٠ ق . م . كما يعتقد أصحاب التاريخ المختصر (ومنهم البرايت وفون فيسلمان) بعد أن أحرز لدولته توسعاً كبيراً على حساب جيرانها . ويبدو أن الرجل قد انصرف بعد انتصاراته إلى توطيد الأمن في أرجاء دولته الجديدة الواسعة عن طريق إعادة تعمير المدن المعيشية والأوسانية الخاضعة له وإسكان جماعات من السبائين فيها . وإعادة تحصينها بعد أن اطمأن إلى موالاتها له . ثم عن طريق مواصلة سياسة أسلافه العمرانية والاقتصادية في الاهتمام بمشروعات الري وما إليها .

ولما كان الرجل قد ادعى أو اقتنع بأن معبود دولته الأكبر « إلمقه » هو الذي أيده في مشروعاته ونخيره ملكاً أو صيره ملكاً كما أسلفنا من قبل ، فقد ترتب على هذا أن ازداد شأن إلمقه بازدياد شأن ممثله على الأرض كرب إيل وتر ، وزادت معابده في حواضر الدولة كما انتشرت عبادته في البلاد التابعة لها . وزادت الأوقاف المرصودة عليها من أهلها وأتباعها على حد سواء ، ومعها ضمنياً بقية معبودات سبأ الأخرى .

وتوسعت سبأ في عصرها الملكي فيما كانت قد بدأت به من نظم في عهود المكربين . كما تقبات بعض عناصر الحضارة وبعض التسميات التي أخذت بها الدول الجنوبية الأخرى ، الصديقة منها والمنافسة والخاضعة في آن واحداً .

وأشرنا في نهاية الفصل الخامس إلى نظرية جديدة تقترح أن بعض النصوص السبائية أخذت تؤرخ أحداثها منذ عهود أواخر المكربين بنبابة عظيم

ذى صفة دينية يتلقب بلقب « رشو » ويجمع إلى كهنته للمعبود عثر شيئاً من الإشراف على شئون الري والزراعة . ويرى صاحب هذه النظرية أن النيابة قد انتظم أمرها في عهود الملكية وأصبحت تخشع لكبار أفراد ثلاث أسر كبيرة وهى أسرة حرور كبير خايل ، وأسرة خدمة . وأسرة فضخم . وكان هؤلاء يتعاقبون ولداً عن والد بعد كل دورة ثلاثية من الأسر الثلاث . وتستمر نيابة كل منهم ست سنوات أو سبعة ، باستثناء مرة واحدة استمرت لتسع سنوات .

وتلقب الولاة بلقب « كبير » (وهو لقب كان له مايشبهه في معين وقتبان) . وتسمى مجدهم باسم « مشد » (وهو مسد أو مسود في معين وقتبان أيضاً) . وتلقب ولاة سبأيون آخرون بلقب « قين » ، وإذا زادت منزلة أحدهم لقب بلقب « أكبر أقين » أو « أكبر أقين » بمعنى أكبر الأقيان أو الأقيال . وإلى جانب لقب « مود » بمعنى صديق أو نديم (للملك) في البلاط السبأى — ظهر أيضاً لقب « حرج » ويبدو أنه كان يخص المشرف على المنشآت الحكومية .

ويمكن أن يرد إلى العصر الملكى فى سبأ إنشاء بعض العناصر المعمارية الراقية فى معبد أوام إلى الجنوب الشرقى من مأرب والذى أشرنا من قبل إلى بداية إنشائه فى عهود المكربين . وهو معبد ذو محيط بيضاوى امتد قطره الطويل نحو مائة متر وامتد قطره القصير ما بين ٧١ إلى ٧٥ متراً . وبلغ الارتفاع الخالى لبعض جدرانها الباقية نحو تسعة أمتار ، وبلغ سمك بعض أجزاء جداره الخلقى نحو أربعة أمتار وإن امتلأ داخله بالرديم وكسر الأحجار . ولم يتميز هذا البناء بصفحاته فقط وإنما تميز كذلك بصفحاته . ولهذا فما من بأس فى استعراض بعض أجزائه كنموذج لفن العمارة السبائية فى أيامه .

تقدمت هذا المعبد صفة أو سقيفة يحمل سقفها صف من ثمانية أعمدة حجرية . كل منها حجر واحد قائم يبلغ ارتفاعه نحو ٧,٦٥ م . ويتلوها مدخل ذو صرحين مرتفعين يؤدى إلى بهو ضخم حفت بصفاته الداخلية وحملت سقفها أعمدة حجرية كبيرة بقيت بعض أجزائها ، وكانت تبلغ ٣٢

عموداً . وشكلت في الجدران الداخلية لهذا البهو ٦٤ نافذة حجرية وهمية متتابعة فلد بناؤها في أحجارها هيئة النوافذ الخشبية الشبكية في إتقان بارع . ويفترس . مكشفو المعبد أن واجهته المدخل المؤدى إلى هذا البهو وأخشاب بابه بل وأرضيته ودرجات سلمه الرئيسي كانت مكسوة في بعض مواضعها بصفائح عريضة من البرونز تعبيرا عن الثراء . ويعتقد أحدهم (جام) أن الدرج المؤدى إليه كانت تتوسطه نافورة تصب ماءها في حوض برونزي كبير يواحه المدخل . بينما يفترض غيره (البرايت) وجود خزان ماء فوق صرحي المدخل كان يملأ من بئر في داخل المعبد ثم تجري مياهه في مجار تمر خلال أرضية المعبد لتصب في الحوض البرونزي الكبير ثم يعاد توزيعها مرة أخرى في الأغراض التي خصصت من أجلها .

وعثر في المعبد . وعلى جوانب مدخل البهو بخاصة على عدد كبير من النصب الحجرية المنقوشة وعدد كبير آخر من التماثيل البرونزية الصغيرة والكبيرة مثلت أصحابها الأثرياء . ونقشت على هذه وتلك عبارات التعبير والإهداء إلى « إلقه » صاحب معبد أوام . وقلدت بعض النماذج الطيبة منها أساليب الفن الفينيقي والفن الهيلينستي .

وما من شك في أن الصورة الإجمالية التي صورها مكتشفو مدخل هذا المعبد . والتي قدمنا جزءاً منها . تدل على ما كانت عليه بقيته التي لم تكتشف حتى الآن من روعة وفخامة . وتدل بالتالي على ثراء العهود التي بنى فيها وهي عهود أسلفنا أن أقدمها يرجع إلى عهود المكربين وأن أوسطها يرجع إلى العصر الملكي السبأى منذ بداية القرن الرابع ق.م . . بينما يرجع أحدثها إلى القرن الأول الميلادي . وتخرب المعبد في أواخر العصور السبأية وقام مصنع في صمته الغربية . كما استخدم سورا لمنطقته حين قل سكانها بعد أن تخرب سد مأرب . وتناثرت حوله المقابر والمساكن ، ثم تحول إلى حصن في العصور الإسلامية .

وتوفر لبقية معابد سبأ ما توفر في غيرها من طقوس وثروات وممتلكات بما يتناسب مع قدرات منشئها ومدى أهمية المناطق التي نشأت فيها . وانتفع

أغلبها باعتماد أتباعها في التابؤات (وهى رجم بالغيب) عن طريق وسطاء من الكهنة . وهو ما كانوا يسمونه باسم « مسأل » . وإلى جانب ماتلقاه هذه المعابد من النذور والقرايين والأضاحى من الدولة . كان بعض أثرياء مريديها يسجلون على أنفسهم حججاً أو أوقافاً مع الكهنة يلتزمون فيها بأداء قرايين معينة ويتوقعون . أو يتوقع لهم الكهنة بمعنى أصح . سوء المصير إن هم تخلفوا عن أدائها .

وتقبلت سباً من عقائد جيرانها في عصرها الملكي تسمية « ذسموى » أو ذوسماوى بمعنى سيد السماء أو رب السماء . وقد ورد اسمه أصلاً ضمن نصوص عشيرة معينة قديمة خضعت للسبائين وهى عشيرة الحنكانيين الذين نسبت إليهم مدينة حنان . وعلى الرغم من أنهم أدخلوا ذسموى هذا ضمن عقائد التعدد الفاشية بينهم إلا أن من الباحثين من يرى فيه تطوراً في تفكيرهم . وذلك على اعتبار أنه إلى جانب اعتقادهم بوجود معبود لكل كوكب كبير فى السماء . جعلوا من ذسموى هذا معبودا للسماء كلها كوحدة واحدة .

وإذا كانت هذه بعض نواحي الازدهار العمرانى والإدارى فى سبأ فى عصرها الملكي . فقد مرت فى أواخر هذا العصر بمشكلات خارجية وداخلية عدة كان عليها أن تواجهها بما يناسبها .

وترتبت أهم المشكلات الخارجية على رغبة قادة الإغريق وتجارهم فى مشاركة العرب فى الانتفاع بتجارة البخور والتوابل عن طريق البحر الأحمر وما يتصل به من تجارة المحيط الهندى أو احتكارها وحرمانهم منها . وأطلت هذه الرغبة برأسها منذ عهد الاسكندر الأكبر المقدونى الذى تطلع بعد أن دانت له دولة بابل حتى الخليج العربى . إلى السيطرة على تجارة بخار العرب واحتكار تجارة الهند . فأرسل فى عامه الأخير ثلاث بعثات بحرية كبيرة نجوب البحار وتعرف على مواطن الضعف ومواطن الاستغلال فى السواحل التى تحيط بشبه الجزيرة العربية . وبدأت هذه البعثات الملاحية رحلتها من الخليج العربى ولكنها لم تتقدم كثيراً إذ بلغت أكثرها نجاحاً (بقيادة Hieron) رأس الخيمة Maket . وقيل إن الاسكندر أمر كذلك بخروج بعثة بحرية

من مصر عن طريق البحر الأحمر . ولكنها تعثرت هي الأخرى وربما بلغت باب المندب أو لم تبلغه .

وعندما تقاسم قادة الاسكندر المقلدون حكم أقطار الشرق القديم بعد وفاته ، وحينما استقر البطالمة في مصر في أواخر القرن الرابع ق. م . كان من سياستهم أن يستغلوا السواحل الطويلة المطلة على البحر الأحمر إلى أقصى الحدود . وأن يحققوا آمال الاسكندر لمصلحتهم بخطوات متتدة عملية لم يكن تأثر عرب الجنوب بنتائجها محسوساً على درجة واحدة دائماً . ويمكن إيجاز مراحلها الأولى فيما يلي :

(أ) أرسل أحد البطالمة الأثرائل ولعله بطلميوس الأول أو الثاني قائداً من قادة البحر يدعى Ariston في بعثة بحرية استطلاعية ليتعرف على سواحل بلاد العرب وطبيعة الملاحة في بحارها . فطاف بجزء كبير منها ، ولما عاد إلى الاسكندرية قدم إلى دولته تقريراً مفصلاً عما شاهدته ولاحظه في رحلته من الموانئ الشمالية والجنوبية .

(ب) جددت في عصر البطالمة بعض الموانئ المصرية المطلة على البحر الأحمر ، وأنشئ بعض آخر ، حتى تستعد لاستقبال المزيد من متاجر هذا البحر وتصديرها . (ومنها ميناء أرسينوى في نهاية خليج السويس ، وميناء ميوس هرميس قرب ميناء القصير الحالية ، وميناء برينيكي إلى الشرق من أسوان) .

(ج) العمل على تأمين السيطرة على خليج العقبة باعتباره مخرج تجارة البحر الأحمر المتجهة (برأ) إلى جنوب بلاد الشام .

(د) زيادة الأساطيل البطلمية المقاتلة في البحر الأحمر لتأمين السفن والمصالح التجارية فيه . وتشجيع الوسطاء على التعامل معها . وصرفهم عن الاعتماد على نقل المتاجر بالطرق البرية التي أشرف عليها العرب الشماليون والجنوبيون في شبه الجزيرة .

(هـ) تشجيع الجاليات الإغريقية التجارية على استيطان موانئ البحر

الأحمر وجزره .. وقد تحدث عنها وعن بعض المواطنين التي نزلت بها على الشاطئ العربى الرحالة Agatharchides فى منتصف القرن الثانى ق.م. ووصلت بعض هذه الجاليات حتى جزيرة سوقطرى فى البحر العربى . وشاركوا العرب والهنود فى سكناها . كما شاركوهم فى نقل تجارة الهند وسواحل شرق أفريقيا .

وأدت هذه الخطوات المتتابعة إلى نتيجتين مختلفتين على المدى البعيد بالنسبة لدول شبه الجزيرة العربية . فانتفع بها أهل السواحل وازدهرت تجارة موانئهم الجنوبية والجنوبية الغربية . مثل ميناء قنأ فى حضرموت . وميناء عدن . وميناء موزا فى المنطقة التى تقاسمها كل من قتيان وأوسان وحمير (ثم ورنها سبأ) . بينما تأثرت بعض التىء اقتصاديات الدول العربية الداخلية التى اعتمدت على استغلال قوافل الطرف البرية ولا سيما الطريق الرئيسى الممتد من جنوب شبه الجزيرة عبر الحجاز حتى العقبة وما وراءها فى سيناء أو فى جنوب الشام . وإن ظل تأثيرها حتى المرحلة التى وقفنا عندها . محدودا .

. وكان من أكثر المستغلين لنتائج هذه التطورات قبائل حمير التى أطلت على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية . واستفادت من نشاط التجارة البحرية فى موانئها لاسيما عدن وموزا (موشج) وميناء أخرى ذكرها ر حاة الإغريق باسم أو كيليس .

ويبدو أن حمير كانت تمثل الفئة الحاكمة لحلف قبائل تداخل مع بعضه بدوافع المصاحبة المشتركة ورابطة الدم والموقع . وقد تسورتها المصادر العربية تنقسم إلى قبائل صغيرة تعيش حول خليج بناسجة ظفار ورداع (أى تجاور أوسان) وتمتد شرقاً فى سرو حمير ونجد حير . وقد أسلفنا أن هذه القبائل اعترفت بسيادة دولة قتيان منذ القرن الرابع ق.م. بحيث أطلقت بعض النصوص على أهلها لقب « ولد عم » مثل القتيانيين . وبخيت أصبع حصنهم الرئيسى يسمى « ريدان » تقليدا لاسم حصن ريدان القتيانى . ولكن الأمور تطورت إلى مصالحة حمير بعد ازدياد النشاط العربى على سواحلها : فأخذت تعمل لصالحها .

ونشأت ظاهرة جديدة بالاعتبار ربط بعض الباحثين بينها وبين نهضة حمير . وهي أن المصادر العربية القديمة لم تنسب أحداثها إلى تاريخ ثابت (كالتاريخ الميلادي أو التاريخ الهجري الحاليين) إلا في نحو سبعة نصوص متباعدة عرفت حتى الآن . وأدت الدراسات المقارنة إلى تعيين عام البداية للتاريخ الثابت الذي ردت هذه النصوص السبعة أحداثها إليه بعام ١١٥ ق.م. (أو عام ١٠٩ ق.م.) . ولكن تعددت النظريات في تعيين المناسبة الهامة التي ارتبطت بها هذه البداية ، ومالت أحدث هذه النظريات إلى ربطها باتحاد حمير في كيان واحد ، وحلت بذلك محل نظرية أخرى سبقتها كانت تربط بينها وبين نشأة مملكة سبأ ودوريدان . الأمر الذي دعا إلى إعادة ترتيب أحداث الجنوب على أساس جديد وهو ماسوف تأخذ به فيما يلي .

وقد مر بنا كيف اتجهت حمير بقبائلها المتحدة إلى الانقلاب على دولة قتيان واستقلت عنها في القرن الأول ق . م . وكانت سبأ في إضعافها ، وكيف دخلت في بعض الحروب ضد دولة حضرموت ، ثم أخذت تتحين الفرص لإثبات كيانها إزاء جارتها العجوز مملكة سبأ .

وكانت سبأ تشق طريقها في جهاد ، وعانت بعض الوقت من تشييق جارتها قتيان ومعين ، ولكنها قاومت وبدأت بمعين فقصت على استقلالها كما أسلفنا ، وأسكنت مجموعات من السبائيس في بعض مدينتها . ولكنها لم تنتفع طويلا بنصرها . إذ هدها خطر خارجي ربما لم تكن تحسب حسابه .

ونعود إلى العوامل الخارجية أو المنافسات الخارجية لنجد أن خيلاتها الفاصلة بدأت منذ امتد اهتمام البطالمة الأواخر من رغبة الإشراف على البحر الأحمر وتجارته إلى رغبة الإشراف على تجارة المحيط الهندي الذي كانوا يعدون أن كثيرا مما يأتيهم به التجار العرب من متاجر إنما يأتي عن طريقهم من الهند ، فودوا أن يوجهوا سفنهم إليها دون وساطة . و المؤرخون خبر واحدة من أولى الرحلات التي نجحت في تحقيق هذه الرغبة ، وقد تراسسها ملاح يابسي يودوكسوس الكيزيكي Eudoxos of Cyzicus وبلغ بهس الهند حوالي عام ١١٧ ق م . وتعددت بعدها رحلات بحرية

الإغريق والبطالمة وساعد على نجاحها اهتمام اليوناني هيبالوس Hippalus إلى إمكان استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية خلال الصيف (من يونيو إلى أكتوبر) في تقصير أمد الرحلة من البحر الأحمر إلى سواحل الهند في عرض المحيط مباشرة دون ضرورة إلى التزام خطوط سواحله الطويلة .

وأعقب البطالمة منافس أشد خطراً منهم وتمثل في النفوذ الروماني في عهد الامبراطور أوجسطس (أوكتافيوس) الذي أصبح يسيطر على أغلب مناطق العالم القديم دون منازع منذ أواخر القرن الأول ق . م . ولم يكتف أوجسطس بالنشاط العادي الذي يقوم به أعوانه من الإغريق والرومان في تجارة الهند والبحر الأحمر . وأراد أن يقصى العرب عن هذه التجارة جملة أو يجعلهم يعملون لصالحه فيها . أو يسيطر على أرضهم جيوشه .

وكانت الصورة البراقة المشرقة التي أشاعها الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان في عالمهم الغربي عن ثراء بلاب العرب مما شجع على هذه الرغبة فقد كتب الرحالة الجغرافي استرابون مايقول إن السبائين والجرهانيين في عصره كانوا من أكثر القبائل ثراء نتيجة لتجارتهم في المواد العطرية، ولهذا توفرت لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة كالأسرة والموائد الصغيرة والأواني والكوؤوس . فضلاً عن قصورهم الرائعة التي كانت أبوابها وحدرانها وسقوفها مختلفة الألوان . يرصعون بعضها بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة . . . إلخ .

وليس من ضرورة بطبيعة الحال إلى تصديق هذا التصوير بخدافيه ، ولكنه كان كافياً لإثارة أطماع ساسة الرومان الطموحين إلى السيطرة والاستغلال . ولم يعدم أولئك الساسة والنجار تقديم المبررات لأطماعهم ، وصور استرابون بعضها فادعى أن أهل العريذ السعيدة كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارتهم مع الأغراب والرومان فلا يتركون لهم ولا للبلاد التي ينقلون تجارتهم إليها مجالاً للكسب أو الثراء .

وهكذا صدر أمر الامبراطور أوجسطس إلى نائبه الروماني على مصر آيليوس جالوس (Aelius Gallus) بمهمة إرهاب العرب أو

احتلال أرضهم . وترأس جيشاً كثيفاً وانضم إليه عدد كبير من اليهود ومن الأنباط حلفاء الرومان . وخرج الجيش في عام ٢٤ ق.م. على متن أسطول كبير (قيل إنه تألف من ١٣٠ سفينة) من خليج السويس واتجه في البحر الأحمر حتى Leuke Kome ولعلها هي ميناء الحوراء أو أمالج الحالية التي استغلها قوم مدين في عصورهم القديمة ثم خضعت لنفوذ الأنباط . وسلكت جيوش جالوس بعدها سبيل البر خلال ساحل الحجاز وتهامة اليمن وخربت في طريقها مدناً كثيرة . وعندما وصلت إلى الجنوب بدأت بتخريب مدن دولة معين القديمة التي أصبحت سبأ مستولة عنها . وروى استرابون أن ملك نجران فر حين اقتراب قوات الرومان ، وفتحت يثل أبوابها ودمر الغزاة مدن نشق ونشان وكنة ولبة وحريب وحاصروا مأرب . ولكن حملتهم باءت في نهاية أمرها بالفشل ولم تتعد مأرب ، وفقدت كثيراً من سفنها ومن رجالها . وكان قد صحبها رجلان اهتم التاريخ بهما . استرابون الجغرافي الرحالة الذي روى أحداثها (من وجهة نظره) وكان صديقاً شخصياً للقائد جالوس ، ثم رجل آخر اختلف الحكم عليه ، وهو رجل من الأنباط ترأس قومه الذين رافقوا الحملة واعتبره الرومان دليلاً لهم على أساس خبرته بالطرق البرية في شبه الجزيرة وخبرته بطرق العرب في القتال . وقد ذكره استرابون باسم سلياووس وهو اسم قد يكون محرفاً عن اسم صالح أو سلى أو سلاء (يراجع عنه بعده) .

ورجعت أسباب فشل حملة جالوس إلى عدة عوامل ذكر استرابون بعضها . ومنها عدم كفاية جالوس في قيادة البحر وتنظيم الأسطول بحيث فقد كثيراً من سفنه قبل أن يصل بها إلى ميناء الحوراء . وإذفاقه أغلب جهده في إعداد سفن مقاتلة لم تكن لها ضرورة ملحة في حملته لأنه لم يكن من المنتظر أن يقاتله العرب في البحر . ولعله عدل لهذا إلى طريق البر وسار بجيشه في طرق صحراوييه وجبلية طويلة وعرة تمتد نحو ١٢٠٠ ميل من الحوراء أو أمالج إلى داخل اليمن ، وكان يستطيع أن يتابع طريقه في البحر مادام قد بدأه حتى ساحل اليمن . وقلة الماء خلال حصار مأرب ، وتفشي الجوع والأوبئة -تو لها، فضلاً عن عدم إخلاص الدليل النبطي في النصيحة للرومان .

(م ٨ - تاريخ شبه الجزيرة العربية)

وإذا زدنا شيئاً على تحليل استرابون فهو وضع مقاومة العرب لجيوش الرومان موضع الاعتبار في عدة معارك كانت إحداها عند نهر ذكره استرابون وقد يكون هو غيل خارد، وشدة تحصن السبأين في عاصمتهم مأرب ومقاومتهم للحصار الروماني . وأخيراً تفسير عدم إخلاص الدليل النبطي للرومان برغبته في الوفاء لبني عمومته العرب مما خيب آمال السادة الرومان.

ويبدو أن تجار الرومان قد وجدوا سبيلهم بعد ذلك إلى موانئ بلاد العرب الجنوبية عن طرق أخرى غير طرق الحرب ، فتحالفوا كما يفهم من بعض الروايات المتأخرة مع أمير ظفار الحميري على أن يقدم لهم بعض الامتيازات الإقليمية ، وربما نجحوا في أن يتركوا بمبناء عدن جالية أوحامية رومانية تساعد سفنهم ضد أخطار القرصنة في البحر وتشرف على مصالحهم التجارية .

واستردت دولة سبأ كيانها بعد فشل الحملة الرومانية ، وانفسح السبيل أمامها في الداخل بعد أن انكمش نشاط دولة قتيان وخسرت كيانها السياسي شيئاً فشيئاً تحت تأثير ضربات السبأين والحضرميين والحميريين خلال القرن الأول الميلادي وبعده بقليل ، كما مر بنا من قبل .

ولكن سبأ لم تنتفع بهدوئها طويلاً ، وأخذت المشكلات الحدودية والداخلية تعمل عملها السيء فيها، الأمر الذي قلل من هيبتها أمام القوتين الباقيتين في ميدان المنافسة أمامها في جنوب شبه الجزيرة وهما قوة حمير وقوة حضرموت، ثم مهد لعصر جديد من عصورها المتميزة وهو عصر ملوك سبأ وذوريدان موضوع البحث التالي .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

Bowen, Albright and Others, op. cit.

Jamme, A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimore, 1961.

Philby, op. cit., 64-76.

Phillips, op. cit., 279f.

Ryckmans, J., op. cit.,

جواد نلى : المرجع السابق ، مادة ملكية سبأ .

نيلسن وآخرون . المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ٢٩١ - ٢٩٢ .

الفصل العاشر

دولة سبأ وذو ريدان

وسيطرة حمير

اختلفت نشأة هذه الدولة عن نشأة غيرها من الدول في أنها لم تبدأ ببداية زاهرة ، وإنما قامت خلال ظروف مضطربة استمرت أكثر من قرن ونصف القرن بين عام ٩٠ م وعام ٢٦٥ م . وهي ظروف لازالت تفاصيلها خافية ونصوصها متضاربة .

وكانت قد ظهرت بين القبائل العربية الجنوبية والوسطى خلال القرن الأول الميلادي روح من التنافس الشديد ورغبة الانتشار وأطماع الرياسة والسيادة ، لأسباب غير محددة ، قد تكون منها تلك المحنة التي هزت كيان دولة سبأ خلال الحملة الرومانية عليها . وروية دول الجنوب تنهار واحدة بعد واحدة لسبب أو لآخر ، وزيادة ثراء بعض المناطق مع افتتار مناطق أخرى نتيجة للمنافسة بين التجارة البحرية والتجارة البرية . وقد يكون منها كذلك ما جد من انتشار الحيلول والقوات الراكبة بين رجال القبائل وما أدى إليه هذا من سرعة الحركة والكر والفر والشعور بالزهو . وهلم جرا .

وكانت أكثر القبائل السبائية نهرة خارج مأرب هي قبائل مرثد وجرت التي ارتبطت بأسرة ملوك سبأ بروابط الأصل والنسب . ولهذا طلت صلات الموود العالية بينها وبينهم . ولكن هذا لم يمنع بعض حكامها الكبار الذين كانوا يتلقبون من قبل بألقاب الأقيان أو الأقيال من أن ينلقبوا بلفظ «ملك» . ومن زآخر . بل ولقب « ملك سبأ » أيضاً . الأمر الذي تقبله الملك السبائي الشرعي في مأرب ، في بعض الحالات . على مفضل حتى يبتوا مساندين له .

وفي الوقت نفسه ظلت أكثر القبائل القريبة من مأرب ، عدداً وبأساً ، هي قبائل سمعى التي ضمت أثلاث : سخيم ، وبتع ، وحمدان (والأخيرة هي التي انتسب إليها بعد الرحالة أبو محمد الحسن الهمداني أشهر من كتب في العصور الإسلامية عن جغرافية شبه الجزيرة العربية وتاريخها) .

وكيفت هذه القبائل مسلكها إزاء سبأ بما يتفق مع مصالحها والظروف التي عاشت فيها ، فظلت موالية للدولة في عهود قوتها ، واستمرت كذلك حتى رأت الأطماع تحيط بها ، فبدأت تتحين الفرصة لإثبات كيائها الذاتي تحت زعامة بيت حكم كبير فيها انتسب إلى جد أكبر يدعى «أعين» . وجد أصغر يدعى «أوسلات رفشان» .

وفي حمأة هذه الأطماع والملايسات الداخلية التي مهدت لتمزق الكيان السبأى ، كانت قبائل حمير قد شقت طريقها حتى حدود سبأ ، واتخذت عاصمتها في مدينة ظفار التي نشأت في منطقة نخسية قرب مدينة يريم الحالية ، وحمها عدة حصون قامت على التلال التي تحيط بها . وكان حصن ريدان أكبرها ، فأصبح حصنها الملكى ، وانتسب إليه ملوكها في لقبهم الذي اشتهروا به وهو «ذوريدان» .

ومجأة ظهر في نصوص هذا العصر المضطرب ما يدل على أنه قامت في كل من مأرب وظفار أسرة حاكمة ادعى ملوكها لأنفسهم لقب «ملك سبأ وذوريدان» كل على حدة . وفي تفسير هذه الظاهرة افترض الباحث فون فيسمان أن مأرب عاصمة سبأ تعرضت لهجوم من قبل ملك ريدان الحميرى في نهاية القرن الميلادى الأول ، وحينما انتصر عليها أضاف اسمها إلى لقبه ، ولكن تقديره لمكانة سبأ التاريخية والدينية جعله يقدم اسمها في مقدمة هذا اللقب . وإن لم يطل حكمه . وعز على القبائل المحيطة بمأرب ما صارت إليه فعملوا على إجلاء الملك الحميرى عنها وأعادوا إليها الملك السبأى المنهزم أو رجلا من أسرته اتخذ هو الآخر لقب «ملك سبأ وذوريدان» في الوقت الذى لم يتنازل فيه الملك الحميرى في ظفار عن لقبه المزدوج .

ومع التجاوز عن الأسماء العديدة التي أتت النصوص بها ، مراعاة

للتخفيف مؤقتاً ، تكفى الإشارة إلى أنه كان من أصحاب الفضل في إعادة الملكية الشرعية إلى مأرب زعيم قبائل بتع ، وزعيمان لقبيلتي مرثد وجرت ، وقد عمل كل منهم من ناحيته . ولم يكن عمله بغير ثمن ، فقد تلقب كل من الثلاثة بمثل لقب ملك مأرب العائد ، أى « ملك سبأ » .

وعمل الهمدانيون على أن يكون لهم بدورهم نصيب في ألقاب العصر وزعامته . وكان قد ترأسهم بعد أوسلات رفشان ولداه « يرم أيمن » و « بارج » يهرحب » : وقد مثلاً ملك سبأ في عقد صلح أنهى حروباً متقطعة قامت بينه وبين دولة حضرموت والحميريين والقتبانين (الذين كانت دولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة) . وكان الجزاء على عقد الصلح أن تلقب أكبر الأخوين يرم أيمن بلقب ملك وأورثه لولده .

وهكذا شهد العصر (في منتصف القرن الثاني الميلادى) أربع أسر إقليمية أو قبلية ادعى كل رئيس فيها لقب « ملك سبأ » ، وذلك إلى جانب ملك مأرب الشرعى صاحب لقب « ملك سبأ وذوريدان » ، في دولة كانت تسيطر عليها من قبل مملكة واحدة .

وإلى جانب هؤلاء الملوك الخمسة كانت هناك ملكية حمير التى تمسكت هى الأخرى بلقب « ملك سبأ وذوريدان » وحاولت أن تحققه على حساب هذه الأطراف جميعاً .

وهنا تصدى زعيم همدان « عليان نهفان » الذى شارك أباه يرم أيمن في رئاسة قومه وفي لقب الملك ، لمواجهة الأزمة . وتلمس الحلفاء حوله ، ووجد بعضهم في خصوم الأمس . فتحالف مع دولة حضرموت ، ومع جماعات حبشية ذكرتها النصوص تحت زعامة « جدوت ملك حبشت » أو جدورة ملك الحبشة أو الحبش . واختلفت آراء الباحثين في تحديد أصل هذه الجماعات . فذهب رأى إلى اعتبارهم فرعاً من سكان جنوب اليمن أو تهامة الأصيلين نزع بعضهم إلى الساحل الأفريقى المواجه لهم وكان لهم أثر في تكوين جماعات الجعزيين الأحرار الذين نشروا اللغة السامية في الحبشة ، وقد عرفوا عند العرب حينذاك بتسمية الحبش على جانبي البحر

الأحمر . وذهب رأى ثان إلى اعتبارهم مولدين من مهاجرين أحباش إلى سواحل تهامة تكاثروا عليها ثم عملوا لمصلحتهم في فترات التمزق الداخلي بالانحياز إلى فريق ضد فريق . وذهب رأى ثالث إلى اعتبارهم غزاة من الحبشة استغلوا فترات التفكك التي عمت المناطق اليمنية فاحتلوا مناطق ساحلية واسعة من شمال جيزان وعسير وجزء من ساحل الحجاز ، رداً على التوغل الاقتصادي والبشرى العربى على الساحل الأفريقى ، وللسيطرة الكاملة على التجارة الأفريقية المنقولة بالوساطة إلى الساحل العربى بعد أن فشلت الحملة الرومانية في السيطرة عليها . وأيا ما كان من هذه التفسيرات فإنها لا تخفى حقيقة واقعة وهي أن تمزق أهل الدولة الواحدة وتضارب مطامع زعمائها وتغليب المصالح القبلية أو الإقليمية فيها على حساب الصالح العام . كل ذلك كان سبيلاً إلى تدخل الأعراب في أمورها .

وجدير بالذكر أن النصوص الجنوبية أخذت تشير في هذه الفترة إلى دور الأعراب أهل البادية باسم « أعرب » وإلى انضمامهم إلى هذا الفريق أو ذاك . ويبدو أنه أصبح لهم دور كبير في فرق الخيالة أو الفرق الراكبة في الحروب .

ولم يتحقق أمل' علهان نهفان في إعادة هبة دولة سبأ وريدان ، إلا في عهد ولده « شعر أوتر » الذي أضاف إلى هذا الأمل هدفاً آخر وهو تحرير الأراضي التي سيطر الحبش عليها ولو استدعى الأمر أن يقاتل معهم من كانوا يخالفونهم من القبائل العربية الأصيلة . وقد نجح في تنفيذ أغلب هدفه وبسط سلطانه على أغلب اليمن وشماله ، في أواخر القرن الثاني الميلادى .

ولكن نجاح شعر أوتر كان رهيناً بشخصه ، وبعد وفاته عادت الحروب بين السبائين وبين الحميريين لسنوات طويلة . وتحالف الحميريون فيها مع الأحباش أو الأكسوميين الأفريقيين في عهد ملكهم عذبه أو عذابا . ويبدو أن هؤلاء الأحباش خططوا للعمل لمصالحهم الخاصة ووجدوا عوناً أو تحريضاً من الرومان الذين تلاقت مصالحهم معهم في استغلال تجارة البحر

الأحرار وقليل نصيب العرب منها . ولم ينقذ الجنوب منهم إلا وفاة عمده
الأكسومي أو الحبشي وقيام الاضطرابات في بلده بعد وفاته .

تلك كانت مجرد نماذج من فترات التشتت والصراع والمد والجذر التي
شهدتها دولة سبأ وجيرانها ، وقد تكررت أمثالها وتغيرت مواقع الأطراف
فما بين تحالف وتخاصم عدة مرات خلال القرون الثلاثة الميلادية الأولى .
والعريب ، أنه على الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من منافسة ظفار الحميرية
للمأرب السبائية في شئون التجارة والسياسة ، ومنافسة ذمار (قرب صنعاء)
للمأرب أيضاً في شئون العمران - ظلت أوجه النشاط الإنتاجي والتجاري
عائمة إلى حد ما . وظلت تثير اهتمام المؤرخين والرحالة الكلاسيكيين المعاصرين
لحسا

ففي أوائل هذا العصر المضطرب تمت إعادة بناء الهويس الشمالي من
سد مأرب (في الفترة بين عامي ١٠٠ - ١٢٠ هـ) بعد انهياره الأول المعروف .
وإلى هذه الفترة نسب الأخباريون العرب تشيد قصر نحمدان الذي أسرفوا
في وصفه وتمجيد صاحبه إيل شرح يخضب ملك مرثد - وقد احترق القصر ،
ثم تم تدميره في بداية العصور الإسلامية وأصبح تلاً خرباً .

ونسب إلى عهد هذا الملك في نهاية القرن الميلادي الثاني إرسال بعثة
إلى ملوك غسان والأزد ونزار ومذحج وهي من أقدم المرات التي ذكرت
فيها أسماء هذه القبائل .

وفي أوائل هذا العصر أيضاً ، خلال القرن الأول الميلادي ، ذكر
الرحالة بلييني في كتابه عن التاريخ الطبيعي أمرين متقابلين ، ذكر في
أولهما أن السفن التابعة للرومان كانت تخرج من برينيكى (قرب أسوان
في مصر على البحر الأحمر) إلى ميناء أو كيليس على مضيق باب المندب ،
أو إلى قنأ في منطقة الكندر دون توقف ، ومن هناك إلى الهند رأساً ودون
وساطة العرب . ولكنه أضاف إلى ذلك أمراً آخر وهو أن العرب ظلوا
من أغنى الأمم لتدفق الثروة من روما وبارثيا إليهم وتكديسها بين أيديهم .
فهم يبيعون ما يحصلون عليه من (تجارة) البحر ومن (إنتاج) غاباتهم

ولا يشترون شيئاً في مقابله . وذكر أن السبائين كانوا أعظم القبائل ثراء بما تنتجه غاباتهم من البخور . وما يملكونه من مناجم الذهب ، وما يوجد عندهم من الأراضي الزراعية ، وما ينتحونه من الحبوب والكروم والعسل . الخ .

وفي تصويره لمدى استهلاك العالم الخارجي لمنتجات جنوب شبه الجزيرة . روى بليني أن جنازة Poppaea في روما قد استنفذت مايساوى الإنتاج السنوى للعربية السعيدة . وروى أنه ترتب على ازدياد استهلاك البخور والصمغ في أيامه . أن أصبح الصمغ يجمع مرتين في العام دون أن يترك التجار الوقت الكافى لسبقائه لكى تنضج .

وهكذا يبدو أن تجار الإغريق والرومان وإن سيطروا على أغلب تجارة الهند في المحيط الهندى والبحر الأحمر . فقد ظل العرب ينتفعون ببيعها ويقومون بنقل منتجاتهم الخاصة من البخور والصمغ ومشتقاتها بقوافل الإبل ويعملون على تصريفها ويجنون أرباحها . وهو أمر لم ينتفع به الجنوبيون وحدهم ، وإنما انتفع به العرب الشماليون أيضاً لفترات طويلة مما سنعود إلى ذكره فيما بعد .

بل إن السفن الإغريقية والرومانية وإن عرفت الطريق البحرى القصير المباشر إلى الهند ، إلا أنها ظلت تلجأ إلى الموانئ العربية من حين إلى آخر للتجار معها مباشرة . أو للراحة فيها والتزود منها بالماء والزاد خلال رحلاتها الطويلة إلى سواحل الهند وعودتها منها . بل وظلت تسمح لبعض السفن العربية بالاشتراك معها في التجارة . وذلك مما يعنى أنها لم تقاطعها جملة ولم تحرمها من التجارة جملة . وقد كان للحميريين على ساحل البحر الأحمر وساحل البحر العربى أسطول تجارى ضخم لا يمكن تجاهله .

وأدت هذه الأوضاع إلى أن ورد في كتاب الطواف حول البحر الإربترى Periplus Maris Erythraei من حصيلته عن جنوب شبه الجزيرة في حوالى عام ٢٢٠ م . ما سبق أن استشهدنا به منه عن ازدهار ميناء « قنا » الحضرمية ، وتجارها الواسعة مع عمان وبارثيا والهند . وقد

ذكر نفس الأمر عن ميناء موزا (موشج أو المخا) فقال إنها ميناء عامرة دائماً بأصحاب السفن والملاحين العرب ، وفي شغل شاغل بشئون التجارة ، ويتعامل أهلها مع الساحل البعيد (الأفريقي ؟) ومع بريجازا (في حوض السند) ويرسلون سفنهم إليهما .

وهكذا احتفظ العرب بنشاطهم على الساحل الأفريقي ، لا سيما في منطقته المعروفة باسم رأس التوابل ، وفي منطقة الصومال ، وعلى ساحل الحبشة ، وامتد نشاطهم إلى ميناء رهابتا (وقد تكون ربطة العربية) بجوار زنزبار ، وذكر مؤلف كتاب الطواف أن رهابتا هذه ظلت تعترف بالسيادة لأمير معافر الحميري « بحكم امتياز قديم أخضع ساحلها لنفوذ دولة قديمة في بلاد العرب (وهي دولة أوسان) وأن طائفة من تجار ميناء موزا الحميرية كانوا يعملون باسم أميرهم فيها ويسيطرون على تجارتها ويتزاجون مع أهلها » .

وظل للعرب نشاطهم في جزر البحر العربي (أو المحيط الهندي) القريبة منهم مثل جزيرة سوقطرى (دفيبا سخترا = ديوس كوريديس = الجزيرة السعيدة) . وذكر مؤلف الكتاب السابق أنها كانت تابعة لملك اللبان يعني بذلك ملك حضرموت ، وأنه كان يسكن على ساحلها الشمالى تجار من العرب والهنود والإغريق .

وليس من شك في أنه لو توافر للمناطق العربية الجنوبية سلامها القديم عوضاً عن الاضطرابات التي مزقت شملها في هذه الفترة لاستطاعت أن تحقق أضعاف ما استشهدنا به من روايات المؤرخين والرحالة عنها — ولكن هذا الذى استشهدنا به كاف للدلالة على أنه كان لا يزال بها من الإمكانيات ما تستطيع أن تستعيد به أمجادها القديمة أو بعضها على أقل تقدير .

وإذا كانت مارب قد استنفذت جزءاً كبيراً من طاقتها بعد كفاحها الطويل في سبيل البقاء ، فقد بقي على « ظفار » أن تقوم بدورها ، وقد مالت موازين القوى النسبية إليها بالفعل منذ النصف الثانى للقرن الثالث الميلادى . وبجوارها قام حصن ريدان الملكى الذى نافس حصن سلحين السبأى المجاور لمارب . وقد اعتبر الاخباريون العرب الحصنين قصرين

وأشادوا بما فيهما من فخامة وروعة ما وسعهم الإشادة . وضموا إلى ذكر
قصر ريدان قصراً فخياً آخر ذكروه باسم « شوحطان » .

نهضة حمير وملكيتها سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنة :

مهدت الفترة السابقة لسيادة أسرة حميرية ريدانية تنسب إلى إيل عز
نوفان يهصدق . أو إلى ولده الأوسع شهرة منه « ياسر يهنم » الثاني الذي
حرف بعض الأخباريين اسمه إلى ناشر النعم اليعفري . وذكر عبيد بن شريفة
أنه سمى كذلك واشتهر به لأنه استرجع ملك الحميريين وجمع الأمر لهم .
ولما كان رأس أسرة جديدة أسرفت روايات هؤلاء الأخباريين (لاسيما
ذوي الأصل اليمني) في ذكر مناقبه وفتوحه فروت أنه ضرب في الشرق
والغرب والبر والبحر . بتفاصيل تتجاوز عن ذكرها لعدم ثبوت شيء
منها .

وشاركه في الحكم قبيل عام ٢٧٠ م ولده شمر يهرعش (الثالث) . ثم
انفرد بالحكم في حوالي ٢٩١ - ٣١٦ م ، وتوافرت له شهرة أوسع من شهرة
أبيه ، واحتفظت له بعض الأساطير العربية بسمعة عريضة ، فاعتبرته أعقل
من حكم . وأطلقت عليه لقب تبع الأكبر . واعتبرته فاتحاً عظيماً امتد حكمه
في زعمها إلى أرض بابل وفارس وسمرقند وأرمينيا والصين والتبت . . . إلخ .
وعلى الرغم من وضوح عنصر التهويل فيما ادعته هذه الأساطير . فإنه يبدو
أنها اعتمدت على نصيب متواضع من الواقع وضمخته باسم القومية في عصر
نشط فيه قوى خارجية من الفرس والروم والحبشة لتوجيه مصائر الأمة
العربية .

فقد حاول شمر يهرعش الثالث أن يحقق الوحدة السياسية لجنوب شبه
الجزيرة وأن يزيد من إمكاناته ويوسع من حدوده واتصالاته . فاستولت
جيوشه على أجزاء متسعة من دولة حضرموت وتوابعها وإن لم يقض تماماً عليها
وبقيت تجاهد في سبيل البقاء لفترة قصيرة . وتغللت جيوشه على أقاليم من
تهامة واتسعت في وسط شبه الجزيرة وشمالاً في أرض سبلة وعك . وربما
غزت سواحل الحبشة أو على الأقل فسقت على مصالح الأحباش في تجارة

البحر الأحمر . وبلغت إتصالاته الدبلوماسية إلى قطوسف و كوك ويحتل
« حودهما قرب المدائن بين العراف وفارس .

وفي نفس العهد الذي حقق فيه عرب الجنوب نهضةهم على يدي شمر
يرعش الثالث ، كان لعرب الشمال نهضة أخرى لا تقل قيمة عنها على
يبي امرئ القيس بن عمرو التنوخي المتوفى عام ٣٢٨ م ، وسوف تناول
تفاصيل نص امرئ القيس المشهور هذا فيما بعد . وتكفي الإشارة هنا إلى
ما ذكره من أنه أحرز نجاحاً في حصار نجران مدينة شمر (يهرعش) ،
أي الخاضعة له . وأنه شنت قبائل مذحج . وكان شمر يهرعش قد احتضن
قبائل مذحج هذه ، ومنها كندة ، واستعان بها في مهاجمة مناطق التنوخين
قوم منافسه امرئ القيس أو أنصاره على الخليج العربي ، كما وجه نشاطه
من صعدة إلى أرض مالك بن كعب ملك أزد السراة .

وشجعت هذه الانتصارات المتوالية شمر يهرعش الثالث على أن يزيد
في ألقاب ملكيته ألقاباً أخرى ، فاتخذ لقب « ملك سبأ وذوريدان
وحضرموت ويمنة » حول أواخر القرن الثالث الميلادي ، وكانت
يمنة (أو يمانية) فيما يحتمل وأشرنا من قبل هي الجزء الجنوبي من دولة
حضرموت . وكان الرجل مصلحاً إلى جانب كونه محارباً . فبقي من أيامه
نص ينظم بيع الرقيق والماشية . ويحدد المدة التي يكون البائع مسئولاً فيها
عن الحيوان الذي باعه إذا هلك بسبعة أيام . ويبدو أن هذا النص كان جزءاً
من تشريع متكامل صدر في أيامه .

ومرة أخرى ارتبطت هذه النهضة الحميرية الكبيرة بشخصية شمر يهرعش
الثالث (ومن قبله بشخصية أبيه) قبل أي شيء آخر . بحيث أن بعض أقاليم
دولته في حضرموت وفي تهامة . حاولت الانسلاخ عنها في أواخر أيامه أي
عندما شاخ عهده . وربما ردها إلى طاعته ولكن إلى حين .

وتجددت المشكلات في عهود خلفائه الأقربين ولم ينجحوا في غير

إخضاع حضرموت التي استنفذت قواها ، أما الأطراف الغربية لدولتهم
فاكتنفت الغموض مصيرها .

فقد ورد في ألقاب ملك الحبشة « عيزانا » الذي يرى بعض الباحثين
أنه عاصر خلفاء ثمر يهرعش المباشرين منذ حوالي عام ٣٢٥م — أنه « ملك
أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسبأ وسامين وصيامو وبجة وكاسوملاك الملوك .
ويبدو أن سيطرته على حمير وسبأ اللتين أوردتهما لقبه بعد عاصمته أكسوم .
كانت سيطرة مفتعلة أراد أن يعهد بذكرها لمرحلة مقبلة بعد أن أصبحت
دولة سبأ ودوريدان في نظره لقمة سائغة طحنتها مشكلاتها الداخلية .
ولا يستغرب مثل هذا الأمل المفتعل إذا ما قورن بما حدث بعد كثير من
القرون حين أمر الامبراطور بابليون بسك نوط تذكاري باسمه تمجيذا
لفتحه الجزر البريطانية . وهو أمر لم يتم وبقي النوط تذكارا لأمل لم يتحقق .

ولم يقتصر هدف « عيزانا » من هذا اللقب على مجرد الأمل في السيطرة
على بلاد الجنوب العربي وما يصل إليها من متاجر ، بل كانت وراءه
ملاسات أخرى ، فقد سمح الامبراطور البيزنطي قسطنطين الأكبر بانتشار
المسيحية في دولته ابتداء من عام ٣١١م ، ثم أصبحت ديناً رسمياً للامبراطورية
في عام ٣١٥م . واتجهت بعثات بزنطية في عهده إلى الحبشة وما يخاورها للتبشير
بالمسيحية واتخاذ الدين مدخلاً إلى عقد المحالفات السياسية والاتفاقيات
الاقتصادية . ونجحت هذه البعثات من ناحيتها الدينية في إطلاق حرية العبادة
للمسيحيين من التجار الأغراب ومن تنصروا من رجال البلاط وأهل البلاد
التي دخلتها المسيحية . ويبدو أن عيزانا ملك الحبشة قد سابرها على الرعم
من أن اليهودية كانت قد سبقت المسيحية إلى بلاده منذ قرون واكثها ظلت
محصورة في نطاقها الضيق وسط الديانة الوضعية الشائعة . ولعله في مشايخته
للمسيحية وفي لقبه الذي ادعى فيه سيطرته على سبأ وحمير كان يعمل على أن
تكون له الصدارة في تمثيل البلاد الواقعة على جانبي السواحل الجنوبية للبحر
الأحمر أمام حليفته الدولة البيزنطية القوية حامية المسيحية في الشرق وورثته
الرومان في السيطرة على سياسته وتجارتها .

على أن الجدير بالذكر هو أنه إذا كان ملك الحبشة هذا أو خلفاؤه قد ودوا. أن تكون لهم اليد العليا على المناطق العربية الجنوبية . فقد أسلفنا من قبل أن هجرات عربية جنوبية قديمة كانت قد أثبتت وجودها وتأثيراتها في الحبشة ، عن طريق استخدام اللغة العربية الجنوبية في نصوصها إلى جانب اللغة الأفرينية . أو مختلطة بها ، وكتابة هذه النصوص بحروف المسند العربية . وعن طريق النشاط الاقتصادي الذي جعل لطوائفهم التي عرفت باسم « الجعزيين » أي الأحرار منزلة مرموقة ومكانة سياسية كبيرة في الحبشة ، مع امتداد نفوذهم على أجزاء منفردة من الساحل الأفريقي .

وعلى أية حال فما لبثت دولة أكسوم أن اضطربت أحوالها في أرضها الأفريقية فانشعلت بنفسيها .

وبقيت ملكية ، سبأ و ذوريدان وحضرموت و يمنة ، العربية قائمة بتجاهد في سبيل الاستمرار . ومن أعمال ملوكها إصلاح سد مأرب ثلاث مرات . وفي أولها أصلح الجزء الأوسط منه عند تهده لليرة الثانية المعروفة بعد عام ٣٦٠ م .

وتبرز من ملوك العصر « أب كرب أسعد » الذي مارس الحكم نحو ستين عاما منذ أن اشترك مع أبيه طفلا . وعندما استقل بالحكم اشرك معه ولده حسان - بهم في حوالي عام ٤٠٠ م . وأثرت له جهود لتوطيد الأمن في دولته والسيطرة على طرق القوافل المتجهة إلى الشمال . فكانت له حروب في منطقة معد . ولعلها امتدت أيضاً في نواحي الحجاز من ناحية ، وحتى الربع الخالي في أواسط شبه الجزيرة من ناحية أخرى . وكانت قبيلة كندة من أعوانه . وشجعه نجاحه على أن يزيد في ألقابه الملكية عبارة أك . فيها سلطانه على بدو المرتفعات والبراري ، فأصبح « ملك سبأ ودوريدان وحضرموت و يمنة وأعرب مطروم و تهنت » أي وأعرب الجبل و تهامة (أو النجد والسهل) ولأنساع أعماله العامة نسبياً أشاد الانخباريون بذكراه وذكره باسم أسعد تبع ونسبوا إليه فتوحات واسعة كما أشادوا بقصوره أو شربند فيها بين ظفار و بين صنعاء .

وأصلح سد مأرب ثانية في عام ٤٤٩م في عهد الملك شرحبيل يعفور ، وزيدت قنواته ودعمت جسوره ، ولكن أنهار جانب من سد رحب ثانية بعد عملية إصلاحه بعام واحد وأدى ذلك إلى هلع السكان وفرارهم إلى الجبال خوفاً من طغيان السيول ، فأصلح مرة أخرى في عام ٤٥١م وقيل إنه اشترك في إصلاحه نحو ٢٠ ألف رجل .

وارتبطت أهم أحداث العصر في الجنوب العربي الذي سوف نعبر عنه فيما يلي باسم اليمن وهو الاسم الشائع في المصادر العربية ، بالتطورات الدينية وما ترتب عليها من نتائج حضارية وسياسية :

فقد سلكت اليهودية سبيلها إلى اليمن في عهود غير معروفة ود بعض الكتاب (ومن اليهود بخاصة) أن يرجعوا بها إلى زمن بعيد فربطوا بينها وبين عهد تخريب الرومان لبيت المقدس في عهد فسباسيانوس وتيتوس في عام ٧٠ م ، وتشتيهم لمن بقى فيها من اليهود الذين هرب بعضهم إلى الصحراء وانزروا في جاليات صغيرة على الطريق التجارى المتجه إلى الجنوب حتى اليمن . والواقع أنه ليس من سند لإرجاع هجراتهم إلى بلاد العرب إلى مثل هذا الزمن البعيد الذى رددته بعض الكتب التاريخية دون تمحيص حيث لم يظهر لعقيدتهم أثر في النقوش العربية الجنوبية أو الشمالية إلا منذ القرن الرابع أو الخامس الميلاديين . وليس من المستبعد أن بعضهم تسلل إلى اليمن عن طريق فارس التى احتضنتهم نكاية في البيزنطيين المسيحيين الذين كانوا يكرهونهم . ولأمر ما ربط بعض الأخباريين (ومن ذوى الأصل العبرى أيضاً) بين الملك أب كرب أسعد وبين يهود يثرب ، مرة بدخولهم إليها في عهده ، ومرة برحلته إليها وهدده ، ومرة بامتداد نفوذه إليها وتعيين أحد أولاده عليها حيث قتل بعد رحيله عنها . . . إلخ .

وسلكت المسيحية سبيلها إلى اليمن عن أكثر من طريق ، فسلكته أولاً عن طريق البعثات التبشيرية . ويبدو أن الدولة البيزنطية حينما وجدت الحبشة تآكلها الداخلية عوا آلامها من نشر المسيحية هناك فتبعها من أممها

المبشرين الأوائل ثيوفيلوس الهندي في منتصف القرن الرابع الميلادي .
ويروى التاريخ الكنسي أنه نجح في تنصير الملك الحميري المعاصر له . ولم يكن
تنصير الملك ، إن صح ، هو بيت القصيد . وإنما يبدو أن بيزنطة أرادت
أن تضمن لها أنصارا باسم الدين للوقوف في وجه انطلاق نفوذ الفرس المحتمل
في شبه الجزيرة العربية وما يتصل بها عبر الخليج العربي وعمان . وهكذا انجذبت
البعثات التبشيرية البيزنطية إلى جزيرة سوقطري وميناء هرمز أيضا .

وسلكت المسيحية طريقها إلى الجنوب العربي كذلك عن طريق تجار
الشام المسيحيين الذين تعاملوا مع أهله ، وربما سلكته كذلك عن طريق
تجار الحبشة المسيحيين . وبعض أهل الحيرة أيضا على الرغم من اختلاف
مذهبهم المسيحي عن المذهب الذي أخذ به نصارى التين .

على أنه مهما كان من أمر المسيحية واليهودية في التين . فقد ظل أتباعهما
قلة قليلة . وظلت غالبية أهل الجنوب العربي على عقائدهم الوضعية القديمة
وان حاولوا أن يوسعوا آفاقهم الدينية من تلقاء أنفسهم تارة ونتيجة لانتصاليهم
بأصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية تارة أخرى . وهكذا ورد في نص الملك
شرحبيل يعذور عن إصلاح سد مأرب عبارة تقول ما يمكن ترجمته إلى « بنصر
وعون الإله سيد السماء والأرض » وذلك مما يعني تقديس معبود أكبر يشمل
سلطانه السماء والأرض ولا يقتصر سلطانه على إقليم بعينه أو مطهر معين .
ووردت في نص عبد كلال عبارة تقول « بردا رحمن » أي بعون الرحمن .
مما يعني الإيمان برحمة الرب الدائمة وفضله الواسع . وروى أحد مؤرخي
التاريخ الكنسي أنه كان بين الحميريين ابراهيميون عارضوا ثيوفيلوس
المبشر المسيحي . غير أن أمثال هذه الفئات القليلة لم تقض على عقائد التعدد
القديمة فظلت هي الغالبة

وتنافست الديانات الثلاث . وكان الأكثر تنافسا أنصار الديانتين
الجديديتين أي اليهودية والنصرانية . وفي خلال هذا التنافس اشتد أحد
الملوك الحميريين الأواخر وهو يوسف أسار يثار الملقب « ذو نواس »
في معاملة التجار المسيحيين والأشاعرة حلفاء الأحباش لسبب مايرده البعض

إلى تهوده . ويرده البعض إلى صداقته لليهود وتأثره بتحريضهم ، ويرده البعض الآخر إلى ربطه بين انتشار المسيحيين في بلده وبين احتمال انتشار النفوذ الحبشي المسيحي عن طريقهم لآسيا وأن منهم من كانوا على صلة ببلاط الحبشة فعلا . وترقب على هذه الشدة أن قل تعامل التجار البيزنطيين مع الموانئ العربية والموانئ الأفريقية القريبة منها . واستنصر المسيحيون بعضهم بعضا . وناشدوا امبراطور بيزنطة أن يتدخل لمعاونتهم . ولكن الشقة بين بيزنطة وبين اليمن كانت بعيدة ، فوقع عبء معاونتهم على ملك الحبشة « كاليب آل أصبحا » حليف البيزنطيين . ووجدت دعوة الاستنصار هذه هوى في نفسه لتحقيق أمل أسلافه ولزيادة نفوذه السياسى والتجارى ، لآسيا وأن بلاده قد تأثرت إلى حد ما من اضطراب أمور التجارة البيزنطية في جنوب البحر الأحمر .

وقيل إن كاليب كان على رأس الحملة على اليمن أو أشرف على الأقل على إعدادها في ميناء عدوى الذى أبحرت منه عبر باب المندب في فترة ما تقع بين ٥٢٠م و ٥٢٣م . ونجحت الحملة في غرضها . وفر ذو نواس إلى منطقة جبلية ببعض أعوانه . وأعلن الملك الحبشى سيادته على ظفار وعين عليها واليا حبشيا . وعندما توفى هذا الوالى استغل ذو نواس فرصته فأعاد تجميع أنصاره واستعاد ظفار وانتقم ممن فيها من الأحباش وأجلى بقيتهم عن بلاده ثم رد الصاع صاعين . فترك اليهود يفتكون بمن شاءوا من منافسيهم المسيحيين . ووجه انتقامه إلى نجران أكبر مراكز تجمع المسيحيين فراسل زعيمها (الحارث ؟) ليتصل به . ولكن الرجل تخوف غدره فتحصن بمدينته . وشد ذو نواس حصار نجران وقيل إنه وعد أهلها الأمان إن استسلموا له . فلما طال المطال عليهم فتحوا له أبواب مدينتهم فكان انتقامه هو وأعوانه منهم على نحو ما ذكر القرآن الكريم في سورة البروج (٤-٩) إذ يقول : (قتل أصحاب الأنحدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض . والله على كل شئ شهيد) .

وأراد ذونواس أن يتخذ له سنداً لو تأزمت الأمور ضده فكتب إلى ملك الحيرة المنذر الثالث يود أن يحالفه أو يجعل له سبيلاً إلى محالفة الفرس . ونصادف أن كان في مجلس المنذر وقتئذ وفد من قساوسة الروم فأشاعوا أن ذا نواس دعا المنذر في رسالته إلى أن يفتك بمسيحي الحيرة كما فتك هو بمسيحي بجران .

وثار ت نائرة العالم المسيحي ، وأراد الملك الحبشي أن ينتقم لما أصاب رجاله فعاود الحملة على اليمن بجيش كثير . وانتصر جيشه بعد جهد جهيد . وقتل ذو نواس أو فر وغرق كما روت بعض المصادر العربية .

وتحسب الاحتلال الحبشي الأخير لليمن في عام ٥٢٥م ما يصحب كل احتلال أجنبي من ضروب القتل والتدمير والنهب والأسر التي أفاضت المصادر الإسلامية في تصوير بشاعتها . ويبدو أن مقاومة الحبيريين للغزاة قد استمرت لبعض الوقت . إذ يذكر حمزة الأصفهاني (في تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) أنه أعقب ذا نواس ولده ذو جدن ولكنه لقي نفس مصيره . ولعله من جراء هذه المقاومة أن عمل نجاشي الحبشة على أن يوطد احتلاله لبلاد اليمن بما يخدر أهلها فعين على حكمهم تحت طاعته رجلاً من سادتهم يدعى « سميغ أشوع » كان من كبار أعوان ذي نواس ، وبعد مقتله تحصن هو بأولاده في حصنه وجمع حوله بعض خلفائه ، ثم تبين عقم المقاومة أو استجاب لدعوة الأحباش فهادنهم وربما تنصر حينذاك واتخذ اسمه المسيحي الصبغة الذي سبق ذكره . وقد نسب إليه نص عربي تلقب فيه بلقب « ملك سبأ » وذكر إيمانه بالمسيح الذي أورد اسمه بصيغة لاتينية محرفة . مع إثبات تبعيته لنجاشي أكسوم .

وازدادت أعداد الكنائس الكبيرة في اليمن منذ ذلك الحين . وكانت كبراهها كنيسة في نجران سماها أتباعها كعبة نجران وكعبة اليمن وكان لها سرادق من آدم . وأخرى في ظفار أقام فيها كبار قساوسة اليمن ، وكنيسة ثالثة في عدن إلخ .

والتفتت الدولتان الكبيرتان دولة الروم ودولة الفرس إلى هذا المجال لصالحهما، وكانت كل منهما قد فرغت من مشكلاتها التي شغلتها في أغلب القرن الخامس الميلادي حين تدفقت هجرات الهون على أملاك فارس ، وتدفقت هجرات الجرمان على أملاك بيزنطة .

وبدأ الامبراطور البيزنطي بمحاولة استغلال رؤساء مسيحي الحبشة واليمن . وقيل إنه طلب من نجاشي الحبشة ومن والي اليمن أن يجعلوا قضية المسيحيين قضية واحدة وأن يتعاونوا مع دولته في التضييق على الفرس . وأوصى الحاكم اليمني على شيخ عربي قصد بلاطه يدعى قيس (أويلي زعامة قبيلة قيس) وأن يجعله رئيسا على قبائل معد وأن يتعاون معه على مهاجمة مصالح الفرس . ولكن يبدو أن أحدا من هؤلاء لم يستجب له .

وسواء مات الوالي سميغع ميتة طبيعية أم قتل : فقد عمل الأحباش على أن يحكموا بلاد اليمن بعده حكما مباشرا بعد أن رضخ أهلها لحكم الواقع . فعينوا عليها حاكما حبشيا لعله كان القائد الأعلى لجيش الاحتلال ، ولكن قائدا من أعوانه مالط حتى انقلب عليه واغتصب مكانه في ولاية اليمن ، وهو الوالي الذي ذكرته المصادر العربية باسم أبرهة (أو إل إبرهة) . وحاول النجاشي إقصاءه ففشل ، وعندما خلفه نجاشي آخر أرضاه أبرهة فأقره على ولاية ملك سبأ العريض تحت طاعته . وهنا انتحل أبرهة اللقب السبأي الضخم «ملك سبأ وذو ريدان وحضر موت وأعرابها في الجبل وتهامة » مع اعترافه بنيابته أو تبعيته لسيدته ملك الجعزيين « رمحس زيمان » . ويبدو أن رمحس أو رماحس هذه تعني الشجاع . كما كان زيمان لقباً من ألقاب الحكام في الحبشة .

واتخذ أبرهة صنعاء عاصمة . وشيدت فيها خلال عهده كنيسة ضخمة ذكرها الأخباريون باسم « القليس » تحريفاً عن كلمة Ecclesie بمعنى المجمع الكاسي . وشيدت كنيسة ضخمة أخرى في مأرب . وروب المصادر العربية أن نفائس المعابد القديمة ومجهورات اليمنيين قد سخرت من أجل إخراج هاتين الكنيستين في فخامة كبيرة .

ويبدو أن عرب الجنوب لم يسلدوا بحكم أبرهة بسهولة ، إذ تحدثت بعض

نصوصه عن انقلاب والى كندة يزيد بن كبشة ضده وتعاونه مع أبناء شميغع أشوع والى السابق وعدد من بقايا الأسر النبيلة القديمة وبعض قبائلهم ومنها قبيلة يزن التى انتسب إليها فيما بعد سيف بن ذى يزن . وهزم أبرهة بجيشه هؤلاء الأحلاف بعد جهد جهيد . ثم سنحت له فرصته لكى يظهر بمظهر الحاكم المصلح . فقد زاد تصدع سد مأرب بعد فترات الإهمال والاضطراب المتعاقبة . فعمل على إصلاحه فى عامى ٥٤٢ و ٥٤٣ م . وقد أسلفنا فى الفصل الرابع ذكر بعض الجهود الضخمة التى أنفقت فيه حينذاك ، وأنه حضر حفل إعادة افتتاحه مندوبون من دول الحبشة والروم والفرس والغساسنة والمندرة . مما يعنى أن أبرهة استطاع أن يوفر لنفسه شهرة كبيرة تعدت حدود اليمن . ولعل هذه الشهرة كانت من العوامل التى خدعته عن نفسه وحقيفة قوته ودفعته إلى غزو مكة ومحاولة هدم الكعبة . سواء باسم التعصب الدينى للمسيحية . أم لاستعادة السيطرة على الطريق التجارى الرئيسى الذى كانت مكة قد حققت لنفسها مكانة كبيرة فيه ، أم استجابة لدعوة الروم القديمة بإحكام الخناق على المصالح التجارية الفارسية عن طريق ربط الدولة المسيحية الجديدة فى اليمن بالدولة الغسانية المسيحية فى جنوب الشام وكتلتاهما من أولياء بيزنطة .

وقد أثبت القرآن الكريم فى سورة الفيل نتيجة هذه المحاولة الفاشلة . وكان من تفسير الزمخشري والطبري أنه ترتب على مارمته الطير الأبايل على جيوش أبرهة أن تفشى بينهم وباء لعله الجدرى الذى روى ابن هشام وابن سعد وابن منبه أنه عرف أول ما عرف بأرض العرب فى عام الفيل . وعوضا عما كان أبرهة يأمل فيه من إضعاف مكة ، أصبحت هزيمته فيها من عوامل ازدياد شهرتها . وربما عاد هو إلى بلده بقلّة قليلة بقيت من جنوده . وعندما هلك خلفه ولداه . ولد من أم حبشية كان قد ولاه من قبل على قبائل معافر ، وذكره الاخباريون باسم يكسوم ، وولد من أم عربية ذكروه باسم مسروق وكان أبوه قد ولاه من قبل أيضاً على قبائل شناتر . وكان كل منهما شرا من أخيه فضاق الناس بهما وتمنوا تحرير أرضهم من حكمهما .

وتزعم حركة تحرير اليمن سيف بن ذى يزن الذى خلدت الروايات والأساطير الشعبية ذكره . ولكنه لم يستطع بأعوانه أن يناهضوا الغزاة الأعراب أو المهجنين بدون عون خارجي ، ربما لأن هؤلاء الغزاة كانوا قد حرّموا المواطنين من السلاح أو أشاعوا الفرقة بينهم . ولعل ماروته الأساطير من اضطرار ذى يزن إلى الاستعانة بالسحر والجن . وابتلائه بآم انضمت إلى من اغتصب عرش أبيه ، وكثرة هلاقاته من مصاعب وعقبات في تنقله وترحاله — كل ذلك كان يرمز إلى المشكلات التي واجهها دعوته التحررية في مجتمعه وخارج بلده . وقد روت المصادر العربية أن سيفاً قصد بلاد الروم واستنجد بالامبراطور (جوستين الثاني) ولكنه لم يجد لديه استعداداً لمعاونته ضد دولة مسيحية حليفة . فتركه إلى ملك الحيرة العربي ليتوسط له لدى ملك الفرس أعداء الروم وأعداء المسيحية . واستجاب له بعد لأي عسى أن يجد سبيلاً عن طريقه إلى السيطرة على بلاد اليمن وحرمان بيزنطة من امتيازاتها السياسية والاقتصادية فيها . ولكنه لم يكن مطمئناً كثيراً إلى إمكان نجاح المحاولة حيث روت المصادر العربية أنه أعانه بفرق قليلة تألف أغلبها من الأفاقيين المجرمين تحت رئاسة قائد فارسي يدعى وهرز . وخرجت الحملة في ثمان سفن غرقت اثنتان منها ووصلت الست الباقية إلى عدن أو إلى ميناء قنأ في حضرموت وهناك ضم سين أنصاره إليهم وانتصر بهم على جيوش ابن أبرهة (ولعله المسمى مسروق) في حوالى عام ٥٧٥ م .

وكالعادة ، لم يكن العون العسكري الأجنبي بغير تمن يقابله ، فقد حكم سيف بن ذى يزن اليمن تحت طاعة الفرس . كما حكمها من قبل سمييع أشوع تحت طاعة الحبشة . وأضافت الروايات العربية أنه لقي مصرعه بعد ذلك على أيدي جماعة من الأحباش . سواء بدافع من كراهيتهم الشخصية له . أو بدافع من تحريض دولتهم . أو بدافع من تحريض الفرس أنفسهم . وقد كان عهد ولده معد يكرب الذى خلفه تحت طاعة الفرس . فيما يذكر المسعودي ، عهداً قصيراً . وحكم الفرس اليمن بعد ذلك حكماً مباشراً ، كما فعل الأحباش من قبل . بعد أن اطمأنوا إلى تسليم السكان بالأمر الواقع .

فولوا حاكماً فارسياً في ظفار ، وإن تركوا المخاليف في أيدي الأمراء الوطنيين .
وهنا توفر للفرس ما لم يكونوا يخامون به من السيطرة على مخارج التجارة
البرية والبحرية من بلاد اليمن وإليها عن طريق البحر الأحمر والمحيط العربي
(الهندي) ، وعلى الطرق البرية المؤدية إلى الخليج والعراق من ناحية وإلى
الشام ومصر من ناحية أخرى ، إلى جانب ما كانوا يسيطرون عليه من
تجارة الخليج العربي . وتتابع على حكم اليمن ثلاثة أو أربعة من ولاية الفرس
كان آخرهم باذان الذي أسلم في عهد الرسول عليه السلام ودخلت بلاد اليمن
بعده في الإسلام في عام ٦٢٨ م . وانتهى دور المناطق الجنوبية أو « العربية
السعيدة » Arabia Felix في عصور ما قبل الإسلام عند هذا الحد . بينما
كانت المناطق الشمالية في شبه الجزيرة تعاصرها في المسيرة ، وهو ما سوف
نتبعه في فصول تالية .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

Beeston, A.F.L., Qahtan, Studies in Old South Arabian Epigraphy, 1976.

Philby, op. cit., 87—121.

Pirenne, J., Recueil des inscriptions et antiquites sud-asrabes, 1977.

Ryckmans, G., in Museon, 1942; BSOAS, 1952.

Ryckmans, J., in Accademia Nazionale dei Lincei 62, Roma 1964, 434—439

Shahid, I., The Martyrs of Najran, 1971.

Wissmann, H.V., Zur Geschichte und Landeskunde von alt-Sudarabien,
1964.

Wissmann, H. V. und Hofner, M., Beitrage zur Historischen Geographie
des Vorislamischen Sudarabien, 1953.

نافقيه ، ويبيبتون ، وروبان ، والقول : مختارات من النقوش اليمنية القديمة - تونس ١٩٨٥ .

جنود على : المرجع السابق ، ج ٢ .

مطهر على الأرنأى : في تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٢ .

مجلة العرب ، السنة الخامسة - يناير ١٩٧١ - ص ٤٠١ - ٤٢٤ .

الفصل الحادى عشر

مناطق الأطراف العربية

أولا - فى المصادر المسماة

توزعت مناطق التجمع والتحضر القديمة فى الأجزاء الوسطى والشمالية من شبه الجزيرة العربية بشرقها وغربها . على نحو ما توزعت به فى الجنوب تحت تأثير عدد من العوامل الاقتصادية والجغرافية . وانتشر أغلبها حول الطرق التجارية الرئيسية الواصلة بين أجزاء شبه الجزيرة والمؤدية منها إلى البلاد المجاورة ، كما انتشر بعضها على مناطق الحواف بين أطراف الصحراء وبين حدود دول الهلال الخصيب القريبة منها . فضلا عن انتشارها الداخلى فى الواحات والنجوع والقرى حول العيون والآبار واليهيرات الصغيرة وفى مناطق الحرات

وانصرفت تسمية « عرب » التى تداولتها نصوص التاريخ القديم على العرب الشماليين أكثر منها على العرب الجنوبيين ، كما انصرفت للدلالة على أعراب البادية أكثر منها على أهل الحواضر . وذلك على الرغم مما تناقلته أغلب مؤلفات الأخباريين من تسمية أهل الجنوب باسم « العرب العاربة » وتسمية أهل الشمال باسم « العرب المستعربة »

(أ) فى العصر الأشورى :

اقسع المجال الغربى فى عصوره القديمة لما كان يتعدى شبه الجزيرة إلى قرب بوايدى الشام والعراق وسيناء أيضا . وبهذا المعنى الواسع ورد أقدم لفظ مكتوب مؤكد لتسمية « العرب » فى النصوص المسماة الأشورية خلال القرن التاسع قبل الميلاد على نحو ما سلف ذكره فى مقدمة هذا الكتاب . ولا يعنى وروده فى هذا القرن بداية ظهوره أو بداية ظهور العرب بحال من الأحوال . فهناك قرائن عدة تناولنا بعضها فى فصول سابقة ونتناول بعضها الآخر فى

مناسبات تالية ، تدل على قدم وجود العرب بخصائصهم وخصائص لغتهم منذ عهود سبقت بآمال طويلة. ومن الباحثين من يَحتمل ورود تعبير قريب من تعبير « العرب » في نص مسماري من عهد نارام سين الملك السامي الأكدي خلال القرن الثالث والعشرين ق . م . وإن كانت قراءته لا تزال موضعاً للجدل .

وكان التوسع الآشوري قد امتد في القرن التاسع ق . م . إلى بوادي الشام وضغط على مافي جنوبها من مناطق التجمعات العربية . وحاولت دويلات المنطقة أن تقف في وجه تقدمه بتكوين حلف كبير بزعامة إمارة دمشق وما حولها . وهنا ذكرت نصوص شاما نصر الثالث الملك الآشوري في عام ٨٥٣ ق . م . أنه انضم إلى هذا الحلف فيمن انضموا إليه ألف راكب حمل من (رجال) جنديو أريبي (أو الأريبي) . ويعتبر لفظ جنديو تحريفاً لاسم جندب (أو جندبة) . كما يعتبر لفظ أريبي تحريفاً لصفة « العربي » . وقد لقب جنديو هذا بلقب الملك . ويبدو أنه كان يعيش بقبيلته العربية أو يتردد بها على البادية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق . وإذا صح أنه اشترك في الحرب ضد الآشوريين بألف راكب حمل فعلا لدل ذلك على سعة نفوذه وكثرة رجاله قياساً على إمكانات عصره .

وتعددت إشارات النصوص الآشورية بعد ذلك إلى الجماعات العربية القريبة من دولتها والواقعة على طرق التجارة الواصلة إليها . ورددت القول بانتصارات ملوكها العراقيين (وجيوشهم) على هذه الجماعات وتلقى الجزى منها . وهي أخبار تختمل الصدق كما تختمل الشك . فيحتمل صدق بعضها على أساس عدم تعادل كفتي الفريقين من حيث العدد والعدة ومن حيث وفرة الموارد . ولكن يتعين الشك في بعضها الآخر على أساس أنها أخبار تواترت من جانب واحد وهو الجانب الآشوري الذي سجل انتصارات أصحابه دون هزائمهم . وجلي أنه لو كان خصومه من العرب الشماليين قد استخدموا الكتابة حينذاك وسجلوا بها أخبارهم . لأمكن مقارنة أخبار الجانبين ببعضهما البعض والخروج منهما بما هو أقرب إلى الصحة . وعلى أية

حال فإن مذكورته النصوص الآشورية نفسها عن تعدد حروب الجانبين يدل ضمناً على استمرار مقاومة القبائل العربية التي اعتمدت على مهارتها في الكر والفر وقاتل الصحراء . ووعودة مناطقها ، وعملها على مضايقة خصومها عن طريق تهديد قوافل تجارتهم . واستطاعت على الرغم من قلة النسبية أن تسجل صفحات مجيدة في الدفاع عن أرضها واستقلالها .

ذكرت النصوص المسبارية الآشورية أسماء ممالك وقبائل عدة مثل سبأ وقيدري وتيماء ومصوري وتمودي ونخايا بابا ومساء . . . إلخ . وكان أهم ما تضمنته فيما نكتفى به مؤقتاً وفيما يفيد التاريخ العربي العام هو أنها ذكرت أسماء خمس ممالك عربية على أقل تقدير حكمن في جهة ما من شمال شبه الجزيرة العربية فيما بين أواسط القرن الثامن ق م ، وبين أواسط القرن السابع ق م ولم تحدد مكان دولتين صراحة . ولكنها ذكرت خلال الحديث عنهن أحياناً اسم « أداوماتو » وذلك مما دفع إلى احتمال حكمهن في دومة الجندل أو بقرها في منطقة الجوف الشمالي ، كما نسبت إلى إحداهن كهانة معبودتها الكبرى دلبات ، وذلك مما قد يعنى بدورة أن حكمهن اعتمد على تقاليد دينية جعلت رئاسة الكهنوت لكبريات نساء الأسرة المالكة وسمحت لهن بوراثة الحكم واحدة بعد أخرى أو بنتاً بعد أمها .

وهكذا أشارت النصوص المسبارية في القرن الثامن ق م . إلى ملكتين عربيتين أطلقت على كل منهما لقب ملكة أريبي . وذكرت أقدمهما باسم « زيببي » (تحريفاً عن زيبية) وأضافت أنها اعترفت بالطاعة لدولة آشور وأدت الجزية إلى ملكها . وذكرت الثانية باسم « سمسى » (تحريفاً عن شمس) في مناسبتين : مناسبة أدت الجزية فيها إلى الملك الآشوري كسابقتها ، ومناسبة أخرى خلعت فيها هذه الطاعة وساعدت البدو الآراميين أعداء الآشوريين . وترك رجالها يهددون القوافل الآشورية ، فحاربتها القوات الآشورية وخربت بلدين في أرضها وأجبرتها على الطاعة ، ثم عين الملك الآشوري مندوباً له في عاصمتها يتلقب بلقب « قيبو » أى قيم كى بشرف على سياستها ويكتب إليه عن أمرها .

ولم يكتب الآشوريون بأن يسجلوا نصرهم على قوم شمس كتابة فقط ،

ولمّا أسرفوا في تصويره بما أشيع كبرياءهم ، وبقي منه ما يصور فارسين آشوريين على جوادين يلاحقان برمحيهما محارباً عربياً بحرى مسرعاً بهيئته ويلتفت إليهما في ضراعة بعد أن أصيب بهيئته بسهم في جنبه كاد يرديه . وصوروا عدداً من قتلى جيش الملكة وقتلى حلفائها ممدّين على الرى تحت سنايك الجوادين . وزادوا فصوروا امرأة بثوب كاس تسير باكية تلطم وجهها بكفها أو تستر وجهها بكفها وتمسك باليد الأخرى جرة كبيرة ويعقبها عدد من نياقها . وليس من المستبعد أنهم أرادوا أن يرمزوا بها إلى الملكة شمس نفسها وإلى عجزها واستسلامها وعودتها إلى رعاية الإبل .

وأشارت النصوص الآشورية في القرن السابع ق . م . إلى ملكتين عربيتين أخرتين : يتيئة وتلخونو ، تحريفاً فيما يبدو عن اسمى يطيعة وتاهونة . وذكرت عن يطيعة أنها ناصبت الآشوريين العداوة وربما تحالفت مع كبير الأراميين في العراق مردوك أبا ليدينا الثانى ضد الملك الآشورى . وأسندت قيادة جيشها إلى أخيها بسقانو (تحريفاً فيما يبدو عن الباشق) . ولكن الجيوش الآشورية هزمت جيشها وأسرت أخاها .

وسلكت الملكة تلهونة (أو تلخونو) مسلكها الخاص في سبيل الدفاع عن أرضها ومصالحها ، فتحالفت مع من ذكرته النصوص الآشورية باسم خزا إيلي (أو حزائيل) ملك قبائل قidar المهاجرة لأرضها في منطقة الجوف . وعهدت إليه بقيادة جيشهما المشترك ضد الآشوريين ، ولكن حلفهما فشل في أداء مهمته ، على الأقل في حدود مآروته المصادر الآشورية ، وفرت الملكة إلى « أداوماتو » (دومة) ، فلاحقت بها القوات الآشورية على الرغم من وعورة الطريق وضيق الحصار عليها حتى أسرتها (هى أو الملكة أبكالاتو) كما أسرت ابنتها تبوة ، واستولت على تماثيل معبوداتها . ويبدو أنه فت في عهد الملكة أنه نشب خلاف بينها وبين حليفها حزائيل عقب هزيمتها الأولى أو خلال حصار أداوماتو ، فخرج إلى قلب البادية ونجا بنفسه مؤقتاً وعز على الجند الآشوريين أن يتعقبوه وإن كانوا قد دمروا بلده ، واستولوا على تماثيل بعض معبوداته .

ولعله كان من جراء طول المقاومة والرغبة في إعادة السلام إلى الطرق التجارية أن اتبع البلاط الآشوري سياسة المهادنة . فتعهد الأميرة العربية الصغيرة نبوّة بالتربية والرعاية رغبة في أن تشب وفيه مخلصه للملكية الآشورية وعندما بلغت سنا مناسبة اعترف بها ملكة على قومها .

وربطت النصوص الآشورية بين ملكة عربية أخرى وبين إيا إيلو بن حزائيل ملك قيدار كحليفة له ضمن ملوك صغار آخرين . وذكرت هذه الملكة باسم بائيلو ملكة أنخيلو . واعتبر اللغوي إدوارد جلازر اسم بائيلو تحريفا عن الاسم العربي باهلة . كما قرب اسم أنخيلو إلى اسم ديار أخلة أو أجلة في منطقة النخروج في نجد . وبرر رأيه بما روته المصادر المتأخرة عن سكنى قبيلة باهلة (التي يشبه اسمها اسم الملكة القديمة) في هذه الديار . ولكن لازل رأيه هذا في مرحلة الفروض .

(ب) في العصر البابلي الأخير :

عندما ورثت الدولة البابلية الكلدانية مناطق النفوذ الآشوري في الشرق الأدنى كان من الطبيعي أن تتجدد العلاقات الاقتصادية السلمية أو المناوشات الحربية بينها وبين لإمارات العربية التي تحف بهذه المناطق ، لولا أن النصوص البابلية لم تسجل شيئا كثيرا عن هذه العلاقات حربا كانت أم سلمة ، إلى جانب الحقيقة الأخرى المتوقعة وهي أن العرب بدورهم لم يعثر لهم على نصوص تتحدث عن أحوالهم معها .

وظل الحال على هذا الغموض حتى اشتد التنافس بين دولة بابل وبين دولة الفرس . ومالت أحوال بابل إلى التدهور ، فحاول آخر ملوكها نابونيد أن يجرب صفه مع المناطق العربية على إسترجع بها بعض مجده الذاهب فغزا جنوب الشام حتى إدوم وغزة ، ثم أناب عنه على عرش بابل ولى عهده ، ولأمر ما اتجه إلى واحة تيماء ، ربما ليحيي أهميتها الاقتصادية على الطريق التجاري الرئيسي بين شمال غرب شبه الجزيرة العربية وبين العراق من ناحية وبين البحر المتوسط من ناحية أخرى . ثم ينتفع بمواردها ، أو على أمل أن يستعين بها وبوسطها البدوي على تطعيم جيشه بقوات فتية يستعد بها

لمعركة قريبة بينه وبين الفرس . أو على أسوأ تقدير ليهيء بها ملجأ يبعده عن طائلة الفرس حين الضرورة .

وعلى الرغم من هذه الأغراض الملحة لم يكن نابونيهيد موفقا في سياسته . فاشتد على تيماء التي أراد أن يتخذها قاعدة حديده لحكمه وفتك برؤسائها وأنضج سكانها وقتل ملكها . ثم أعاد تسويرها وأقام بها بضعة سنوات في قصر جديد محصن على مثال قصره البابلي . ومد نفوذه منها جنوبا على ساحل الحجاز وربما وصل حتى يثرب . وأخيرا أدرك عقم محاولته فعاد إلى بابل حيث لم يلبث حتى خسر دولته كلها أمام الفرس في عام ٥٣٨ ق . م . ولا زالت أغلب آثار هذا العصر البابلي في تيماء مطمورة تحت أنقاض العصور التي تلتها .

(ج) في العصر الفارسي :

أدى مشروع نابونيهيد الفاشل في تيماء إلى عكس ما أرادته منها . إذ كان من نتيجته أن وجه أطماع الفرس إليها وإلى ما حولها من المناطق العربية بعد أن مدوا نفوذهم على الهلال الخصيب كله . وأحس أمراء بادية فلسطين وما في جنوبها بمنفوان الفرس وشدهم فأثروا السلامة معهم بحيث روى المؤرخ هيرودوت أن فمبيز ملك الفرس وهو في طريقه إلى فتح مصر في عام ٥٢٥ ق . م حالف ملكا من ملوك البادية كان يعبد هو وقومه اللات قرب خليج العقبة . أو بمعنى آخر أجبره . على أن يزوده بالإنبل والماء ويرشد جيشه إلى مسالك الصحراء المؤدية إلى مصر . فعالج البدوي مشكلة الماء بملء بطون . الجمال إلى حين الحاجة إليه . ونحل على إعداد ما يشبه الخراطيم الطويلة من جلود الماشية تتجرى بالماء من نهر في بلده إلى ثلاث قنوات تصب في ثلاثة سهاريج ضخمة بالصحراء .

وأيا ما كان في رواية هيرودوت هذه من الصحة أو من الخيال . فقد رددت نصوص الملك الفارسي دارا أن قبائل أربايا . أي القبائل العربية التي انتشرت في بادية جنوب الشام وعلى أطرافها كانت تؤدي إلى دولته كميات هائلة من البخور والطيوب وما إليها على هيئة الجزى والهدايا . وكان هذا

أمرا طبيعيا في عصر أصبح الفرس فيه أقوى دولة في الشرق الأوسط من غير منازع بعد أن شاخت بقية دوله الأخرى وتهاوت إلى حين .

وامتد النفوذ الفارسي إلى واحة تيماء نظرا لما لها من أهمية تجارية . ويبدو أنه كان نفوذا غير مباشر لم يحس أهل الواحة بشدة وطأته . بحيث أن أغلب ما وجد بها من الآثار يرجع إلى أيامه وماتلاه . وتقع أطلال تيماء القديمة هذه في جنوب الواحة الحالية . وكان يحيط بها سور يتراوح سمكه بين ٧٥ : ١ وبين ٣٢ من الأمتار ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار . أما امتداده فقد قدره دوتن بنحو ثلاثة أميال . بينما قدره سافينياك وجوسن بثلاثة كيلو مترات فقط . مما يعني أن المنطقة لا تزال تتطلب دراسة واسعة للكشف عن حقائق ماضيها . لاسيما وأنه كشفت فيها بالفعل وعن طريق المصادفات ثم البحوث المحدودة بقايا قليلة من معابدها ومقابرها ونصبها الدينية . وهذه يحمل أقدمها تأثيرات عراقية ومصرية وفارسية ، ويحمل أحدثها تأثيرات نبطية ورومانية نظرا لكثرة اتصالاتها الخارجية القديمة وبحكم موقعها التجاري المتوسط . وذلك إلى جانب الخصائص المحلية التي ظهرت في أسماء معبوداتها القديمة .

(د) الأطراف الشرقية :

توافر الأطراف الشرقية من شبه الجزيرة العربية نصيب قليل مما أتت به المصادر المسماوية ولكنه على قلته لا يعدم ما يؤيده من الكشوف الأثرية الحديثة التي سنتناول نتائجها في صفحات تالية . وعرفت أهم هذه الأطراف في النصوص المسماوية بأسماء دلمون وماجان وملونخا . ولأمر ما اعتبرت الأساطير السومرية دلمون جنة استقرار السومريون زمنها قبل أن يدخلوا أرض العراق . وذهب الترجيح إلى أنها أي دلمون . تمثلت في جزيرة البحرين . ثم تواتر ذكرها تاريخيا وشمل اسمها فيما يعتقد بعض الباحثين المحدثين جزءا من ساحل الأحساء المواجه لها . وذكرت نصوص الملك سرجون الأكدي في القرن الرابع والعشرين ق . م . أن إشراف دولته امتد على دلمون وماجان وملونخا

وأن سفنها سارت على مياه أكد ، وذلك مما دعا إلى اعتبار هذه الأقطار الثلاثة أقطارا بحرية وساحلية ذات خبرة بالملاحة وصناعة السفن ، ويعمل أهلها بالنقل البحري والتجارة البحرية . ولهذا سارت سفنهم في مياه الفرات طاعة لدولة أكد . وهكذا يتجه بعض الرأي إلى اعتبار ماجان تشغل ماتشغله عمان الحالية . وأضافت نصوص مسمارية أخرى أنه كان يستورد منها للعراق الخشب والنحاس والأحجار الصلبة . أما ملوخا التي ذكرت النصوص المسمارية أنه كان يستورد منها الذهب والخشب الثمين ، فلم يتيسر تحديد موضعها الفعلي حتى الآن . وإن لم يستبعد أنها وقعت بين المنطقتين الأخريين دلمون وماجان أو البحرين وعمان . وذهبت آراء أخرى إلى المضي باتساع المناطق السابقة أو بعضها حتى وادي السند .

وتعاقبت نصوص مسمارية أخرى بابلية وأشورية بعد عهد سرجون تكرر المعنى الذي أراده بامتداد النفوذ العراقي على هذه الأجزاء الشرقية . ولكن يبدو أنه كان نفوذا تجاريا فقط . قام على أساس استيراد المواد الأولية التي ذكرناها وبعض منتجات بخور منطقة ظفار . وما يتجمع من منتجات الهند وجزر المحيط الهندي على سواحل الخليج العربي لتصرفه في أسواق العراق .

ورادت النصوص الآشورية فأشارت في القرن الثامن ق . م . إلى أربى مطلع الشمس وعنت بهم أعراب الشروفي قرب الخليج العربي .

وأخذت بعض الجاليات الفينيقية تتوافد على هذه المناطق الاحتمالية خلال العصر الفارسي . ومارست نشاطها التجاري فيها وفي البحار القريبة منها . ونقلت إليها بعض عناصر حضارتها . ثم ازدادت أعداد التجار الفينيقيين وتأثيراتهم واختلاطهم بالسكان المحليين في العصر الهيلينستي وهو ما يخرج عن دائرة المصادر المسمارية . وقد شهدت به تسمية جبيل لإحدى مدن المنطقة الشرفية .

ثانياً - من نتائج الكشف الأثرية الحديثة :

ارتبطت أغلب الاكتشافات الأثرية في سواحل الخليج العربي وجزره مؤخراً بجهود بعثة دائمة لآثار ما قبل التاريخ ، وماتبعها من بعثات أخرى .
(أ) في البحرين : استهلت هذه البعثة عملها في عام ١٩٥٣ في مناطق الظران

وأدوات ما قبل التاريخ الحجرية على جبل الدخان والمنطقة الصحراوية في البحرين . وامتدت منها إلى غيرها من مواطن الدهور الحجرية بها . ثم اتسعت مجالات بحثها فالتفتت إلى رجم المقابر التي بلغ من كثرتها أن بدت في هيئة الغرود الطبيعية في الصحراء . وقد قدر عددها بنحو مائة ألف وتنوعت بين كبيرة وصغيرة ، ومخروطية ومستطيلة . وتفاوت متوسط ارتفاعات المقابر ذات القواعد الدائرية بين المتر وبين الستة أمتار ، بل وارتفع أكبرها إلى ١٢ متراً وبلغ قطر قاعدته ١٧ متراً . وأحاط ببعضها سور دائري . وذلك إلى جانب مقابر أخرى صغيرة دفن أصحابها في جرار من الفخار .

وتنقلت أعمال الكشف الأثرى إلى حيث تتبعت شواهد العمران القديم في العواصم الأولى التي نسبت إلى عهود متفاوتة يحتمل أن أقدمها عاصر الحضارة السومرية ، وعاصر بعضها العصر الآشوري الحديث والعصر البابلي الأخير ، كما عاصر أحدثها الحضارة السليوكية الهيلنستية والحضارة البارثية . مع انقطاع عمراتها في فترات أخرى بعوامل مختلفة . وتمثلت أهم مكتشفات البعثة في أطلال معابد باربار بمستوياتها الثلاث المتعاقبة وبعض عناصرها الباقية الأمر الذي شجع على تسمية أهم الفترات الحضارية بجزيرة البحرين باسم حضارة باربار .

وتنوعت حصيلة ما بقى من مناطق السكن والعبادة والدفن ، من أنواع الآثار المنقولة : فشملت كمية كبيرة نسبياً من أواني الفخار والأواني الحجرية . ومجموعات من الأختام (الدلمونية) المستديرة ذات القمة المدببة والمسطحة . والتي نقش بعضها بمناظر محلية ، ونقش بعضها الآخر بمناظر تشبه مناظر الأختام القديمة في العراق وفي وادي السند . وذلك مما يدل على العلاقات الحضارية أو التجارية بين هذه الأقطار الثلاثة ، وذلك فضلاً على مجموعات من الأواني والتمثيل المعدنية والمرمرية الصغيرة : وقطع نحاسية وأخرى من العقيق واللازورد . وأوزان محلية ومنقولة . . . إلخ .

وأيدت هذه الآثار المنوعة الأهمية النسبية لجزيرة البحرين في العصور القديمة كمركز لمنطقة دلمون التي رددت المصادر المسماة ذكرها ، ومركز الحضارة خاصة بها وهي حضارة باربار ، فضلا على كونها جزءا من حضارة الخليج العربي في مجمله .

(ب) في الكويت : تركزت أغلب أعمال البعثة الدانمركية منذ عام ١٩٥٨ في دولة الكويت في جزيرة فيلكا أو جزيرة أكاروس كما سميت بالآغريقية في عهد الاسكندر الأكبر . وقد ذكرتها المصادر الكلاسيكية كمحطة تجارية نظرا لموقعها الاستراتيجي المناسب عند مدخل الخليج . ولما هيأته من المرفأ الآمن والمياه العذبة لسفن التجارة . ونقبت البعثة فيها على مستويات متعاقبة عادت بأقدم مظاهر سكناها إلى أواسط وأواخر الدهر الحجري القديم وإلى العصر الحالكوليئي (النحاسي الحجري) : وقيل إن بعضها عاصر الحضارة السومرية في العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق . م ، وحضارة كولي في السند ، وما يمتد من العصر الأكدي حتى عهد إسين -- لارسا في العراق (من أوائل القرن ٢٣ ق . م . إلى أواخر القرن ١٨ ق . م .) حيث قلت مظاهر العمران لفترات طويلة حتى عاد نشاطها مع عهد الاسكندر والعصر السليوكي الذي مثلت فيلكا فيه مركزا تجاريا وحضاريا جمع إلى صيغته المحلية والخليجية عناصر أخرى إغريقية وهيلينية وفدت مع نشاط الملاحة والتجارة في هذا العصر وماتلاه . وظلت اتصالات الجزيرة بشبه الجزيرة العربية قائمة وعتر في أرضها على نصوص عربية قديمة .

وتعددت الآثار الثابتة في مواقع التنقيب في جزيرة فيلكا وتمثلت في أطلال محلات سكنية وأفران ومواقد وأسوار وحصون ، ومعابد بحماية مثل معبد إنزاك ومواقع عبادة آلهة الينابيع ومصادر المياه . وأخرى هيلينية مثل معبد أرتيميس . وتباينت أطلال هذه الآثار في أحجامها وفي مدى أهميتها . كما تباينت وتداخلت في أزمنتها ، لاسيما بالنسبة لمناطق السكن ومراكز العبادة التي أعيد استخدام بعضها جزئيا أو كليا في فترات متعاقبة : بحيث قد يضم الموقع الواحد أحيانا بين آثار من عصور ما قبل التاريخ وبين آثار من العصر الهيلينستي متقاربة من بعضها أو مختلطة مع بعضها . وقد لوحظت

كثرة استخدام الأحجار في المباني القديمة على عادة بعض أهل جنوب شبه الجزيرة العربية ، مع قلة البناء باللبن الذي اعتاده أهل العراق القريين منهم .

وكالعادة احتوت هذه الأطلال على آثار صغيرة متقولة تضمنت أعدادا من أواني الفخار والأواني الحجرية والأسلحة الصغيرة والأحجار المنقوشة والتماثيل البشرية والحيوانية الصغيرة وقطع من العملات المحلية والهليستية والعربية القديمة ، وعدة آلاف من أختام صغيرة تنوعت بأشكالها وموضوعاتها بين أختام إقليمية مستديرة أنتجتها حضارة الخليج . وأختام أسطوانية قلدت أختام العراق . وأختام رباعية قلدت أختام وادي السند ، بل وشكل أحد الأختام على هيئة الأختام المصرية القديمة . ونقشت على هذه الأختام أشكال مختصرة لكائنات بشرية وحيوانية وأشياء طبيعية وزخارف تخطيطية عبرت عن بعض عقائد أصحابها وأخيلتهم وأساطيرهم ومستوى فنونهم .

(ج) في قطر : باشرت البعثة الدانمركية أعمالها في الساحل الغربي من قطر . وعثرت على كميات كبيرة من أدوات حجرية صنفها في أربع حضارات بدائية ترجع إلى فترات من الدهر الحجري المتوسط والدهر الحجري الحديث والعصر النحاسي الحجري . وغلبت على حياة هذه الدهور والعصور حرفة الصيد وحرفة الرعي ثم القليل من الزراعة . ووجدت البعثة رسوما مختصرة على جوانب الصخور صورت مناظر زخرفية وملاحية وعقائدية . كما وجدت بقايا بلدة يرجع عمراتها إلى أواسط الألف الأول ق . م .

(د) في دولة الإمارات العربية : ركزت البعثة أغلب أعمالها في أبو ظبي في جزيرة أم النار التي قيل إنها اكتسبت إسمها من كثرة ما وجد بها من أحجار كانت تستخدم محركات لإيقاد النار . ثم اتسع البحث إلى منطقة العين وقرية هيلي . وظهرت شواهد أربع مراحل للعمارة في محلات قديمة ذات مساكن متنوعة . كما وجدت أعداد كثيرة من رجم المقابر المستديرة الفردية والأسرية ، وأرجع أقدمها إلى فترات من الألف الثالث ق . م . وبني أكبرها بالحجر ، وصورت على مداخلها مناظر إبل وماشية وحيات . (م ١٠ تاريخ شبه الجزيرة العربية)

واحتفظت بعض المقابر ببعض ما زود الموتى به من أوان وخناجر وأدوات للزينة ، ويحتمل أن أهل جزيرة أم النار القدامى أخذوا في بعض عصورهم بتضحية الأتباع حين دفن سادتهم .

(هـ) في الساحل الشرقى للمملكة السعودية :

توزعت الأكوام الأثرية الصغيرة على طول الساحل الشرقى للمملكة السعودية في مثل تاج والقطيف وتاروت والعقير والظهران وجبيل . وكان لكل هذه المواضع نشاطها الاقتصادي كمراكز بحرية وبرية لتجارة المرور ، فضلا على تجارتها المحلية . مما دلت عليه كتابات الرحالة والمؤرخين الكلاسيكيين وبعض المصادر العربية القديمة .

وعثر فيما عثر عليه على أعداد من التماثيل الطينية الصغيرة لإناث وحيوانات . وقامت البعثة الدانمركية بتجميع أعداد كبيرة من كسر الفخار الحشن والرقيق ، والأواني الفخارية والحجرية ، ومباخر مربعة — ويبدو أنها كانت من آثار عمران لبلدة عاصرت الحضارة السليوكية أو الهيلينستية . كما عثر على نقش بكتابة عربية جنوبية قديمة في تاج .

وفي شبه جزيرة تاروت على امتداد منطقة القطيف تعددت رجم المقابر ذات الشكل المخروطى . ووجدت البعثة الدانمركية آثار عمران متقطع متفاوت قد يبدأ معاصراً لحضارة العبيد في أقدم طبقاته . ويمتد به الزمن حتى عهد حضارة باربار في البحرين . ويضم مخلفات من الأدوات الحجرية الصغيرة لدهور ما قبل التاريخ ، ومخلفات من كسر الفخار .

وامتدت البحوث إلى جرها القديمة وهى الجرعاء العربية والعقير الحالية ، على أساس ما شهد به الرحالة الكلاسيكيون من ثرائها ونشاطها الواسع في تجارة المرور (الترانزيت) خلال العصر السليوكى . وقد تعددت بالفعل أكوام أثرية كثيرة فيما بين العقير وبين الظهران ، واستغلت البعثة الدانمركية ما وجد على سطوحها من كسر الفخار والأواني الحجرية لتصنيفها وتوقيت صناعتها .

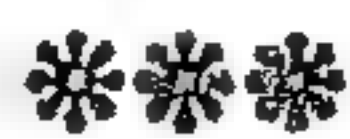
وفي الوقت ذاته كان لقرب مناطق النفط من الظهران أثر في توجيه الأنظار إلى ما كشف في أرضها مصاصا دفنة من الآثار خلال مد الطرق وتعييدها وحفر الآبار. ونبه بيتربروس كورنول إلى أهمية موقعها وضخامة جبانها القدعة ، ونسبها إلى كبار منطقة دلمون الذين شمل نفوذهم البحرين والأحساء . وتفاوتت مقابر هذه الجبانة فيما بينها في سعتها وأهميتها ومحتوياتها . واحتوى أكبرها على توابيت حجرية وجدران مبنية .

(و) من كشوف البعث العربية :

حاولت بعض البعثات الوطنية والعربية أن تدلى بدلوها في الكشف عن جوانب من تراث الخليج القديم . فأولت وزارة التربية في البحرين اهتمامها لموقعي الحجر والشاخورة منذ عام ١٩٧٠ ، وجرى الكشف عن مقابر يحتمل إرجاعها إلى مايعاصر العصر الكاسي في العراق . ومايعاصر العصر السليوكي . وهي مقابر مستديرة صغيرة تنتمي لطوائف اجتماعية مختلفة . وغالباً ما كسيت جوانبها الداخلية بملاط وعلتها قطع حجرية . وأدت إلى مدخلها درجة حجرية أو أكثر من درجة .

وأولت دولة الإمارات العربية اهتماماً بالكشف في أنحائها عن المزيد من المدافن القديمة . ووجدت على بعض أحجار المقابر رسوم هيئات بشرية وحيوانية ومناظر صيد . وتضمنت الآثار المنقولة التي عثر عليها من أوان وكسر الفخار أعداداً من زخرفة بأشكال حيوانية وتخطيطية على الطريقة المحلية أحياناً ، وبما يقلد بعض زخارف الفخار الخارجية في مثل بامبور وكلي ، أحياناً أخرى .

وانصب كثير من الاهتمام في نجد بالمملكة العربية السعودية على منطقة الفاو . وكانت مستوطنة قديمة على الطريق التجاري بين نجران وبين أطراف العراق عبر وادي الدواسر . وكشف فيها عن آثار عمراتها القديم وما تخلف عنه من الأواني الحجرية والفخارية فضلاً عن نقوش نصب المقابر ومخربشات الصخور مما اختلط فيه الأسلوب العربي الجنوبي بالأسلوب العربي الشمالي ويحتمل ربطه إلى حد ما بنشاط مملكة كندة قبل ظهور الإسلام .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- Bawden, Edens and Miller, Preliminary archaeological investigation at Tayma, ATLAL, 4, 1980.
- Dayton, J.E., "The City of Tayma and the Land of Edom, 1970—73.
- Dougherty, R.P., "Tayma's Place in the Egypto-Babylonian World of the 6th Century B.C.", Mizraim, 1, 1930.
- Hamid, I., Abu-Duruk. Introduction to the Archaeology of Tayma, Riyadh, 1986.
- Milik, I. Priere de Nabonidus, RB, 63, 1966, 407—15
- Oppenheim, L., in ANET, 283—284, 308 f.
- Winnett and Reed, Ancient Records from North Arabia, Toronto 1970.

من المؤلفات المختارة في دراسات ما قبل التاريخ :

- Bilby, G., Looking for Dilmun, 1970; Arabian Gulf Archaeology, in Kuml, 1954, 1964—66.
- Glob, P.V., Archaeological Investigation in Four Arab States, 1959; in Kuml, 1954, 100 f.; 112 f.; 1958, 144f.
- Masry, A.H., Prehistory in Northeastern Arabia, Florida, 1974.
- سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد . الكويت ١٩٧٤ .
- عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية - دراسات الخليج والجزيرة العربية - الكويت ١٩٨١ ، إصدار ٤ - ص ٦٣ - ٧٢ ، ٧٧ - ٨٠ .

الفصل الثاني عشر

الجماعات العربية القديمة ذات الصلة
برسالات الأنبياء

أولا - مدين

أبقى على ذكر مدين ما ذكره القرآن الكريم وذكرته التوراة عن ارتباطها بالنبين موسى وشعيب عليهما السلام . فقد لجأ موسى عليه السلام إلى أرضها هرباً من مصر بعد أن قتل فيها أحد خصومه . ، وصاهر في مدين رجلاً صالحاً ذكرته التوراة باسم « رعوثيل » وأطلقت عليه لقب « يثرون » بمعنى الكاهن . كما ذكرت ابنته التي تزوجها موسى باسم صمورة .

وتدل معاصرة مدين لعهد موسى عليه السلام على قدم وجودها وإمكان نسبتها إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق.م. على أقل تقدير . وكان قومها يتألفون من قبائل متعددة انتشرت في إقليم حسمى وما يمتد منه إلى الشرق والجنوب الشرقي من خليج العقبة . وربما وصلت إبان ازدهارها حتى حدود واحة العلا الحالية في شمال الحجاز .

أما النبي شعيب عليه السلام الذي ذكر القرآن الكريم قيامه بدعوة أهل مدين إلى عبادة الله وحده ، فمن المحتمل توقيت عهده بأوائل فترات ازدهار تاريخها القديم .

وإذا كانت قصة النبي موسى قد دلت على اعتماد بعض قبائل مدين على حرفة الرعي ، فإن دعوة النبي شعيب لهم بالتزام الأمانة في الكيل والميزان تعني أن بعض قبائلهم الأخرى اعتمدت على معاملات التجارة في حياتها الاقتصادية . وكان موقع أرضهم يسمح لهم فعلاً بالانتفاع بثلاثة طرق تجارية رئيسية : طريق يتجه نحو شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين .

وطريق يتجه ناحية الجنوب بشعبتين في اتجاه يثرب ومكة . وطريق ثالث شرقاً نحو تبوك وتيماء .

وإلى جانب الرعى والتجارة كان في اتساع المنطقة التي انتشرت فيها قبائل مدين مانعها تنتفع كذلك بعدد من الواحات الحصبة في شئون الزراعة ، وربما انتفعت أيضاً بساحلها المطل على البحر الأحمر في النشاط البحري . وكانت أكبر واحات المنطقة هي واحة البدع وتركزت حوضها أهم جماعات مدين . وأدت كثرة مياهها وكثرة ما ينمو فيها وفيما يمتد منها إلى ساحل البحر من الأشجار ونخيل النمر والدوم ، إلى اتجاه بعض المؤرخين المسلمين إلى ربطها باسم « الأيكة » بمعنى الغيضة أو الشجر الكثيف الملتف ، واعتبروها على هذا الأساس هي الأيكة التي ذكر القرآن الكريم أن أصحابها كذبوا المرسلين .

ووافق بعض الباحثين الغربيين على فكرة الربط بين أرض مدين وبين الأيكة فعلاً ولكنهم فسروا اسم الأيكة بطريقة أخرى ، فاعتبروه النطق العربي لكلمة Leuke التي أطلقها بعض الإغريق على الميناء البحرية الواقعة في أرض مدين حين سموها Leuke Kome بمعنى القرية البيضاء ، وهو المعنى الذي يشبه اسم ميناء الحوراء (أو أملج) الحالية الواقعة إلى الجنوب الغرب من واحة البدع . ولا يزال التفسير الأول أي تفسير المؤرخين المسلمين لكلمة الأيكة هو الأكثر شيوعاً .

ويفهم من قصص التوراة أن عداء أهل مدين للعبانيين بدأ منذ عهد موسى عليه السلام ، وذلك ما يمكن تفسيره بما أسلفناه من أنهم تألفوا من قبائل عدة . ربما صادقت إحداها موسى بعد أن تزوج منها . بينما جاهدت القبائل الأخرى قومه اليهود بالعداء بعد أن خشيت منهم على أرضها وتجارتها .

وزاد عداء مدين للاسرائيليين حينما زادت أطماع هؤلاء الأنحاري في فلسطين وما يليها جنوباً على عهد ملكهم شاوول في نهاية القرن الحادي عشر

ق.م. وقد قاومهم المديانيون مقاومة شديدة بحيث ذكرت إحدى الروايات أنهم تمكنوا من بني إسرائيل سبع سنين .

وبعد قرون دخلت مدين في طي النسيان ، ثم سيطر الأنباط على أرضها بعد أن مدوا نفوذهم التجارى والسياسى من شرق الأردن إلى شمال الحجاز . وعملوا خلال القرن الأول ق.م. على توسيع ميناء الحوراء وتحسينها . ولاتزال المقابر التى نحتت فى الصخر بجوارها خلال عصرهم تعرف باسم مغاير شعيب وتشبهها بعض مقابر واحة البدع ، كما تشبه بقية مقابر الأنباط فى بترافى مدائن صالح ، لولا أنها تهدمت إلى حد كبير .



ثانياً - قوم عاد

اعتاد الرواة والأخباريون الأوائل أن يضربوا المثل في القدم بعاد ، واعتادوا على أن يسبوا إليها كل ما عظموا شأنه وجهأوا أصله من أطلال القصور والآبار وبقايا الصخور والأشجار القديمة أيضاً . واعتمد أولئك الرواة والأخباريون في بعض مذكروه عن قوم عاد على ماجاء عنهم في القرآن الكريم ، كما اعتمدوا على تفسير كتبة التوراة ومن تأثروا بهم .

ويبيد مذكروه القرآن الكريم عن قوم عاد أنهم عاشوا في منطقة تعرف بالأحقاف (واذكر أنخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) . وأنهم تميزوا بإرم ذات العماد (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وأنهم كذبوا نبيهم هودا (كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إن لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) . وأنهم كانوا أولى بأس وقدره (أثبتون بحل ربيع آية تعيثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين) . وربما كانوا قريبي الصلة بالثموديين (وأنه أهلك عادا الأولى وتمودا فما أبقى) . وأنهم عوقبوا جزاء كفرهم بريح عنيفة أطاحت بكل ماكانوا فيه (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) . ولم يعين القرآن الكريم موضع الأحقاف ، ولهذا تعددت آراء المفسرين والمؤرخين المسلمين بشأنها .

وذهب بعضهم إلى تعيين أحقاف عاد بمنطقة الأحقاف في حضرموت وذكروا رأيهم بما يعتقد به بعض أهل حضرموت من وجود قبر هود في أرضهم ووجود بئر تسمى بئر برهوت روي أنه كانت تصدر عنها أصوات هائلة في العصور القديمة وتخيلوا أن هذه الأصوات هي أصوات قوم هود المعذبين ولكن أضعف هذا الرأي القديم عدة قرائن نذكرها في ص ١٥٣-٤ . ومنها أن الروايات الشعبية يصعب التسليم بها دائماً أو كاملاً دون دليل . فكما قال بعض أهل حضرموت بوجود قبر هود عليه السلام في أرضهم . قال بعض أهل شبه جزيرة سيناء إن قبره في أرضهم .

وإلى جانب رأى من قالوا بوجود الأحقاف فى حضر موت . قال رأى آخر إنها رمال مستطيلة بشجر عمان . وقال ثالث إنها حشاف من حسمى ، والحشاف هى الحجارة فى الموضع السهل . وقال رابع بأنها اسم جبل فى الشام . وقال خامس إنها اسم عام يطلق على أى منطقة إذا عظم رملها واستدار (ويقال له حقف) .

وفى اختلاف هذه الآراء مايدعو إلى عدم التقيد برأى منها ما إلا بعد تمحيصه ووجود أداة تويده .

وربط القرآن الكريم بين قوم عاد وبين إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . فاعتبر بعض المفسرين والمؤرخين إرم هذه مدينة عظيمة وعينوها بالاسكندرية تارة ودمشق تارة أخرى . واعتبرها بعض آخر قبيلة قوية ، وكان من هذا البعض الأخير المؤرخ ابن خلدون الذى وجه إلى أصحاب رأى الأول نقداً لاذعاً .

وجعل ياقوت إرم جبلاً عظيماً فى ديار جذام قرب العقبة تنمو عليه الكروم وأشجار تشبه أشجار الصنوبر . وذكر الرحالة القزوينى أن قوم عاد عاشوا على هذا الجبل الذى أصبح من منازل طى، وكانت توجد عنده بقايا تماثيل كثيرة ومنازل عديدة .

وادت الكشوف الأثرية الحديثة إلى الكشف عن بقايا عمران متسع فوق وحول جبل إرم هذا بالفعل شرق العقبة ، ومنها معبد أقيم فوق الجبل ترجع بعض نصوصه إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وأعداد من التماثيل ومن النصب التى تذكر اللات والعسزى . وقد لا تفسر نسبة هذه الآثار إلى قوم عاد بصورة مؤكدة . لولا أن هناك أدلة أخرى تركزى نسبة هؤلاء القوم وقوم عاد إلى شمال شبه الجزيرة العربية أكثر من جنوبها، ومنها أن القرآن الكريم جمع بين عاد وثمود ، وثمود شمالية فيما هو متنازع ، وجعل مواقع عماد قريبة من أهل الحجار حين نزول القرآن فقال (وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) ، وقال (اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) .

وربط بعض الشعراء المبكرين بين عاد وثمود ، وأطلقوا على ثمود اسم عاد الثانية أخذاً بقول القرآن الكريم (وأنه أهلك عادا الأولى) — ولم يعترض عليهم معترض .

هذا وقد ذكر الجغرافى بطليموس السكندرى (فى القرن الثانى الميلادى) اسمين فى شمال الحجاز يمكن الربط بينهما وبين قوم عاد ، وهما اسم شعب Oaditae الذى يتشابه مع اسم عاد ، واسم Aramaea الذى يتشابه مع إرم ورم وأرام وكلها أسماء تعاقبت لمسمى واحد .

ومال بعض المؤرخين المحدثين إلى تفسير ما تواتر لدى أهل حضرموت عن وجود قبر هود عليه السلام عندهم بأنهم وغيرهم من العرب الجنوبيين كان يعز عليهم أن ظهر الأنبياء بين العرب الشماليين دونهم ، فاعتمدوا على وجود اسم الأحقاف فى أرضهم ونسبوه إلى عاد ، واعتبروا سكانها القدامى قوم هود ، حتى لا تكون للعرب الشماليين ميزة عليهم حتى ولو كان قوم هود هؤلاء قد عوقبوا جزاء تكذيبهم له . ولا يبعد مع هذا أن بربرهوت التى دارت حولها أساطير قوم هود المعذبين كانت فوهة بركان صغير ثائر ، خمدت ثورته مع مرور الزمن .



ثالثاً - التهوديسون

توافر للشموديين حظ كبير من الشهرة بين المؤرخين المسلمين نظراً لما ذكره القرآن الكريم عنهم . ولمعرفتهم بجزء من أرضهم ، وبقاء بعض آثارهم حتى بداية العصور الإسلامية (وما بعدها) . وكما سلك القرآن الكريم نمودا مع عاد . سلكتهم كذلك مع قوم لوط وأصحاب الأيكة وسماهم الأحزاب . ووصف التهوديين بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد ربما بمعنى الذين قطعوا صخر الجبال ونحتوا فيه مقابرهم أو بنوا به بيوتهم . وذكر القرآن الكريم العذاب الذي نزل بهم جزاء كفرهم بدعوة نبيهم صالح عليه السلام في قوله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ، وقوله (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) .

وأشارت النصوص الأشورية إلى قدامى التهوديين باسم « تمودى » منذ أواخر القرن الثامن ق. م . واعتبرتهم من أهل البرية ، وذكرت أنهم وجيرانهم من الأعراب لم يألفوا الخضوع للملوك ولا للحكام . وليس ما يمنع من أن يكون أوائل جماعات التهوديين قد ظهرت قبل القرن الثامن ق. م . بكثير ولكنهم كانوا لا يزالون على حال متواضعة من البداوة ، بحيث تجاهلهم فيما بعد كتبة قصص التوراة وتجاوزوا عن ذكرهم بينما ذكروا بعض أسماء القبائل التي جاورتهم في البادية مثل قبيلة خايايا وقبيلة عيفة اللتين ذكرتهما النصوص الأشورية مع التهوديين .

واتفق المؤرخون المسلمون على أن أهم ديار نمود كانت بوادي القرى فيما بين الحجاز وبين الشام . ورووا أن النبي عليه السلام مر بجيشه على خرائب ديارهم في الحجر ونهى عن دخولها ربما لتأكيد كره الكافرين أو لأنه توجب أن تكون آبارها وعيونها قد سممت بفعل فاعل للإيقاع بالمسلمين الذين كانوا قد عانوا من شدة حرارة الصحراء في طريقهم إليها . كما تناقلوا النصص عن ناقة النبي صالح عليه السلام ومكان خروجها ومكان مجابها . . . إلخ .

ولسنا على بينة من العهد الذى تزايد اليهوديون خلالها فى شمال الحجاز أو العهد الذى بعث إليهم فيه النبي صالح عليه السلام . ولكن يمكن لإنجار ما عرف عنهم تاريخياً فى أنهم تألفوا من قبائل وعشائر متعددة وأنهم لم يكونوا دولة مستقرة واضحة المعالم . وأنهم حين انتشروا فى شمال الحجاز وسيطروا على بعض أجزائه فى وادى القرى بخاصة كانت مدينة الحجر من أهم الحواضر التى عاشوا فيها ، وهى مدينة ظنها بعض المؤرخين القدامى مدائن صالح الحالية نظراً لكثرة آثارها المنحوتة فى الجبال . ووضوح التدمير الذى لحق بها . وارتباط اسمها باسم النبي صالح . ولكن كثرة من الباحثين المحدثين حددوها ببلدة الحريية التى تبعد عن مدائن صالح بنحو عشرة أميال وقد أصاب آثارها هى الأخرى خراب كبير . وبنوا رأيهم على غلبة النصوص التهودية التى عنر عليها فيها . بينما رجحوا اعتبار مدائن صالح من مناطق الأنباط على أساس غلبة الآثار والنصوص النبطية فيها وإن تضمنت إلى جانبها مصوصاً ثمودية قليلة .

وساعد التوديين على الاستمرار الحضارى أنهم اتصلوا فى شمال الحجاز بطوائف متحضرة قديمة فانتفعوا بحضارتها ومنها طوائف ددان ولحيان التى أحاطت ببلدة الحريية ، وعندما امتدوا إلى الشمال أكثر انتفعوا ببعض حضارات جنوب فلسطين كما جاوروا امتداد الحضارة المصرية فى شبه جزيرة سيناء . وعندما امتد نشاطهم إلى الجنوب اتصلوا ببعض الجماعات المتحضرة فى أنحاء اليمن .

وكان من أهم ما استفادوا به حضارياً من هذه الاتصالات المتعددة . هو الكتابة بخط متميز اشتقوه أساساً من الخط المسند الجنوبي الذى يحتمل أنهم تعلموه عن أهل منطقة ددان ولحيان إن لم يكن عن كتبة الجنوب العربى الذين اتصلوا بهم اتصالاً مباشراً فى شئون التجارة ، ثم طعموا هذا الخط ببعض خصائص الخط السينى المصرى فى سيناء .

وأصبحت مصوص التوديين هى الشاهد الحى على مدى انتشارهم . وهى نصوص قصيرة سريعة ، ولكنها كثيرة تدل على كثرة من كانوا

يعرفون الكتابة بينهم لأغراض التجارة . وقد وجدت نماذجها خارج وادى القرى فى تبوك والطائف . وفى قلب نجد وشمالها ، وفى شبه جزيرة سيناء ، وفى مناطق متفرقة من شرق الأردن ، وفى شرقى دمشق ، وفى أطراف اليمن أيضاً ، وكل ذلك مما يدل على سعة انتشار قوافلهم وكثرة اتصالاتهم التجارية ولا سيما فى اليهود المتأخرة فى الزمن نسبياً فيما قبل الميلاد بقليل وفى بعده بقليل أيضاً .

وشاعت بين التهوديين أسماء عربية خالصة مثل سعد وقيس ومالك ووائل وزيد وأوس وعاصم وعمر وعقرب وواسط وكعب وحارثة . وسعدة ومسكة وسبرة وهائلة . . . إلخ .

كما وجدت بينهم أسماء قل استعمالها قبيل الإسلام ويبدو أنهم تأثروا فيها بأسماء من كانوا يخالطونهم من الأراميين وغيرهم ومنها ثريت ، وهمل ، وبى . . . إلخ .

وأخذ التهوديون بتعدد المعبودات كغيرهم من الجماعات القديمة ذات الديانات الوضعية . فقدسوا الشمس ووداً وكاهل وبعلة ومناة . . . إلخ . ومن أجل إصلاح هذه العقائد أرسل فيهم نبيهم صالح ، ولكنهم خالفوه .

وظل لبقايا التهوديين كيانهم حتى غلب الأنباط على وادى القرى ، فتفرقوا ولكنهم ظلوا معروفين خلال القرون الأولى بعد الميلاد . فأشار إليهم مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإريتري فى بداية القرن الثالث الميلادى وذكر أنهم انتشروا فى أيامه على ساحل صحرى طويل لا توجد به نخلجان صالحة تحتوى بها السفن .

ويبدو أن جيوش الروم ظلت تتقبل أعداداً منهم فى قواتها المساعدة حتى القرن الخامس الميلادى . وأخيراً ربط بعض النسابين بين أواخر التهوديين أو نسلهم وبين قبائل ثقيف العربية . ولكن التقفين أبوا هذه النسبة واستنكروها .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

Branden, A. van den, Histoire de Thamoud; Les Inscriptions Thamoudéennes de Philby. 1950; Essai de Solution de Probleme Thamoudéens, in BR, 1958, 7-12; Studia Islamica, 1957, 5-27.

Hardings, L., Some Thamudic Inscriptions.... 1952.

Jamme, A., Thamudic Studies, 1967.

Jaussen et Savignac, op. cit.

Littmann, E., Thamud and Safa, 1940.

Musil. A., The Northern Hegaz, 1926.

Philby, J., The Land of Midian, 1957.

Ryckmans, R., in Studia Islamica, 1956, 8 f. ; Muséon, 1959. 177-189

Winnett, F.V.. op. cit.

جواد علي : المرحع السابق

دائرة ابحاث الف الإسلامية - مواد مدين وعاد و ثمود .

الفصل الثالث عشر

من الممالك العربية المستقرة

أولا — دولة ددان وحيان

قامت حاضرة هذه الدولة في واحة العلا قرب وادى القرى إلى الشمال الغربى من المدينة المنورة بنحو ٣٢٨ كم ، وامتدت منها في عهود ازدهارها إلى ماحولها حتى قرب تيماء . واعتمدت اقتصادياتها القديمة على الزراعة لوفرة المياه الباطنية في واحة العلا وخصوبة أرضها ، وعلى التجارة نظراً لموقعها على طريق القوافل التجارى الرئيسى القديم الممتد في غرب شبه الجزيرة بين معين على أطراف منطقة الجوف الجنوبى وبين أطراف الهلال الخصيب في الشمال .

وأطلق اسم ددان في بداية الأمر على الأرض والدولة والشعب ، وذكرته قصص من التوراة يرجع أقدمها إلى ما بين القرن التاسع ق.م. وبين القرن السادس ق.م. ، كما تضمنته نصوص من الواحة نفسها قد يرجع أقدمها كذلك إلى القرن السادس ق.م .

وبعد عهود يصعب تقديرها وربما في القرن الخامس ق.م. ، عرفت الواحة ودولتها وقبيلتها الحاكمة باسم لحيان ، وهو اسم احتفظ به بطن من بطون العرب حتى ظهور الإسلام ثم انصهر في قبيلة هذيل . وتوثقت علاقة لحيان بدولة معين الجنوبية على أساس الاشتراك في المصالح التجارية ، ونزلتها جالية من معين كما أسلفنا في الفصل السادس ، وانتفعت الواحة من هذه العلاقة بمعرفة خط المسند الجنوبى الذى تطور بعد تحويله إلى الخط اللحياني وكان من أوائل الخطوط المعروفة التى كتبت بها نصوص العرب الشماليين . واتسعت علاقات لحيان بجيرانها في الشام عن طريق البر ، وفي مصر عن طريق البر والبحر . بحيث وجدت في لحيان بضعة تماثيل عثرنا على

بعضها منذ عدة سنوات في الحرية المجاورة للعلا . أخذت بالأسلوب الفني
المصرى القديم ويرجع تاريخها إلى ما بعد القرن الخامس ق.م. — ويبدو أن
أصحابها من حكام لحيان أو أثريائها قد أعجبوا بأمثالها في مصر فانتدبوا
فنانين مصريين قاموا بنحتها من الصخر المحلى في منطقة الحرية . وجمعوا
فيها بين تقاليد الفن المصرى في جسم التمثال وبين الملامح وأغطية الرأس
اللاحيانية في الرأس والوجه .

وتوثقت هذه العلاقة بين لحيان وبين مصر في عصر البطلمة . ويبدو أنه
قامت مفاوضات بينهما في عهد بطلميوس الثانى في أوائل القرن الثالث ق.م.
لخروج المتاجر الواصلة إلى لحيان برا وبحراً بطريق مباشر من ساحلها إلى
إحدى الموانئ المصرية المقابلة لها على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وبهذا
يقل وصول هذه المتاجر إلى خصوم الطرفين الأنباط والسايوكيين في
جنوب بلاد الشام .

وقد شاركت لحيان في تجارة البحر فعلا بما عن طريق ميناء الوجه الموجودة
في منطقتها ، وكان من أثر نشاطها البحرى أن ذكر الرحالة بليني جزءا من
من خليج العقبة باسم الخليج اللحيانى .

وشاعت بين اللاحيانين أسماء عربية خالصة مثل حمد وعاصم وعنزة وأوس
وسمر وحجر ومسلمة . وأسماء نسبوها إلى معبوداتهم القديمة مثل زيد غوث
وبركة غوث، وعبد ود وعبد مناة .

وظهر من أسماء ملوكهم أسماء هناس بن شهر ، وشامت جشم بن
لوذان ، ومنعى لوذان . . .

ويبدو أن ازدهار لحيان في القرن الثالث ق.م. أطمع فيها حليفها
دولة معين الجنوبية التى كانت قد بلغت بدورها مرحلة مزدهرة في تاريخها ،
فهدت نفوذها إليها خلال القرن نفسه ، وأصبح للجالية المعينية فيها مكان
الصدارة الاقتصادية . وبعد أن كان يرأس الدولة ملوك من أهلها ، تولاهـا
ولاة يتلقبون بلقب « كبر » وقد يشترك اثنان منهم في الحكم في آن واحد
ربما ليكون أحدهما رئيساً للحيانين ، ويمثل الآخر مصالح المعينيين وملك

معين الجنون . وأصبحت المنطقة أو واحيتها تعرف أحياناً باسم «معين مصرن» وهو اسم أشرنا في الفصل السادس إلى أنه قد يقلد اسم الدولة الخليفة وهي معين من ناحية . ونخصصها بلفظ « مصرن » من ناحية أخرى ربما بمعنى المصرية على أساس قربها من مصر أو تعاملها الواسع معها . أو بمعنى « الحدودية » .

وغالباً ما يرجع إلى هذا العهد نص « زيد إيل بن زيد » ذلك التاجر المعين الذي ذكرنا في الفصل نفسه أنه أقام في مصر حتى دفن فيها ، وكان يتولى توريد البخور وملحقاته إلى معبد السيرايوم في منف . ويصدر في مقابله أصنافاً من المنسوجات المصرية إلى بلده . وكما أكرمه المعبد المصري بلقب الكاهن المطهر يبدو أنه منحه قرضاً ليسدد به ديونه ، على أن يعتريه مقدماً لتجارة يستوردها إليه . وتعهد زيد إيل بالوفاء في موعد معلوم كما وعد برصد جانب من ثروته لبعض المعابد المصرية .

وأخذ اللحيانيون في عقائدهم بتعدد المعبودات مثل غوث واللات وبعل سمين وذى غابة وسلمان وكاتب أو سافر . ومن نصوصهم الطريفة نص ذكر أن معبودهم بعل سمين (أى بعل السماء أو سيدها) حرم أن ترتقى النساء صخرة عالية قام عليها معبده أو قام بجوارها . وإن كانوا في الوقت نفسه قد سمحوا بوجود الكاهنات (أفكلت) في بعض المعابد ، إلى جانب الكهنة (أفكل) الرجال . وكان لهم معبد حجري واسع توسط منطقة الحريه المجاورة لواحة العلا ولا زالت أطلاله باقية .

واستمر اللحيانيون في طريقهم الحضاري حتى امتد نفوذ الأنباط إلى أرضهم وسيطروا عليها بعد أن ضعف شأن اللحيانيين وحلفائهم المعينيين في حمايتهم ، خلال القرن الأول قبل الميلاد .



ثانياً — دولة الأنباط

كانت دولة الأنباط أكبر اتصالاً ببادية جنوب الشام منها بشبه الجزيرة العربية، حيث قامت كبرى عواصمهم في «بترا» أو البتراء في شرق الأردن. شأنهم في ذلك شأن الإدوميين الذين سبقوهم في هذه العاصمة نفسها. ولكننا نتناول طرفاً من تاريخ الأنباط هنا — مع تاريخ شبه الجزيرة العربية بناء على ثلاثة اعتبارات، وهي: غلبة الأسماء العربية بينهم، وامتداد نفوذهم التجاري والسياسي والحضاري في شمال الحجاز. ثم ضخامة الآثار التي تركوها في مدائن صالح، ومغائر شعيب.

كان الأنباط كما قدمنا قبائل عربية الأصل غلبت عليها في مراحل نشأتها حياة البداوة وحرفة الرعي، وانتشرت بطونها بين جنوب بادية الشام وبين شمال عرب شبه الجزيرة العربية. ووصف المؤرخ ديودور الصقلي حال الأنباط الأوائل في هذه المرحلة فيما قرأه أو سمعه عن سبقوه بأنهم كانوا بدوا رعاة لا يعرفون الزراعة ولا يشربون الخمر، وأرضهم أغلبها صخرية وعرة توجد بها بحيرة ملحة تصدر عنها أبخرة حارة وتضعب الإقامة بجوارها، ولكن توجد معها أراض أخرى كثيرة الأشجار والنخيل.

وشجع انتشار الأنباط حول طرق التجارة البرية الرئيسية على أن يتطلعوا إلى مكاسبها، فعمل بعضهم في الإغارة على قوافلها، وعمل بعضهم في حراستها. وعمل بعضهم في المشاركة فيها ثم الانفراد بها. وأدى احتكاكهم بدولة إدوم في جنوب الأردن إلى أن يعتادوا على الاستقرار شيئاً فشيئاً. وأن يمارس بعضهم الزراعة، وأن يستفيدوا بعض الشيء من الحضارة الآرامية التي أخذ الإدوميون بها. ثم استغل الأنباط ضعف هذه الدولة أمام اعتداءات العبرانيين عليها وسيطروا على أرضها خلال القرن الخامس قبل الميلاد وحلوا محل أمرائها في حكم عاصمتهم التي عرفت باسم رقيم، واسم سلع الذي يعني الصخرة (التي تفصل بين واديين). وقد ترجم الإغريق عن هذا المعنى الأخير باسم «بترا» فاشتهرت به ولا تزال

تعرف بمرادفه « البتراء » حتى الآن . وهكذا عمل الأنباط بعد استقرارهم في الزراعة كما عملوا في تجارة البر ، وربما تطلعوا إلى السيطرة على ما قربهم من تجارة البحر أيضاً . ولكن جر عليهم نشاطهم في تجارة البر منافسة لخلفاء الاسكندر في الشام وآسيا الصغرى منذ أواخر القرن الرابع ق.م . كما جرت عليهم قرصنة البحر وتجارته منافسة البطالمة حكام مصر في العهد نفسه .

وعن هذه المرحلة يذكر ديودور الصقلي أن جيش أنتيجونوس أحد كبار القادة من خلفاء الاسكندر في الشرق أراد إرهاب الأنباط وصرفهم عن مخالفة البطالمة فأغار على عاصمتهم بترا ونهبها خلال غياب رجالها عنها للغزو أو للتجارة أو للاحتفال بعيد ديني . ولكن الأنباط لاقوا هذا الجيش في عودته وأبادوا أغلب مؤخرته . وأعاد جيش أنتيجونوس الكرة عليهم بقيادة ولده لينتقم منهم فتحصنوا بمدينتهم التي تحيط المرتفعات بها ولا يتيسر دخولها إلا عن طريق ممر جبلي ضيق يمكن أن تحميه القلة من الرجال . وطال حصاره لهم حتى صالحوه على بعض الهدايا فرجع عنهم .

وكان أقدم من ذكرتهم قصص التوراة من ملوك الأنباط الملك حارثة (الأول) ووصفته بأنه زعيم العرب وقصدت بذلك العرب المقيمين في بادية الأردن . وذكرت له شأناً في منازعات رؤساء العبرانيين بعضهم مع بعض .

غير أنه لم يعثر حتى الآن على نصوص نبطية صريحة إلا من قبيل القرن الثاني ق.م . ثم وضحت أطماع ملوك الأنباط للتوسع قبيل بداية القرن الأول قبل الميلاد . وتعددت معاركهم مع الجيوش السلوكية ، وهاجم ملكهم حارثة الثالث دمشق واستولى بجيشه عليها ، وسكت فيها عمله رسمية باسمه حوالي عام ٨٥ ق.م . ولكن لم تطل إقامة الأنباط فيها حيث استردها الرومان منهم في حوالي عام ٦٥ ق.م . بعد أن سيطروا على أغلب بلاد الشام .

وأدت فترات التوسع الأنباطي إلى أن اسزاد أهله من حضارة الأراميين التي عرفوها في إدوم ، وكانت دمشق من أكبر مراكزها ، كما ساعدتهم

على أن يتذوقوا نعيم أهل الحضر . وكان خير ما تعلموه من حضارة جيرانهم هو حروف الكتابة الآرامية التي أسلفنا مراحل تطویرها على أيدي كتبة الأنباط وتميزهم بها . في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وكيف أصبحت أساساً فيما بعد للكتابة العربية .

وعلى نحو ما انتفع الأنباط بحضارة الآراميين انتفعوا كذلك بالحضارة الهيلينستية التي تعهدتها السليوقيون في سوريا . وعرف الأنباط منها سك العملة ، ثم تطوروا بعملتهم واعتادوا على أن ينقشوا عليها صور رؤوس ملوكهم . وربما صوروا معها رؤوس الملكات أيضاً . أو صوروا مع رأس الملك رأس أمه إذا كان صغيراً وكانت وصية عليه .

وامتد الأنباط مع مسالك التجارة على ساحل الحجاز واستغلوا قوتهم مع ضعف بقايا أهل مدين واللعينيين فسيطروا على أراضي هؤلاء وهؤلاء خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وتركزت جالياتهم في محاط القوافل الرئيسية بهذه الأراضي ، وقد ذكرنا منها من قبل واحة البدع والخوراء في أرض مدين . والحجر ومدائن صالح وواحة العلا في أرض اللعينيين .

وعندما استتب أمر حكم الرومان في بلاد الشام أيقن الأنباط أن لا سبيل لهم إلى مقاومتهم ، وربما تقربوا إلى القائد الروماني أوكتافيوس بإحراق جزء من أسطول نخصيمته كليوباترة . ورأى الرومان أن يستفيدوا منهم فاستعانوا بفرقة حربية منهم لمعاونة يوليوس قيصر على التخلص من حصار المصريين له في الاسكندرية (في عهد الملك النبطي مالك الثاني) ، كما استعانوا بجماعة منهم في حملة آيلوس جالوس القائد الروماني على بلاد اليمن ، وصحبهم فيها الدليل صالح (أوسلى أوسلاء) Syllaes كما تقدم القول بذلك—وقد عرف أحد معاوني الملك النبطي عبادة الثاني في العهد نفسه باسم صالح فعلاً ، كما نزلت حامية رومانية في ميناء الخوراء التي كانت قد خضعت من قبل للأنباط .

وظلت العلاقات بين الرومان وبين الأنباط في جنوب الشام بين مد وجذر ، فطورا يقطع الرومان أرضاً من الأنباط ويهبونها لليهود ، وطورا

يجاملون الأنباط ويزيدون في أملاكهم . وعلى أية حال فقد ازداد اتصال الأنباط بالحضارات الخارجية نتيجة لاتصالهم بالرومان وعملهم في جيوشهم ، إلى جانب ما كانوا قد اقتبسوه من الحضارات السابقة عليهم .

وسجل الرحالة استرابون للأنباط مآثرة تذكر لهم ، فروى عن فيلسوف إغريقى كان يرتبط به برابطة الصداقة ، أنه نشأ بين الأنباط ورأى كثيراً من الأجانب يعيشون في عاصمتهم ولاحظ كثيراً من المنازعات تدور بين أولئك الأجانب على حين لاحظ قلة المنازعات بين السكان الأصليين وميلهم إلى حياة السلام ربما لصالح نشاطهم الاقتصادى .

وعبر الأنباط عما استطاعوا استيعابه من فنون الحضارات المتنوعة التي اتصلوا بها فيما تركوه من آثار معمارية حفلت بها مدينة بئرا في الأردن ، ومنطقة مغاير شعيب وواحة البديع في أرض مدين . ثم مدائن صالح إلى الشمال من واحة العلا . ونكتفي هنا بآثار هذه المنطقة الأخيرة أى مدائن صالح . وترجع أهم آثارهم فيها إلى ما بين القرن الأول قبل الميلاد وبين القرن الأول بعد الميلاد . وتتمثل هذه الآثار في نحو مائة مقبرة نحنت وشكلت واجهاتها في السفوح الجبلية بالمنطقة . وتفاوتت فيما بينها في أحجامها وى مدى فخامها ، وامتازت مجموعة منها بمثل مقابر كبار الأثرياء بالفخامة والروعة والارتفاع حتى شابهت واجهات القصور . وإن لم يوجد في بيئتها من آثار بقايا القصور الدنيوية شىء ما يرقى إلى مستواها . وقد جمع طرازها المعمارى وزخارفها بين الأسلوب المحلى وبين أساليب مصرية وهيلينستية ورومانية . ولازال أهل المنطقة يصرون على تسمية أمثال هذه المقابر الفخمة القديمة باسم القصور ، وذهب خيالهم في تصور أصحابها كل مذهب . فهذا في زعمهم قصر البنت ، وذاك قصر أبى البنت ، وثالث قصر الصانع ، ورابع أطلقوا عليه اسم المجلس . وهلم جرا . أما النصوص النبطية التي نقشت على واجهات هذه المباني فهي لا تترك مجالاً للشك في كونها مقابر . ولكنها مقابر تذلل على ما بلغه أهلها من تنعم وثناء وما بلغه عصرها من تحضر ورخاء .

ويوجد في نفس المنطقة معبد استغل الأنباط له مغارة طبيعية في جوف صخرة ذات قمة تشبه القبة . وشكلوها على هيئة بهو كبير (١٢×١٠ أمتار) . يطلق الأهالي عليه اسم الديوان . وأخذ الأنباط بما أخذ به أغلب العرب قبل الإسلام من تقديس هبل والعزى واللات وذى الشرى وشيع القوم . . . إلخ .

وبعد هذا التاريخ الحافل ، الذي تضمنت بئرا في الأردن أضعاف ما تضمنته مدائن صالح من آثاره . قضى الرومان على استقلال الأنباط حوالي عام ١٠٦ بعد الميلاد وسيطروا على عاصمتهم بئرا في عهد الامبراطور الروماني تراجان . وتحولت أرضهم بعد ذلك إلى مجرد ولاية خضعت للنفوذ الروماني واندمجت فيما سمي باسم الولاية العربية Provincia Arabia وإن خصوها بعد ذلك هي والأراضي التي تقع إلى جنوبها باسم منطقة بئرا العربية أو المنطقة العربية الصخرية Arabia Petraea ، وبعد أن كان الأنباط يؤرخون نصوصهم في عهود استقلالهم باسماء ملوكهم وسنوات حكمهم ، أصبحوا يؤرخونها ببداية تبعية دولتهم لامبراطورية الرومان .

وعلى أية حال فقد انتشرت النصوص النبطية القصيرة في عهود استقلال أهلها ثم في عهود حكم الرومان لأرضهم أيضاً ، في مناطق كثيرة متباعدة دلت على سعة انتشار أصحابها مع مسالك التجارة . فوجدت في أماكن متعددة من شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها . وفي جنوب الشام . وفي سيناء ، وفي صعيد مصر ، بل ووجدت نصوص قليلة في نابولي وروما في إيطاليا . وهذه الأخيرة نصوص ربما تركها أصحابها تذكيراً لزيارتهم لعواصم الامبراطورية الرومانية أو خلال فترات تجنيدهم في جيوشها . وقد فعلوا نفس الشيء لبعض الوقت في ظل الامبراطورية البيزنطية الشرقية التي ورثت الرومان في حكم الشرق . وظل كيان الأنباط واضحاً حتى القرن الرابع الميلادي ثم اندمجوا بعد ذلك فيمن خالطوهم من السكان في المناطق العربية وغير العربية .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- Abdel-Aziz Saleh, Some Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style. Bull. of the Faculty of Arts, Cairo Univ., 28, 1970, 1—31.
- Albright, W.F., Dedan, 1953.
- Branden, A. van den, Les Inscriptions Thamoudéennes, 1950; Histoire de Thamoud; Essai de Solution de Probleme Thamoudeens, BR, 1958, 7-12
- Cantineau, J., Le Nabateen, Paris 1931 f.
- Caskel, W., Lihyān und Lihyānisch, 1953.
- Hammond, Ph. C., The Nabataeans..., 1973.
- Kennedy, A.B., Petra, its History and Monuments, London 1925.
- Krammer, A., Petra et la Nabatene, Paris 1929.
- Jaussen et Savignac, Mission Archéologique en Arabie, 4 vols, Paris, 1904-1920.
- Philby, The Land of Midian, 1955.
- Riddle, J.M., Political History of the Nabataeans..., 1961.
- Starcky, J., The Nabataeans, 1955.
- Winnett, F.V., A Study of the Lihyānite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.
-

الفصل الرابع عشر

من ممالك الأطراف العربية

أولا — مملكة الحيرة

نسبت هذه المملكة العربية إلى تنوخ تارة ، وإلى لخم تارة ثانية .
وسمى ملوكها باسم بنى نصر تارة واسم المناذرة تارة أخرى . وكان
لكل تسمية من هذه التسميات ما يبررها في مرحلة ما من مراحل تاريخ دولتها .
وكان لقبائل تنوخ دورها في قلب شبه الجزيرة العربية ، كما انتشرت
بطونها إلى ما بين بادية العراق وبادية الشام منذ القرون الميلادية الأولى .
وتعين عليها خلال هذا الانتشار أن تحسب حساب دولة تدمر القوية التي
أشرفت على طرفي التجارة في الباديتين وحقت لنفسها شهرة كبيرة تجاوزنا
عن دراستها هنا حيث هي أقرب إلى الدراسة مع تاريخ بلاد الشام لصلتها
الوثيقة بأحداثها وثقافتها الأرامية التي بينا وبين أصولها العربية .

ويبدو أن الأمور لم تسر هينة دائما بين الفريقين ، التدمريين والتنوخيين ،
مما انعكس صداه على مآصورتهم الروايات العربية من تنافس ومكاند بين
ملكة تدمر التي أطلقت عليها تجاوزا اسم الزباء وبين ملك تنوخ جذيمة
الأبرش . وأحاط الغموض بالتفاصيل الفعلية لهذا التنافس لاسيما وأن الروايات
العربية قد اختلفت في تصويره وخلعت عليه ثوب الأساطير . ولكن التاريخ
قد سبل إلى جانب هذا أن دولة تدمر أتت خاتمها على أيدي الجيوش الرومانية
في عام ٢٧٣ م . مما كان من شأنه أن يفسح السبيل أمام التنوخيين ليحاولوا
القيام بدور التدمريين وأن يجربوا حظهم مع الدولتين المتسيطرتين على شئون
الشرق حينذاك وهما دولة الفرس الساسانيين ودولة الرومان .

ودل على الحالة الأولى للتنوخيين . أي حالة انتشارهم في بادية الشام

وبادية العراق مصدران . فذكر الجغرافى بطليموس السكندرى فى القرن الثانى الميلادى اسم شعب يشبه اسم التنوخيين وهو Tanuetiac or Thanuitae بين إمارات أو شعوب شمال غرب شبه الجزيرة العربية . كما عثر فى قرية أم الجمال بشرق الأردن على نصب أقيم على قبر رجل يدعى فهر بن سلى تلقب بلقب « مربى جذيمة ملك تنوخ » .

وكان الملك جذيمة هذا الذى أشار النص إليه من أوائل ملوك تنوخ الذين احتفظ المؤرخون المسلمون بذكرهم . وجعلوا من قبله على رئاسة تنوخ مالكا بن فهم الذى يحمل أن يكون تلاه عمر بن فهم . أو تلاه جذيمة نفسه . ولقبوا جذيمة بالأبرش والوضاح ونسبوا إليه فتوحات واسعة ، ووصفوه بأنه كان « ثاقب الرأى ، بعيد المغار . شديد النكاية ، ظاهر الحزم ، وأول من غزا بالجيوش ، فشن الغارات على قبائل العرب » . ولو أن بعض هذه الأوصاف قد خلعت أيضاً على غيره من كبار الملوك . أى أنه ليس من ضرورة إلى التسليم بحرفيتها . ثم جعلوا نهايته فى مكيدة دبرتها له ملكة تدمر واحتفظ الأدب العربى بذكرها .

وإذا صح ما رواه بعض المؤرخين المسلمين من أن ملك جذيمة قد امتد « فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها رعين البر وأطراف البر إلى الغمر والقطقطانة وخفية وما والاها » ، لدل ذلك على أن قومه قد بدأوا محاولتهم مع الفرس فى عهده أو من قبيل عهده ليسمحوا لهم بأن يقيموا على أطراف العراق .

وأضاف المؤرخون المسلمون ما يعنى أن هذه الإقامة لم تتم بسهولة حيث ضاق الفرس بكثرة من أتت تنوخ بهم من العرب ، فضيقوا عليهم حتى كره بعضهم الإقامة ، ومنهم قضاة ، فنزحوا ، وبقي بعض آخر عملوا على أن يثبتوا أقدامهم فيما نزلوا عليه ، وكان منهم نحم وترأسهم حينذاك ملوك بنى نصر الذين جعل المؤرخون أولهم عمرا بن عدى ، واعتبروه من أقرباء جذيمة وقد يكون ابن أخته .

ومع هذه الرغبة فى الاستقرار أخذ عمران الأنبار والحيرة فى الاتساع ،

وكانت كل منهما مدينة حدودية دل اسمها على ما أنشئت في الأصل من أجله فنشأت الأنبار (بمعنى المستودع) كمركز حدودي لإمداد الحاميات العسكرية بالموث ، منذ القرن الميلادي الأول ، ثم اتسعت ودعمت أسوارها . وقامت الحيرة بدور مشابه ففسر اسمها الأرامي « حيرته » بنفس ما فسر به اسمها العربي « الحيرة » بمعنى الخيم والمعسكر والحصن وموضع الإقامة . . . إلخ . ويبدو أنها كانت أقدم عهدا من الأنبار ، كما قدر لها أن تصبح أكثر شهرة منها .

وصور انطلاقة هؤلاء القوم في مرحلتهم الثانية لكي يتزعموا من حولهم من العرب والأعراب ولكي يشغلوا في بادئي العراق والشام ما كانت تشغله من قبل دولة تدمر ، ويستفيدوا من كل من الفرس والرومان ثم الروم ، نص للملكهم امرئ القيس بن عمرو المتوفى في عام ٣٢٨ م . وجد منقوشا بالخط الأنباطي المتطور على نصب أقيم فوق قبره في منطقة الهارة (إلى الجنوب الشرقي من دمشق) ، وقيل فيه عن صاحبه إنه كان ملكا على العرب كلهم وأنه أحرز التاج وحكم الأسديين والنزاريين والمعلديين . وشتت قبائل مذحج ، وحاصر نجران مدينة شمر ، وولى أولاده على القبائل واستعان بهم الفرس والروم (أو جعلهم غرسانا للروم) .

وقد أسلفنا في الفصل العاشر . أن امرأ القيس هذا قد عاصر أواخر أيام ملك عربي جنوبي لا يقل عنه اقتدارا وطموحا وهو شمر يهرعش الثالث ملك سبأ وذو ريدان . وكانت جيوش شمر قد انطلقت من نجران إحدى قواعده العسكرية فتحالفت مع قبائل مذحج في منطقة الأفلاج في وسط شبه الجزيرة العربية وعملت على التوسع في المنطقة الشرقية على الخليج العربي وأطراف العراق . وعندما ما ظهرت قوة امرئ القيس شن هجومه المضاد فشنت قبائل مذحج حلفاء شمر يهرعش وحاصر نجران التابعة له . ولعله وجد العون أو وجد الخضوع من قبائل عربية متفرقة مما سمح له بأن يدعى في نصه حكم قبائل أسد ونزار ومعد .

وشيثا فشيثا اكتفى اللخميون بالولاء للفرس دون الرومان ، وتقبل الفرس

استقرارهم في الحيرة وفي الأنبار وما حولهما ليعدّلوا الكفة في مقابل ملوك الطوائف في العراق ، ويقوموا بدور الدولة الحاجزة لحماية الحدود وقوافل التجارة من شغب أبناء عمومتهم من بدو الصحارى .

ونجح ملوك الحيرة في القيام بدورهم . وثبت أقدامهم ما يروى من أن يزدجرد ملك فارس قد ائتمن النعمان الأول ملك الحيرة (٣٨٨ — ٤١٨ م) على تربية ولده بهرام جور في ظاهر الحيرة . فرباه مع ولده المنذر ، وقيل إنه أدبه بآداب العرب . وكانت فرصة ذهبية لتقارب البيتين الحاكمين . وازدادت من جرائها سيطرة النعمان وزاد جيشه واتسع ثراؤه ونسب إليه إنشاء قصر الخورنق . وزاد في الوقت نفسه ولاؤه للفرس وشن الغارات باسمهم على حدود أملاك الروم في بلاد الشام . وإن روى بعض المؤرخين أنه زهد في نهاية حياته وتنسك وترك لولده المنذر ملكا مكينا . وعندما توفي يزدجرد في عام ٤٢١ م أراد عظماء الفرس أن يقصوا أولاده عن عرشه ، فاستغل المنذر الفرصة وانتصر لبهرام جور وعاون به بفرقة العربية الضاربة « دوسر » أو بفرقتين ، على بلوغ عرشه ، وحمد بهرام جور له هذه المبادرة وردّها إليه مضاعفة وخلع عليه لقبين تشريفيين لا بد أنهما اعتبرا مكرمة منه تزيد من سمعة المنذر بين الفرس والعرب (وهما : رام أفزود يزدجرد بمعنى الذي آزاد سرور يزدجرد ، ومهشت بمعنى أعظم الخول) .

وأظهر عرب الحيرة كفايتهم في قتال جيوش الروم وحلفائهم ، وخدم تارة وفي صفوف الفرس تارة أخرى . وكان أشد ملوكهم ضرابا ونجاحا المنذر الثالث (٥١٢ — ٥٥٤ م) الذي نسبته المؤرخون المسلمون إلى أمه ولقبوه بلقب ابن ماء السماء ، ورأى بعض الباحثين أن اسم ماء السماء هذا يحرف عن اسم ماوية أو مارية ، كما أطلقوا عليه لقب ذى القرنين ربما لأنه كان يرسل ضفيرتين على جانبي رأسه ، أو لرغبتهم في تشبيهه بذي القرنين نظرا لاتساع فتوحه مثله .

وتتابعت حروب المنذر على فترات منقطعة منذ عام ٥١٩ حتى عام ٥٥٤ م ، أي خلال ٣٥ عاما . ونستطيع أن نتجاوز عن تفاصيلها لنذكر

ما يروى من أنه استطاع في أوائلها أن يكتسح بادية الشام من حدود العراق إلى أنطاكية ، الأمر الذي جعل قيصر الروم يوفد إليه رسله من القساوسة ليفاوضوه في إطلاق بعض من أسره من قاداته الكبار أو يقنعوه بقبول الهدنة أو يغروه بالانقلاب على الفرس والانضمام إلى صفوفهم .

واتصلت أسباب المودة بين المنذر وبين ذى نواس الحميرى كما أسلفنا في الفصل العاشر . وابتغى هذا الأخير أن يخالفه ، ولكن تصادف أن وصلت رسالته في حضور قساوسة الروم عند المنذر ففسروها بأنها تحريض منه ضد نصارى الحيرة . وألبوا العالم المسيحي عليه . وعندما احتفل أبرهة الحبشى بانتهاء العمل في إصلاح سد مأرب أوفد المنذر إليه مندوبا عنه لحضور حفلته (في عام ٥٤٣ م) . وهكذا خرج عرب الحيرة بشهرتهم عن نطاق الإقليمية والتبعية .

والواقع أنه لم يفسد على دولة الحيرة أمرها في عهد المنذر الثالث إلا دواؤها افرية من العرب ، وهم الغساسنة وبنو كندة . فكان كل منهم أدري بحرب الآخر ، وكل منهم يعرف عن أسرار الصحراء ودروبها ما يعرفه الآخر .

رمان تلى رأس بنى نسيان نياما يعاصر عهد المنذر ، الحارث بن جبلة ، ولم يكن أقل جرأة واقتدارا منه ، فاتصلت الحروب بينهما للأسف أكثر مما اتصلت بين الروم وبين الفرس ، وعقد الروم والفرس أكثر من هدنة وصلح . ولكن المنذر والحارث لم يعترفا بهدنة أو صلح ، وكما غزا المنذر أرض الشام غزا الحارث أرض الجزيرة في العراق ، وهكذا أعمت المطامع بصيرة هذين الزعيمين ، وانتهى الأمر بقتل المنذر حوالى عام ٥٥٤ م في موقعة حليلة أو موقعة الحيار قرب قنسرين كما سيرد تفصيله بعد قليل .

أما قبائل كندة فقد غدوا حينذاك قوة يخشى بأسها في قلب شبه الجزيرة العربية كما سنتناول ذلك بعد صفحات ، فاستغل الفرس طموحهم لإضعاف شوكة ملك الحيرة بعد أن ارتفع شأنه وتوقعوا أن يؤدي به طموحه إلى الاضرار بمصالح دولتهم أو الخروج عن طاعتها ، فتركوه يستنفذ قواه ضد الحارث

ابن عمرو ملك كندة ثم عزلوه . وولى قباز ملك فارس الحارث الكندى على الحيرة فى حوالى عام ٥٢٤م — ولجأ المنذر إلى بعض القبائل العربية التى بقيت على الولاء له وخرجت عن نفوذ كندة . ثم استرجع حكم دولته بعد أربع سنوات ، وظل العداء قائما بينه وبين كندة بعد فشل الحركة المزدكية .

ونعاقب على حكم الحيرة عدة ملوك اشتهر منهم عمرو بن هند (٥٥٤م — ٥٧٤م) الذى ألبح الأعشى فى شعره إلى أن نفوذه امتد ما بين عمان وبين ملج (فى أرض اليمامة من بلاد بنى جعدة) . وكان قد استغل ضعف كندة فوسع نفوذه على حسابها وتحاربت قواته مع تميم وطى وتغلب وغيرها .

واشتهر كذلك النعمان بن المنذر (٥٨٣ — ٦٠٥م) الملقب بالقب أبى قابوس ، واشتهر أمره عند المؤرخين العرب بأقاصيص كثيرة ووصفه بفصاحة اللسان على الرغم من دماة خلقتة . وكان بلاطه مجمعا لل شعراء فدحه المقربون إليه منهم (وأهمهم النابغة الذبياني) وهجاه المبعدون عنه . وحاول أن يمد نفوذه من البحرين شرقا إلى جبل طى غربا . غير أن الحروب التى شنها لم يكتب له التوفيق فى أغلبها سواء ضد الغساسنة ، أم ضد القبائل العربية الأخرى . فذكرت الروايات أن جيوشه انهزمت أمام بنى يربوع مرة ، وأمام بنى عامر مرة ، وأمام تغلب مرة أخرى . وكذلك كان حظه سيئا مع كسرى ملك الفرس بعد أن أوقع خصومه بينه وبينه ، فتمكن كسرى منه وسجنه . وتفرق أنصاره عنه ، ومات فى سجنه .

كان النعمان الثانى هو آخر الملوك العظام فى الحيرة ، وقد اختلف أولاده على الحكم . بعد موته ، واستغل كسرى ملك الفرس اختلافهم فولى على الحيرة ملكا من غير أسرته وهو إياس بن قبيصة الطائى وكان من كبار عرب العراق الذين أقطعهم الفرس إقطاعات واسعة ، ووثق به كسرى كما ووثق به النعمان نفسه وجعله نائبه ، فلما ولى الحيرة فى عام ٦٠٥م عاون جيوش الفرس ، ضد جيوش الروم ليثبت أنه ليس أقل كفاية من المناذرة فى نصرته . ولكن التوفيق جانبه فى علاقاته بأهل الحيرة وجيرانها بحيث قيل إنه أمضى أغلب عهده القصير الذى لم يزد عن تسع سنوات (حتى ٦١٤م)

خارجها . وتجرات القبائل العربية على حدود العراق في عهده سواء بتحرير أنصار المناذرة أو لاضطراب الأمور في فارس نفسها .

وحدث أن نشبت حينذاك موقعة خالدة بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين أعوان الفرس ، وكان إياس هو مندوب كسرى في قيادة أعوانه من الفرس والعرب الحاضعين له ، فانهزم هو وجنوده . وكانت هزيمتهم بمثابة ضربة لسمعة فارس نفسها ، ولعلها كانت من الآيات المبشرة للعرب بأن الاستبسال يمكن أن يعوض قلة العدد في مقاومة إحدى الدولتين الكبيرتين اللتين حكمتا الشرقين الأدنى والأوسط في ذلك الحين وهي دولة الفرس .

اشتهرت واقعة هذه الحرب باسم واقعة ذي قار . وقص المؤرخون المسلمون من أخبارها أن النعمان الثاني حينما تخوف من غدر كسرى به ترك بعض ودائعته من الأموال والأسلحة عند هاني بن مسعود الشيباني (أو هو هاني بن قبيصة بن مسعود في رواية الطبري) أحد رجالات ربيعة وبكر بن وائل ، فلما مات النعمان في سجن الفرس كلف كسرى إياسا بن قبيصة عامله على الحيرة بأن يستردها من هانيء فرفض هذا الأخير أن يفرط فيما أوّتمن عليه . فأمر كسرى بإعداد جيش من الولايات الفارسية والعربية الحدودية وأمر عليه إياسا بن قبيصة كما ذكرنا . وتلاقى هذا الجيش مع قبائل بكر وحلفائها في منطقة ذي قار على مبعدة قليلة من الحيرة . واستظهر الفرس وأعوانهم على العرب في يومهم الأول نظرا لكثرة أعدادهم وما استعانوا به من الفيلة ، ولتبيب بعض العرب منهم . ولكنهم ما لبثوا حتى جزعوا من شدة الهجير واحتمل تعرضهم للعطش فتقهقروا وكانت بداية النصر للعرب فتبعوهم وشاركت النساء الرجال في شحذ العزائم . بل وصحبت ضماير بعض القبائل العربية المظاهرة للفرس فاستعدت للتمخلى عنهم حين يجد الجدد ، وفي بطحاء ذي قار توالى أيام قليلة وجليلة تحطمت فيها عزائم جيوش الفرس وأتباعهم من شدة هجمات العرب وشدة العطش حتى هزموا هزيمة منكرة في عام تفاوتت آراء المؤرخين في تحديده بين ٦٠٩ م و ٦١١ م .

وعن هذه الموقعة قال الرسول صلى الله عليه وسلم « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبني نصرورا » .

وليس ما يعرف عن مصير إياس بن قبيصة بعد هذه الموقعة إن كان قد استمر على حكم الحيرة لفترة بعدها أم عزله كسرى بعد أن خاب أمله في إخلاص العزب لحكمه . وعلى أية حال فقد حكمت الحيرة ١٧ عاما أو نحوها (٦١٤ - ٦٣١ م) بحكم فارسي مباشر ، ووليها فارسي يدعى آزادبة عجز عن أن ييسط نفوذه على ما في خارجها - كما نافسه في عامه الأخير شاب من نسل المناذرة يدعى المنذر ويلقب بالمغرور ، ثم أتت نهايتهما معا بالفتح الإسلامي في عام ٦٣٢ م أو ٦٣٣ م .

تلك كانت الخطوط العامة للاتجاهات السياسية والحربية لدولة الحيرة . أما حياتها الاجتماعية ، فأهم ما يذكر لها أنها جمعت بين تقاليد العرب وبين رفاهة الفرس ، فتتوج ملوكها بالتيجان على عادة الأكاسرة ، وأمروا بالحجاب بينهم وبين الناس مثلهم ، واتخذوا الروادف أشباه الوزراء أو النواب ، وفتحوا بلاطهم للأدباء والشعراء . أما عاصمتهم فاتسعت هي وماحولها لطوائف شتى ، من اللخمين أهل الطبقة العليا ، والأحلاف الذين لحقوا بهم ، والعباد من النصاري ، وجماعات من أهل العراق الأصليين ، وجاليات وموظفين كبار من الفرس ، فضلا على أعراب الضاحية أصحاب المظال ومضارب الشجر والوبر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر في الحيرة وانتشروا حولها .

وتعددت الحرف بتعدد هذه الطوائف بين الزراعة والرعي والتجارة والصناعة ومنها صناعات النسيج المتنوعة ، وكان أفخرها يطرز بالقصب وسلوك الذهب ، وصناعات الحلى والأسلحة وماعداها .

وتعددت المذاهب الدينية بين الوثنية والمجوسية والزرادشتية الفارسية واليهودية والمسيحية . ووجدت المسيحية مجالا رحبا بين هذه الديانات وأخذت بالمذهب النسطوري أكثر من المذهب اليعقوبي ، وأقيمت من أجلها أديرة عدة ، وعرف أتباعها باسم العباد أو العباديين ربما نسبة إلى لفظ عبادة الذي يربط بين الإنسان وبين ربه أو نسبة إلى كلمة عابد .

وكان لموقع الحيرة واتصالاتها التجارية والظروف التي أدت إلى احتكاك أهلها بغيرهم من الإمارات والجماعات سلما وحربا ، أثر في انتفاعها بالثقافات العراقية والآرامية السريانية والفارسية والبيزنطية فضلا على العربية ، وكان فيها كتبة كثيرون يكتبون بالخط الآرامي الشرقي ، وكتائب تعلم الصبية ويلحق بعضها بالأديرة .

ونسب المؤرخون المسلمون إلى ملوك الحيرة كثيراً من القصور ، فنسبوا إلى أحد النعمانين النعمان الأول أو الثاني بناء قصر الخورنق بظاهر الحيرة كما تقدم . بينما رد بعض الباحثين المحدثين تشييده إلى عصر أقدم من عصر استقرار اللخمين في الحيرة ، ثم زاد عليه ملوكهم ، وقيل إن بعض أجزائه وبقائه ظلت قائمة لفترة طويلة في العصور الإسلامية بعد أن جددت أكثر من مرة . ونسبوا إليهم قصر السدير ويمثل بقبابه الثلاثة المتجاورة نموذجاً لفن البناء الحيري ، ويتألف مجلسه الرئيسي من إيوان يحف به كمان أو قاعتان . ونسبوا إليهم قصورا كثيرة أخرى تتفق مع ما علموه عن ثرائهم وتحضرهم ، ولم يتركوا قصرا منها يدون قصة أو أسطورة دارت حوله وميزته عن غيره . ونسبوا إلى أحد النعمانين قصة سمار البناء وجزائه المشثوم ، وقصة يوم السعد ويوم البؤس ، وتحدثوا عن مقتل عبيد بن الأبرص في يوم البؤس ونجاة حنظلة الطائي في اليوم نفسه . وما إلى ذلك مما زخرت به كتب الأدب العربي وعبرت فيه بالشعر والنثر عن كثير من النواحي الطيبة والنواحي السيئة في الحياة العربية قبل الإسلام . ورووا أن النعمان الأول تنسك وساح في الأرض . وأن المنذر بن ماء السماء تنصر ، وأن النعمان الثاني ولد من أم ذات أصل يهودي .

وعلى الجملة ظلت أيام ملوك الحيرة مجالا خصيا لرواة العرب يمزجون فيها بين الواقع وبين الخيال ، نظرا لمسا تواتر إليهم عن ثرائهم ورفاهيتهم وقوة جيوشهم وقوافلهم ، واتصالاتهم بالدولتين الكبيرتين دولة الفرس بالتبعية ودولة الروم بالعداء ، وهي صفات لم يكن ينافسهم فيها من ملوك العرب الشماليين أكثر من ملوك بني غسان .

ثانياً - دولة الغساسنة

قام الغساسنة على أطراف جنوب الشام وما يمتد حتى منطقة الجولان جنوبي دمشق بمثل الدور الذي قام به اللخميون المناذرة على أطراف العراق .
أى بتكوين دولة حاضرة ووسيلة على أطراف بادية الشام تدين بالولاء لدولة الروم البيزنطية وتنفع منها وتعمل باسمها : وكانوا أحدث عهدا من المناذرة بنحو قرنين من الزمان . كما كان أتباعهم أقل استقرارا في حواضرهم من أهل الحيرة . وربما كانوا أقل تراء وبذخا أيضاً من المناذرة . وأخذ المسيحيون منهم بالمذهب المونوفيسيّ اليعقوبى دون المذهب النسطورى الذى أخذ به أغلب مسيحيي الحيرة .

أطلق المؤرخون المسلمون على القبائل التى انتسب الملوك الغساسنة إليها اسم آل جفنة وآل ثعلبة فضلا عن آل غسان . وذكروا أن غسان كان اسم ماء نزلوا عليه فسموا باسمه . وأضافوا أنهم نزلوا في جنوب الشام بجوار قبائل عربية قوية تدعى قبائل الضجاعة ، وهى من قضاة ، استخدمها الروم البيزنطيون في حماية حدود أملاكهم الصحراوية . فخضع الغساسنة لها حيناً وتألّبوها حيناً حتى أجلوها عن مواضعها ففرقت وورثوها في أرضها وفي شهرتها ، وحينذاك أقرهم الروم على مكانتهم التى حصلوا عليها بسيوفهم . ليعملوا باسمهم على مناطق الحواف وفي قوافل التجارة . وكانوا يخصصون لهم بعض موارد الشام المالية ليستعينوا بها في تقوية إمارتهم ونفقات جيوشهم .

ودكر المؤرخون عددا كبيرا من الحكام الغساسنة تراوح بين الأجيال عشر وبين الاثنين والثلاثين ، وخلعوا عليهم ألقاب الملوك . ولكن يذهب الترجيح إلى أن عددا من حكامهم الأوائل لم يكونوا أكثر من مشايخ قبائل كبير خلع البيزنطيون عليهم لقب *Phylarchos* بمعنى والى ، ولقب *Patricius* بمعنى أب أو بطريق (١) وهكذا كان شأن أواخرهم الذين لم يزد أمرهم عن كونهم أمراء أو شيوخا وإن أطلق عليهم الرواة ألقاب الملوك .

(١٢ م - تاريخ شبه الجزيرة العربية)

ولم يتضح شأن الحكام الغساسنة في المحيط السياسي قبل أوائل القرن السادس الميلادي ، وكان أشهر من احتفظت الروايات البيزنطية والعربية بأعماله منهم الحارث (الثاني) بن جبلة . وولده المنذر .

طال حكم الحارث الثاني ابن جبلة واحدا وأربعين عاما (٥٢٨ — ٥٦٩ م) . عاصر فيها الامبراطور يوستينيانوس (أو جستنيان) في بيزنطة ، والمنذر الثالث ملك الحيرة . وكان كفتا لهذا الأخير طموحا مثله بدأ حروبه معه منذ العام الأول من حكمه (٥٢٨ م) ليس فقط كممثلين للدولتين الكبيرتين المتنافستين دولة الروم ودولة الفرس . ولكن للتنافس بينهما كذلك على السيطرة على المناطق التي أطلقت المصادر البيزنطية عليها اسم Strata وتمتد فيما يرى نولدكه على جانبي الطريق الحربي من دمشق حتى سرجيوس إلى الشمال من تدمر . وتعاقبت الانتصارات والهزائم بين الجانبين وكانت ضارية عنيفة كما أسلفنا في الحديث عن تاريخ المناذرة ، وبحيث قيل إن المنذر أسر ولدا للحارث في عام ٥٤٤ م وذبحه قربانا للعزى ، وأسر الحارث ولدين للمنذر في موقعة أخرى في العام نفسه — واستمر الحال هكذا حتى قتل المنذر قرب قنسرين عام ٥٥٤ م ، وقتل في نفس الموقعة ولد آخر للحارث . ومع ما كان في هذا التنافس من دمار مؤسف للقوتين العربيتين ، ازداد سلطان الحارث مؤقتا في أرضه وامتد نفوذه من جنوب الأردن حتى الرصافة في شمال بادية الشام ، واشتهرت من مدن دولته البلقاء والصفاء وحران . ولقب نفسه بلقب ملك وقيل إنه تتوج بتاج عوضا عن الإكليل الذي سمح الروم به لأسلافه ، حتى لا تكون لخصومه المناذرة ميزة عليه ، وربما أقره الامبراطور البيزنطي على لقبه وتاجه حين زاره في القسطنطينية عام ٥٦٣ م ليستأذنه في تعيين خليفته المنذر ، ونعلق هذا على الاحتمال لاختلاف المؤرخين بشأنه .

على أن الواقع أن العلاقات بين الروم وبين الحارث الغساني لم تكن خالية من الشوائب دائما ، فهو وإن أخذ وقومه بالمسيحية مثلهم إلا أنه كان يأخذ بالمذهب المونوفيسي البعقوبي وينصرة كما أسلفنا دون المذهب

الذى يناصره الروم ، وكان فى هذا ما أثار حفيظة بعض قساوسة الروم ضده وشكهم فى ولائه لهم . وقد اتهموه بالخيانة خلال اشتراكه مع جيش بليزاريوس فى حرب الفرس فى عام ٥٤١م حين تراجع عن صفوف الحملة بعد أن عبر معها نهر دجلة ، إما عن أنفة من التبعية له فى الجيش أو نتيجة لخصومة شخصية بين القائدين .

وأعقب الحارث ولده المنذر (٥٦٩ - ٥٨١م) الذى لاندري كيف سماه باسم خصمه -- فتوالت حروبه مع النعمان ملك الحيرة وتعاقبت الانتصارات والهزائم بينهما كما حدث فى عهد أبويهما . فانتصر على اللخمين فى موقعة عين أباغ قرب الفرات فى عام ٥٧٠م . ولكنه لم يستمتع بنصره طويلا حيث غدر به الامبراطور يوستينوس (جوستين) الثانى ولم يكن يطمئن إليه فحرض عليه والى سوريا البيزنطى ليعمل على قتله . ولم يكن هذا والى أقل حقدًا منه عليه ، ولكن المنذر استطاع النزوح بجزء من جيشه إلى البادية ورد للروم الصاع صاعين فأقلق حدودهم بإغاراته السريعة . وتشجع المناذرة بغيا به عن الميدان فأغاروا على سوريا ، الأمر الذى جعل الروم يتسامحون مع المنذر فى أواخر عهد يوستينوس الثانى . وعندما ولى الامبراطور تيبيريوس الثانى (٥٧٨م - ٥٨٢م) وزاره المنذر الغسانى فى عاصمته أقره الامبراطور على لقب الملك وسمح له بالتتوج مثل أبيه (فى عام ٥٨٠م) .

وظل سوء الظن قائما بين الطرفين يطل برأسه من حين إلى آخر . فحدث أن اشترك المنذر مع والى سوريا فى حملة فاشلة على العراق فرد الروم فشلها إليه . ولكى يثبت براءته مما نسب إليه أغار مع أعوانه العرب وحدهم على الحيرة وأهلب فيها الحريق .

وإذا كان المنذر قد فعل هذا ليرضى سادته على حساب بنى عمومته . فقد اعتبروا نجاحه فى هذه الغارة تحديا لهم ولفشلهم . ونجح أعوان الامبراطور فى هذه المرة فى القبض على المنذر ونفيه إلى صقلية . وقطع المعونة التى كانت بيزنطة تقدمها إلى دولته .

وحاول أولاد المنذر الغساني أن يتأروا له فشبت المنازعات بينهم وبين البيزنطيين . وكان على رأسهم أخوهم الأكبر النعمان ، الذي سماه أبوه باسم نصمه أيضاً . ولكن محاولاتهم لم تجد وتشتت شمل أسرهم الحاكمة منذ عام ٥٨٣ أو ٥٨٤م فقدت ملكها الواسع وهبط زعمائها الكبار إلى مرتبة الإمارة وترأسوا مناطق متفرقة من ملكهم القديم — وقيل إن بعضهم مال إلى جانب الفرس نكايه في الروم . وأضعف من آمان الغساسنة في استرجاع مجدهم استيلاء جيوش الفرس على بلاد الشام في عام ٦١٣م . ولم يكن من المنتظر أن يطسئوا إليهم بعد عداوتهم القديمة لهم ولحلفائهم . ثم سنحت الفرصة للغساسنة من جديد بعد نجاح جيوش هرقل قيصر الروم في إجلاء جيوش الفرس عن الشام في عام ٦٢٩م . ويبدو أن سياسة الروم أدركوا أن لا أمان للأطراف الصحراوية وقوافل التجارة البرية إلا إذا عادت الزعامة إلى أهلها من الغساسنة . ومن هنا ظهرت أسماء أمراء جدد عاصروا ظهور الإسلام ومنهم الحارث بن أبي شمر الغساني أمير مؤتة الذي أرسل الرسول عليه السلام إليه مع شجاع بن وهب في العام السادس للهجرة بكتاب يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق . وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له . يبقى لك ملكك » . وأبى الحارث الإسلام . فسبر الرسول عليه السلام حملة صده بقيادة زيد بن حارثة الكلبي .

ثم جبلة بن الأيهم آخر الأمراء الكبار من الغساسنة ، وقد عاصر الفتح الإسلامي للشام . وقيل إنه أسلم في عهد عمر بن الخطاب ثم ارتد عن الإسلام لأسباب اختلفت روايات المؤرخين بشأنها .

تنقل الغساسنة في أيام ازدهار دولتهم بين أكثر من عاصمة ، وذكر المؤرخون المسلمون من عواصمهم جلق (التي قد تكون جلين الحالية أو الكسوة على بعد عشرة أميال جنوب دمشق) ، والجابية في منطقة الجولان ولا زالت البوابة الغربية لدمشق القديمة تسمى باسمها .

وبعد أن تحضرت جماعات بني غسان في بلاد الشام . أولت

اهتمامها لمشروعات الري والزراعة واستفادت منها لاسيما في إقليم حوران ، بحيث ذكر لها نحو ثلاثين قرية . غير أن أمور الحرب وحماية القوافل وتجارة الوساطة ظلت هي الغالبة على أوجه نشاطها .

واشتهرت من مدن التجارة الخارجية ومراكز القوافل في أيامهم مدينة بصرى عاصمة إقليم حوران ، وقيل إن الرسول عليه السلام قصدها للتجارة مرتين في شبابه وقابل فيها بحيرا الراهب . وكانت من مراكز الحضارات الهيلينية والرومانية القديمة .

ثم مدينة الرصافة شمال تدمر . وقد جدد الفساسنة كنائسها وأديرتها واشتهرت بقديسها المسيحى مارسرجيوس الذى خلع اسمه عليها فسميت Sargio-Polis وكان نصارى الشام يقيمون به وبصورته ويعبدون أبناءهم في كنيسته . ولا زالت أطلال بوابات الرصافة القديمة وصهاريج مياهها قائمة ، على الرغم من تخريب جيوش الحيرة لها أكثر من مرة ، وفعل توالى الأزمان عليها .

وانتفعت حضارة الفساسنة بالحضارات الشامية المحلية والبيزنطية والساسانية فضلا على ميولها العربية . وكان شأنها في ذلك شأن الحضارة الأموية فيما بعد حينما استكملت عناصرها المتعددة في دمشق وما حولها . وترتب على ذلك أن نسب المؤرخون المسلمون آثار كل من الفساسنة والأمويين إلى الآخر . ومن أشهر هذه الآثار قصيران : القصر الأبيض بجوار منطقة البصرة . وقصر المشقى وكان يقوم في الناحية الشرقية من نهر الأردن حتى نقلت أحجاره إلى متحف برلين . وأعيد تركيبها فيه في أوائل القرن الحالى . ويذهب بعض المستشرقين إلى إرجاع المراحل الأولى في بناء القصرين إلى ما قبل استقرار الفساسنة في الشام .

وأبقى على ذكر الأمراء الفساسنة في التاريخ المسيحى ما أسلفناه من أنهم كانوا من أكبر أنصار مذهب الطبيعة الواحدة . أى المذهب المونوفيسى أو المذهب النيقوى . وكانوا ينيون عنهم قساوسهم في حضور المجامع الدينية الكبيرة التى حاولت أن توفق بين المذاهب المسيحية المتنافرة .

ونخلد ذكر أمراء الغساسنة في الأدب العربي ، شاعران ، النابغة
الذبياني الذي قصدهم بعد أن تخاصم مع ملوك الحيرة ، فكان من لطيف
وصفه لهم قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتائب

ثم حسان بن ثابت الذي يرجع نسبه إليهم ، وقد نزل بلاطهم قبل
الإسلام وحظي بإنعاماتهم ، ووصف نعيمهم وترفعهم ، حتى بعد أن خبا
نجمهم . وذكر أن نفوذهم كان لا يزال ممتد في أيامه بين حوران وبين
خليج العقبة .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- نخلد المسلي : الحيرة وعلاقتها بالجزيرة النوبية - مجلة العرب - يونيو ١٩٧٣ - ص ٨٤٧ -
٨٧٤ ، يوليو ١٩٧٣ - ص ٩٢٤ - ٩٣٥ .
ديمو (رنيه) : العرب في سوريا قبل الإسلام - ترجمه عبد الحميد الدواخلى - القاهرة ١٩٥٩ .
صالح العلى : منظمة الحيرة - مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، ١٩٦٢ .
فيليب حتى : تاريخ العرب - ترجمة بيروت ١٩٦٥ .
نولدكه (تيودور) . أمراء غسان من آل جفنة - ترجمه بيروت ١٩٣٣ .
يوسف رزق الله غنيمه : الحيرة - بغداد ١٩٣٦ .

الفصل الخامس عشر

مملكة كندة في نجد وما حولها

للقبائل كندة تاريخ قديم قد لا يتأخر نشأته عن نشأة تاريخ تنوخ . وقد امتدت أيامها حتى نافست المناذرة والغساسنة في عنفوان مجدهم . ولكن أحاط الغموض بتاريخ كندة أكثر مما أحاط بتاريخ هؤلاء وهؤلاء . ويرجع هذا الغموض إلى عدة أسباب ، أهمها أنه لم تكتشف لجماعات كندة آثار قائمة مهمة أو نصوص وميرة . وأن وجودهم في أغلب عهودهم في قلب البادية أقصاهم إلى حد ما عن معرفة المؤرخين الكلاسيكيين والبيزنطيين فيما خلا إشارات مختصرة ذكرها عنهم كل من بليني وبطليموس ونيبوس وبروكوبيوس ، ومالالاس . وثيوفانيس . ويوشع . وهي في مجملها إشارات تحمل كثيرا من الجدل . ثم إن أوائل المؤرخين والأدباء المسلمين الذين كتبوا عن كندة وملوكها تأثروا إلى حد ما بميولهم القبلية ، ونقلوا قصصها من مصادر متضاربة فخرجت أخبارهم عنها متباينة مختلطة .

واستفادت أغلب روايات المؤرخين والأدباء المسلمين القدامى من مؤلفات هشام بن محمد الكلبي المفقودة الآن للأسف وأخصها « كتاب ملوك كندة » وكتاب الكلاب الأول ، وكتاب الكلاب الثاني . . . إلخ . كما استفادت أغلب الدراسات الحديثة عن كندة مما حققه المستشرق جونار أولندر عن « ملوك كندة أو أسرة آكل المرار » في مؤلفه المنشور في عام ١٩٢٧

ثم نشرت في الأعوام الأخيرة بضعة نصوص سبأية وحميرية ألقت ضوءا جديدا على نشأة كندة وأرجعتها إلى عهود أقدم مما تخيله المؤرخون المسدومون عنها .

وسوف نبدأ بما أتت به المصادر الإسلامية القديمة ونستعين بما حققه أولندر منها . ثم نعقب أخيراً بما أضافته حديثاً قراءة النصوص الأثرية القديمة إلى المعروف عن تاريخ كندة .

رد أغلب المؤرخين المسلمين كندة إلى أصل قحطاني . ورووا أنها أقامت في بداية أمرها في شرق الين وغرب حضرموت . ثم احتدمت المنازعات بينها وبين الحضارمة إلى أن تركت موطنها ونزحت إلى الشمال . وتعاقب على كندة رؤساء لفهم المؤرخون المسلمون باللقاب الملوك ونسبهم إلى جد أعلى يدعى ثور . واختلفوا في حقيقة عددهم وفي مدد حكمهم . وبعد أمد ما تحالفت كندة مع الحميريين لتكون لهم مثل اللخميين بالنسبة للفرس . في عهد الملك الحميري أب كرب أسعد (الملقب بلقب تبع الأكبر) وأولده حسان (بن تبع) . فولى أحدهما كبيرهما حجرا بن عمرو الملقب بأكل المزار على أرض معد فنزل ببطن عاقل بنجد . وأغار بيكر فانتزع ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر . وكان أب كرب أسعد قد بلغ في هذه النواحي وادي مأسل الجصح جنوب شرق اللوادي . وسجل اسمه على صخرة فيه .

وانتشرت كندة في أرض نجد وما في شمالها وتصادمت مع الغساسنة وحلفائهم الغساسنة على أطراف الشام . كما تصادمت مع المناذرة على أطراف العراق .

وولي بعد أكل المزار ولده عمرو بن حجر الذي لقب بالمقصود ربما لحيوط همته ولأن الظروف قصرت حكمه على جزء من ملك أبيه دون ملكه كله . (فاكثى بمناطق ربيعة ومعد في نجد وتغلى عن اليمامة لأخيه) وعوض هذا القصير بصداقاته وولائه لجيرانه الحميريين واللخميين ، ومحاولته للإغارة على أملاك الغساسنة .

وخلفه ولده الحارث بن عمرو الكندي في نهاية القرن الخامس الميلادي كما يعتقد أولندر . وكان أشد صلابة منه . وامتد حكمه على قبائل بكر بن وائل التي رغبت في الاجتماع بسلطانته حين نزحت هي وقبائل تغلب من

أرض اليمامة نحو الشمال بعد أن مزقتها حرب البسوس . تريدان النزول في البحرين والعراق .

وسنحت العرص لعلو شأن الحارث الكندي نتيجة لأمرين ، وهما انتقال صيته إلى فارس بعد أن أغار أتباعه البدو على حدود العراق وحوافه الزراعية وفشلت جيوش الحيرة في إخضاعهم . ثم رغبة الملك الفارسي قباد في إيجاد منافس قوى أمام المنذر الثالث ملك الحيرة حتى لا تزيد أطماعه بعد انتصاراته الأولية على الغساسنة . وبعد أن وصل إليه رسل قيصر الروم يفادونه في فك أسراهم أو يغرونه بالانضمام إلى صفوفهم أو مهادنة أنصارهم . كما سلم القول من قبل . وربما كتغير يناسب الحركة المزدكية في فارس .

وذكر المؤرخون المسلمون أن قبادا ملك الفرس أقر الحارث الكندي على ما استوفى رجاله عليه من أطراف العراق ، وأضافوا أنه استقبله بنفسه عند قنطرة الفيوم (قرب ميت) في العراق . وبعد أن أطمأن قباد إليه عزل المنذر الثالث وولى الحارث الكندي على أطراف العراق فحكمها من الحيرة أو من الأنبار . وكان له أولاد كثيرون ولأهم رؤساء على القبائل العربية منذ أن ذاع صيته في البادية وخلال حكمه لمملكة الحيرة بوجه خاص ، وأسند إلى أكبرهم حنجر رياسة قبائل أسد وكنانة (أو بني أسد بن خزيمه وغطفان) وكانت أسد قبيلة كبيرة تركزت في جنوب جبال طي على جانبي وادي الرمة وتوزعت بطونها فيما قيل بين المدينة وبين الفرات . فقبلت رياسته على من شئس حيث قيل إنه لم يكن يقيم فيها وإنما كان يقيم في تهامة ويبعث رسله ليجمعوا الإتاوة منها . ثم تشجع بما سارت إليه رياسته فشن هجمات خاطمة على حدود الغساسنة . ونجراً أخوه معد يكرب بمثل جرأته وكان يلي قيس عيلان فأغار على حدود فلسطين وأوغل فيها حتى أوفد قيصر الروم أناستاسيوس وفدا إلى أبيه الحارث ليوقف نمره .

وهكذا زاد شأن الحارث الكندي واهتمر على حكم الحيرة وما جاورها ، ولكن لفترة قليلة تراوح بين ثلاث وأربع سنوات (٥٢٥م - ٥٢٨م) ثم ما لبثت الآية أن انقلبت عليه حين توفي ملك الفرس الذي ولاه وعضده . وكان

المنذر الثالث قد لجأ بعد عزله إلى بعض حلفائه من القبائل واستجمع فواه بينهم ثم عاد ليسترجع ملكه . ووجد التأييد من ملك فارس الجديد كسرى . أنو شروان الذى سمح له باستعادة ملك الحيرة ، وعزل الحارث الكندى ففر وتبعته جيوش المنذر ، واختلفت الروايات العربية فيما إذا كان أفلت منها أم قتلته .

وأدت هزيمة الحارث أو قتله إلى أن انقلبت القبائل الخاضعة له ضد آله وبنيه بحيث قيل إن تغلب سلمت ثمانية وأربعين فردا من أسرته إلى المنذر فأمر بضرب رقابهم جميعا . ونعاهم امرؤ القيس كثيرا فى شعره . وكان شر البلية أن تناحر أبناء الحارث بعضهم مع بعض حتى ذهبت ريحهم فقيل على سبيل المثال إن ولدا للحارث يدعى شرحبيل كان يحكم قبائل بكر بن وائل وما والاها من قبائل المنطقة الشرقية اختلف مع أخ أصغر له يدعى مسلمة كان يحكم قبائل تغلب والنمر بن قاسط . وزكى المنذر ملك الحيرة الفرقة بين الأخين ، فتقاتلا وأضعف كل منهما هبة الآخر ، فتنمر لهما أتباعهما وحلفاؤهما إلى أن قتل الأول فيما يسمى يوم الكلاب وهو ماء بين البصرة والكوفة ، وفر الثانى ، فكر المنذر بملك الحيرة عليه بجيشه وقتل من أتباعه خلقا كثيرا .

أما أسد فقد زاد حقدما على ولده حجر ، ولمسا اشتد وعماله عليها تمكنت من قتله والفتك بأهله فى ظروف اختلف الرواة فى تصويرها .

وهكذا تشتت أفراد أسرة آكل المرار وفت فى عضدهم أن يضعف شأن حليفهم حمير واحتل الأحباش المسيحيون اليمن فى عام ٥٢٥ م . فلم يبق لهم نصير خارجى لا من الفرس ولا من اليمن ولا من الروم ولا من أنفسهم بعد أن فرقت المطامع صفوفهم . وكان لحجر عدة أبناء أصغرهم هو امرؤ القيس الشاعر وكان ميالا للهو مع شهرته فى الشعر . وكان أبوه فيما ذكرته الروايات العربية قد تبرأ منه فى حياته حتى يقطع عن هوه وشعره وفارقه وظل على سفره وهوه حتى أتاه نعيه وهوى شرب ويسمر فى دمون من أرض حضر موت فقال جملة المأثورة « ضيعنى صغيرا وحلنى دمه كبيرا ، لاصهو اليوم ولا بكر غدا ،

اليوم خير وشدا أمر « . واستنصر عمرو القيس قبائل بكر وتغلب على بني أسد قاتلي أبيه . فاستعصم بنو أسد ببني كنانة ثم تركوهم . وتعتقبهم عمرو القيس بحلفائه والتجهم معهم في معركة صارية ولكنهم هربوا منه بليل . واكتفت بكر وتغلب بما حدثت وتفرقت عنه .

وأبى عمرو القيس إلا المضي في الانتقام لأبيه : فمضى يستنصر عرب العراق تارة وعرب اليمن تارة أخرى . ثم قاتل بني أسد مرة أخرى وظفر ببعض بطونهم وقيل إنه مثل بها تمثيلا شديدا . ثم أحل الحمر لنفسه . (ولو أن شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص نهي في شعره تمكن امرئ القيس من قومه . وأخذ بروايته بعض المؤرخين) .

وكان رؤساء الحيرة . لايزالون . يكونون البغضاء لكندة ، فتعقبوا امرأ القيس وشرذوه . . . ، وتشجعت عليه قبائل أسد ومعد . وتفرق عنه أتباعه . ففر بأهله وأسلحته وماله وظل يتنقل بهم والمكائد تلازمه بين بني يربوع ، وإياد . وطى ، وفزارة ، ثم ارتحل إلى تيماء ويبندو أنها كانت تحت وثابة قريب له من كندة يدعى قيس ، وإن كانت بعض الروايات قد اكتفت من قصته فيها بأنه أودع أهله ودروعه عند السمؤال بن عادي صاحب الحصن الأبلق ورجاه أن يوصي به الحارث بن أبي شمر الغساني . ثم قصد بلاد الشام ونم شعره عن أنه مر فيها بخوران وبعلبك وحمص وحماة . . . ومن هناك أوفده الحارث الغساني بتركية منه إلى قيصر الروم في القسطنطينية ، حيث مات فيها مريضا أو مسموما : أو مات أثناء رجوعه منها في فترة ما بين ٥٣٠ و ٥٤٠ م من قبل أن يحقق هدفه : وأضافت الروايات نفسها أن بعض أعدائه أو بعض أنصاره عندما تحققوا من وفاته طالبوا السمؤال بودائعهم فأبى ، فحاصروا حصنه وقتلوا ولده . ولكنها اختلفت فيمن طالب السمؤال وحاصره : إن كان الحارث بن أبي شمر الغساني ، أو الأبرد ابن عمه ، أو الحارث بن ظالم حليفه . المنذر ملك الحيرة . ونظر بعض المؤرخين الخلدنيين ومنهم فتكلر ومارجوليوب إلى المشكلة من وجهة نظر أخرى : فقد لاحظوا أنه أشاع القصص وأشاد بوفاء السمؤال لمصدر يهودي يتمثل في دارم بن عتال

الذي قيل إنه كان من نسل السموات ، وسعية بن عريش . وغيرهما من رواة اليهود ، ثم الأعشى الشاعر الجاهلي . ورأى فنكسر علامات الشك تنتميه فرجع أن تكون قصة السموات قصة موضوعة استوحاها رواة اليهود هؤلاء من بعض قصص التوراة وأشاعوها تمجيذا لقومهم . ثم ردها بعض الأخباريين بعدهم وأعجبوا بها لما اصطبغت به من روح الوفاء والإباء المحبة إلى العرب .

واعتماد الباحثون في تاريخ كندة أن يتفوا قليلا عند قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية ومصره فيها . حيث لم تذكر المصادر البيزنطية شيئا عن امرئ القيس هذا ولا عن زيارته لعاصمتها من طرف صريح ، وإن أشارت في مناسبات أخرى متفرقة إلى أن أعوان القيصر كانوا يقربون بين مشايخ العرب وملوكهم الصغار وبين قيصرهم ويشجعونهم على زيارة بلاطه أو يسعون عنده في أن في يسمح لهم بزيارته في عاصمته .

ويفهم من بعض هذه المصادر على سبيل المثال أن شيخا من شيوخ العرب الكبار يسمى امرأ القيس ارتحل من نواحي العراق إلى دومة الجندل واتخذها مركزا لغزو جنوب فلسطين وساحل البحر الأحمر أو ساحل العقبة واستولى على جزيرة فيه . ثم اتصلت الأسباب بينه وبين الأستف العرفي بطرس فأقنعه بمبادنة الروم والسعى إليهم . وسعى له هو عند القيصر ليوحى دعاه إلى القسطنطينية حوالي عام ٤٧٣م فزاره وتنصر . وأقره على أرضه ولقبه بلقب فيلارخوس . وليس لامرئ القيس هذا صلة بامرئ القيس الشاعر وهو يسبق عهده بأكثر من نصف قرن .

واتصلت الأسباب بين شيخ عربي آخر دعته المصادر البيزنطية أبا كرب وبين القيصر يوستينيانوس (جوستين) ، وكان أبو كرب يتزعم قبيلته في جنوب فلسطين . وله واحدة هناك كثيرة النخيل تقرب بها إلى القيصر فقبلها منه ولقبه هو الآخر بلقب فيلارخوس . وجاور أرضه أعراب من معد كانوا يدينون بالولاء للحميريين ، مما يحتمل معه أنهم كانوا من كندة . وأراد أن يستعين بالقيصر ضدهم .

وذكرت رواية أخرى أن الامبراطور يوستنيانوس أرسل رسولا إلى سميفع إشوع المسيحي عامل الأحباش على اليمن . يدعوه إلى أن يصفح عن رئيس عربي يدعى قيس ويعاونه على رئاسة معد ويتعاون معه على غزو أملاك فارس - وكانت هذه السفارة قبل عام ٥٣١ م ولم تحقق غرضها - إما لاخوف من فارس أو لأن سميفع لم تكن له سيادة فعلية على معد بحيث يولى قيسا عليها .

وذكر الكاتب البيزنطي نونوسوس ما أسلفناه من قبل من أن القيصر Anastasius أرسل وفدا برئاسة جده إلى الحارث ملك كندة ومعد بعد أن تعددت إغارات ولده معد يكرب على حدود فلسطين . كما أرسل القيصر يوستينيانوس وفدا برئاسة أبيه أبراهيم ليقابل فيسا حميد الحارث (ولعله ابن معد يكرب) ليعقد حلفا معه . فقابله وأخذ منه ولده معاوية إلى القسطنطينية كرهينة على وفاته . ثم كلف القيصر نونوسوس نفسه بأن يدعو قيسا (الكندي) إلى القسطنطينية فاصطحبه معه إليها ثم أرجعه إلى بلده بعد أن أقره على ولاية جزء من فلسطين . وليس قيس هذا بطبيعة الحال هو امرؤ القيس الشاعر الذي ذكر المؤرخون وفاته بحسرتة قبل أن تتحقق أمنينه بالعودة إلى بلده معززا مكرما . وإن افترض بعض الباحثين احتمال محبته لقيس هذا وهو من أبناء عمومته في رحلته وعودته معه وإن أهتم الرواة المسلمون بقصته هو وتناسوا ابن عمه .



أسلفنا أن تمت صوءا جديدا ألقته النصوص السبائية الحميرية المكتشفة حديثا على بداية تاريخ كندة ، وأن أهم ما أضافته هو الرجوع بهذا التاريخ إلى أبعد مما ذهب به المؤرخون المسلمون وإلى ما حول ميلاد المسيح عليه السلام ، وأن كندة ارتبطت في نشأتها بالعرب الشماليين أكثر مما ارتبطت بالعرب الجنوبيين على عكس ما رواه أغلب المؤرخين المسلمين . وأن الجنوبيين كانوا ينطقون اسمها كدة بدال مشددة مما قد يعنى أن اسمها لم يكن من اسمائهم فحرفوه .

ويرجع أقدم هذه النصوص إلى عهد شعر أوتر ملك سبأ وذوريدان في أواخر القرن الميلادي الثاني ، وهو ملك عمل أن يجمع شمل المناطق العربية الجنوبية وأن يقصى شبهة النفوذ الحبشي عن ساحل تهامة كما ذكرنا في سياق الفصل العاشر . فتعددت معارك جيوشه في حصر موت وفي ردمان وعلى ساحل تهامة الجنوبي وفي نجران .

ومن نجران اتجهت قواتهم إلى قرية ذن كاهل ولعلها كانت قريبة من الفاو الحالية ونسبت إلى معبودها كاهل ، وحاربت « ربيعة ذو آل ثور ملك كده وقحطان » . وهو ملك قد ينتمي إليه معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج الذي ذكره نص من قرية الفاو أيضاً .

وكان الرحالة بليبي قد ذكر في أوائل القرن الأول الميلادي منطقة « آل ثور » هذه ، مع ملاحظة أن المؤرخين المسلمين قد ردوا نسب ملوك كندة إلى « ثور » فعلاً واعتبروه رجلاً (وقد يكون معبوداً قديماً عبادة) .

وذكر الجغرافي بطليموس السكندري اسم العاصمة « ماووكسموس » كعاصمة لكندة في القرن الثاني الميلادي .

وبالاستفادة من هذه المصادر مجتمعة وبخريطة بطليموس الجغرافي السكندري التي أثبتتها في كتابه . يذهب الرأي الحديث إلى الاتجاه بديار كندة الأولى إلى ما في شمال نجران في منطقة الأفلاج والعارض وجبل طويق في قلب نجد . وإذا صححت قراءة قحطان التي نضمتها نص شعر أوتر وذكر ارتباطها بكندة وخصوصاً مع الملك واحد يدعى ربيعة ومن بعده لواده؟ معاوية ، فإنها قد تعني منطقة ما من أرض قحطان الواسعة في نجدلان الشمالية التي تمتد بين شمال شرق جيزان وبين شمال نجران .

وبعد جيل أو نحوه في أوائل القرن الثالث الميلادي . روى نص من عهد إياشرح يحضب وأخيه يأزل بين ملائكي سبأ وذوريدان خبر حرب شنتها قوات هذين الملاكين ضد مالك (؟) ملك كندة وشعب كندة (كدة) لمؤازرته لامريء القيس بن عوف ملك خصاصة ، وأسرت هذه القوات

قادة كندة واحتجزتهم في مأرب حتى سلموا الغلام (امرأ القيس) للملكي سبأ وذوريدان وتركوا أبناءهم رهائن. لديهما ، وأدوا الجزية والفدية من الخيول والإبل والمتاجر . وربما قامت خصاصة هذه حليفة كندة قريية من منازلها في شمال نجران ، إلى القرب من بيشة وإلى الجنوب الغربي منها .

وبعد قرن تقريباً وفي أوائل القرن الرابع الميلادي تحدثت نصوص شمر عن الثالث ملك سبأ وذوريدان عن كندة ومذحج كأحلاف له ثم كأتباع له . وكانوا في الحالة الأولى لايزالون في منطقة الأفلاج في قلب نجد ، ومثلت كندة القبيلة الرئيسية في مذحج . وتعاونوا جميعاً مع قواته على مهاجمة أرض تنوخ في المنطقة الشرقية على الخليج العربي وما يمتد منها إلى جنوب العراق . ولكن ضربة مضادة وجهت إليه وإليهم في أواخر عهده على يد ملك تنوخ امرئ القيس بن عمرو الذي استشهدنا بملخص نصه العربي المتأثر قليلاً باللغة الآرامية واللهجة النبطية في الفصل الرابع عشر ، وبما ذكره فيه من أنه حاصر نجران مدينة شمر (شهر عش) وشتت (حلفاءه) قبائل مذحج عن أرضها . وهاجرت هذه القبائل حينذاك ومعها كندة إلى دولة حليفها شمر شهر عش في الجنوب ، وأصبح رجالها من فرق الأعراب في جيوشه . وأقطعهم منطقة أوسان ومضحاى القديمة فأصبحوا سادتها تحت حكمه .

واستمر وضع مذحج وكندة هكذا في عهود خلفاء شمر شهر عش ، فظهر رجالهما بين الأعراب في جيوش ياسر بنهم الثالث وذراً أمر أيمن ملكي سبأ وذوريدان في حوالي عام ٣٣٠م ، كما ظهروا بعد نحو قرن من الزمان بين الأعراب في جيوش أب كرب أسعد وولده حسان بهامن في حملتها على أرض معد في وادي مأسل جمع ، في بداية القرن الخامس الميلادي .

ومررنا في الفصل العاشر كذلك أن النصوص الحميرية القديمة والروايات العربية معاً قد نسبت إلى أب كرب أسعد وولده حسان في فترة اشتراكهما في الحكم مجهوداً حربيّاً في منطقة (أحلاف) معد ، وفي بعض نواحي الحجاز من ناحية ، وحتى الربع الخالي في أواسط شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى ، وأنه كان من بين قواته الراكبة رجال مذحج وكندة . وبالربط بين هذا العهد وبين ما كان يجري خارج حدود اليمن يتضح أنه كان يعاصر

نهضة اللخمين على حدود العراق ووثيق صلتهم بفارس في عهد النعمان الأول . وهكذا يبدو أنه كان من أهداف حملة أب كرب أسعد التي اصطحب معه فيها كندة ومذحج إعادة كيان إمارة كندة في الشمال تحت طاعة دولة سبأ وذوريدان (أو حمير) أو في حلفها ، لكي ترأس قبائل معد العدنانية وتقف في وجه التوسع اللخمي المنتظر من ناحية . وتؤمن الطرق التجارية المتجهة إلى نجد والحجاز وما وراءهما من ناحية أخرى .

ومن هنا تلاقت النصوص السبئية القديمة مع الروايات العربية التي روت أن تبعاً (أب كرب أسعد) وهو في طريقه إلى أرض العراق نزل بأرض معد فجعل حجراً بن عمرو الكندي ملكاً هناك . وإذا كانت قد خلطت بين أب كرب وبين ابنه حسان في هذا الأمر فذلك يرجع إلى اشتراكهما في الحكم معاً لفترة طويلة .

وقامت كندة بدورها حتى الربع الأول من القرن السادس م ، وفيه احتدم التنافس بين القوى الثلاث الكبيرة في شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها ، وكل منها تجد خلفها من يؤيدها ، نعى بذلك مملكة الحيرة في عهد المنذر الثالث (٥١٢ - ٥٥٤ م) وتؤيدها دولة الفرس ، ومملكة الغساسنة في عهد الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م) وتؤيدها دولة الروم . ومملكة كندة في عهد الحارث بن عمرو بن حجر (٥٢٨ - ٥٤٠ م) وتؤيدها دولة حمير (سبأ وذوريدان) - وعن مرحلة من مراحل هذا التنافس تحدث نص سبأى قديم عن خروج قوات معد يكرب ملك سبأ وذوريدان مع مذحج وكندة في عام يقع بين ٥١٦ و ٥٢٢ م لإعادة الاستقرار إلى منطقة بني ثعلبة ومضر بعد مشاكلهم مع المنذر ملك الحيرة .

وهكذا يوضح إلى أي مدى أفادت النصوص القديمة الأصيلة في توضيح التاريخ العربي القديم وتحقيق قضاياها ، وكلما زاد المكتشف منها وتمت دراسته كلما أثرى هذا التاريخ وزادت حصيلته .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

أولندر (جونار) : ملوك كندة من أسرة آكل المرار - ١٩٢٧ - ترجمة بغداد -
١٣٥٣ هـ .

جواد علي : المرجع السابق - مادة كندة - ج ٣ ، ٦ ، ١٠ .

عبد الرحمن الأنصاري : أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها -
في مصادر تاريخ الجزيرة العربية - الرياض ١٩٧٩ - ج ١ ، ص ٣ - ١١ .

يوسف محمد عبد الله : أوراق في تاريخ اليمن وآثاره - ج ٢ - ص ٨٩ - ١٢١ .

Jamme, A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis; Sabaean Rock
Inscriptions from Qaryat al-Faw, Washington 1973.

الفصل السادس عشر

تحول مركز الثقل إلى أواسط الحجاز في مكة ويثرب

من معاني الحجاز فيما ذكرته المعاجم العربية معنى الحاجز بين الغور وتهامة وهو هابط . وبين نجد وهو ظاهر . أي بين السهل الساحلي الموازي للبحر الأحمر فيما يمتد من اليمن جنوباً إلى خليج العقبة شمالاً . وبين مرتفعات هضبة نجد . وتعتبر سلسلة جبال السراة هي العمود الفقري لهذا السهل وقد تخللت حافتها الداخلية عدة وديان من أهمها وادي القرى الذي تميزت من مدنه الرئيسية كل من مكة ويثرب . بعد أن ورتت كل منهما نصيبها مما كانت تنعم به المدن القديمة الواقعة إلى شمالهما مثل : مدين ولحيان وحجر ثمود وحجر الأنباط ، ثم مارست كل منهما نهضتها الخاصة فيما بين القرن الخامس وبداية القرن السابع للميلاد .

وتقع مكة في واد شعبيح الماء والزراعة أشبه بخوض جبلي تحوطه مرتفعات السراة الجرداء، وتشتد حرارته صيفاً كما يشتد جفافه فيقال أخطار أوبئة المناطق الحارة على أهله .

وبديهي ألا يكون للتنقيب الأثري دور هام في تتبع ماضي هاتين المدينتين ، نظراً لما يخيص بهما من قداسة خاصة وحرمة دينية . الأمر الذي يكاد يقصر مصادر تاريخهما حتى الآن على بعض المأثورات الدينية . والروايات العربية . وبعض الملابس الخارجية .

وقد خص القرآن الكريم مكة بماض تاريخي بعيد بعبادته إقام البيت الحرام فيها ، والذي قال فيه (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين) . ويبدو أن قدم هذا البيت لم يبدأ بالضرورة بعهد إبراهيم عليه السلام في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد كما افترض بعض المؤرخين

ولم يبدأ بالضرورة أيضاً منذ عهد آدم كما ذهبت إليه أقوال بعض المفسرين. وإنما قد يكفي فيه ما ينم عنه ظاهر قول إبراهيم عليه السلام (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) - سورة إبراهيم ٣٧ - وفي هذا ما قد يعنى قيام البيت الحرام فعلاً في صورة أولية من قبل عهد إبراهيم - وأن إبراهيم توخى حمايته وحرمة فاودع زوجته هاجر المصرية وولده إسماعيل في رحابه . وذلك احتمال يزيد منطقياً عما قيل من احتمال دعاء إبراهيم بالدعاء السابق عقب بناء البيت لأول مرة . وهو أمر لم يتم بطبيعة الحال إلا بعد أن انقضت على إسماعيل وأهله عنده سنوات طوال امتدت حتى شب إسماعيل عن طوقه وعاون أباه في البناء (أنظر سورة البقرة ١٢٧) .

ولعل البيت المحرم أو بناء الكعبة في صورته الأولية تلك كان هو المعنى بتسمية « البيت العتيق » التي ذكرتها نه آيتان من سورة الحج (٢٩ ، ٣٣) ، إذا أخذت لفظة العتيق هنا بمعنى شدة القدم وهو الشائع ، إلى جانب معاني العتق والكرم والجمال ، كما تذكر قواميس اللغة . وإن كانت هذه التسمية قد انصرفت بعد ذلك إلى بسمية صفات البيت الشريف واقرنت بها . ولعل الحجر الأسود أو الأسعد هو كل ما بقى من بنيان ذلك البيت العتيق ، أو هو ما أمكن الاحتفاظ به منه ، ونتيجة لقيمته وندرته اكتسب شيئاً من علو المكانة وإعزاز الرسول له (والعرب ثم المسلمين بكافة) باعتباره أثراً جليلاً فريداً من ماضٍ كريم بعيد . وقد لا يكون من بأس بعد هذا الفرض المقترح من النظر كذلك بعين الاعتبار الروحي إلى بعض روايات المفسرين الإسلاميين عن ماضي الحرم والحجر وارتباطهما بمعجزات سماوية لا تتطرق إليها الدراسات التاريخية عادة في مناقشاتها الحديثة ، ولكن لا بأس معها في الوقت ذاته من تذكر مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا الحجر بما معناه ، والله إني لأعلم أنك حجر لا يضر ولا ينفع ، ولولا إني رأيت رسول الله يقبلتك ما قبلك « متأدباً في ذلك بأدب الإسلام وأدب الرسول .

وظل الحجر الأسود على طول الأمد علامة مميزة لبداية الطواف بالكعبة المشرفة .

ويبدو أنه عندما تقادم البيت العتيق وطال العهد به ، وهجر ما حواه
وطمست بثر زمزم الخباورة له ، وانقطع بهذا رواده المؤمنون به أو كادوا ،
تطلب الأمر الإلحى إقامة قواعده من جديد ، وإعادة تعميره وإحياء شعائره .
وتكفل إبراهيم بهذا وعاونه فيه والده إسماعيل بعد أن شب عن طوقه -- في
مثل قول الذكر الحكيم (وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

وغنى عن الذكر أن بناء الكعبة قد جدد أودم بعد ذلك أكثر من مرة ،
وشارك الرسول عليه السلام في إحدى هذه المرات قبيل بداية بعثته الشريفة
بقنيل .

وربما أوحى بنفس القدم البعيد للبيت، قول القرآن الكريم (وإذا بوانا
لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين
والركع السجود) -- في سورة الحج ٢٦ - ٢٨ -- وذلك بما يعنى إلهامه
أو إرشاده إلى موضع البيت الذى قام فيه ، أكثر منه إلى المكان الذى سوف
يقيم فيه ، ثم الإذن له بأن يعمل وولده على تطهير ساحته ربما كان
قد جد عليها من أصنام ومحرمات . وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل قولهما
(. . .) وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) . وهو ما قد
يعنى بداية تشريع هذه المناسك ، أو على الأرجح هدايتهما إلى ما غاب
عنهما منها والمسامحة حين النسيان والخطأ فى أدائها .

أما عن نشأة البيت العتيق قبل أيام إبراهيم ، وصورة بنائه ، والقائمين
ببنائه . فكلها أمور يصعب البت فيها برأى شاف فى ضوء المعارف المتيسرة
عنها حتى الآن . وحسبها إمكان تفسير أولوية هذا البيت على ما عداه بأنه
أول بيت وضع للناس على الأرض لعبادة الله بخاصة . وهى أفضلية تمايز
بها عن المعابد أو بيوت العبادة فى الديانات الوضعية القديمة التى كان منها
ما سُمى باسم البيت فعلاً ، مع اختلاف لفظه باختلاف لغة أهله -- ونسبته
إلى موضعه أو إلى معبوده الرئيسى فى كل من الحضارات المصرية والأشورية
والكنعانية والآرامية والعربية القديمة أيضاً .

ومن المسلم به أن إبراهيم عليه السلام لم يكن أقدم الرسل والأنبياء الذين دعوا إلى تقديس الله وحده في بيوت العبادة ، وإنما سبقه إلى مثلها ، أو كلف بمثلها ، أنبياء آخرون . وإذا كان قد اعتبر أباً الأنبياء فإنما يعنى هذا أبوته الشريفة البعيدة لأنبياء الإسلام والتوراة أو العرب واليهود .

ولعل مثل هذه الفكرة بقد كيان البيت عن عهد إبراهيم كانت من وراء قول بعض المفسرين القدامى ومنهم البخارى بأن إبراهيم جاء بهاجر وإسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، ولما فارقهما ووصل الثنية استقبل بوجهه البيت ودعا بدعائه (رب إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

وعلى أية حال فإذا كان سياق البحث قد تطلب التطرق هنا إلى مسائل دينية أمكن التماور عن الخوض فى أمثالها فى بقية فصول هذا الكتاب ، فإن اختلاف التفسير أمر مسموح به فيما لا يمس الفرائض وجوهر العقيدة . ولن نعيد هنا ما قامت به بعض كتب التفسير والتاريخ من تأكيد صلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمكة والحرم ، وقصة الذبيح ، دون اسحق وبنى فران التى قال بها يهود العهد القديم . إلا إذا كانت تسمية فران هذه تسمية عبرية تطلق على مواضع منها مكة كما أخذ بذلك ابن منظور فى لسان العرب ، وهو ما تركيه كذلك تسمية التوراة للعرب بالإسماعيليين نسبة إلى أبيهم إسماعيل حيثما امتد نشاط قبائلهم من شبه الجزيرة إلى جنوب الشام ، ثم قول سفر التكوين من التوراة ١٦ : ١١ فى صلة هاجر بإسماعيل : « وقال لها (أى هاجر) ملك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد استمع إلى مذلتك » . وحينما أمر إبراهيم بالتضحية بابنه كان من المفروض أن يضحى بيكر أولاده وهو إسماعيل .

ونضيف هنا أنه إذا كان بعض غلاة اليهود قد حاولوا التشكيك فى قدم اسم إسماعيل الأب الروحى للعرب ، ومدى شيوعه فى العالم القديم ، فثمة ما يلقيهم حجراً فى وجود اسم « يشمع إل » بمعنى يسمع الله أو إسماعيل

في نص أكدي عراقي يرجع إلى أكثر من أربعة آلاف عام، تم وجوده بعد ذلك في نصوص نبطية وسمفوية تسبق العصر الجاهلي والعصور الإسلامية .



تعددت الآراء قديماً وحديثاً في تفسير تسمية مكة . على نحو ما تعددت أمثالها في تفسير ما عداها من مسميات المواضع القديمة . وظهر من آراء اللغويين المسلمين ما عقد الصلة بينها وبين ألفاظ عربية معينة تشبهها في الشكل والنطق أو في دلالة التقديس . ومنها : الملك وهو امتصاص الماء حين قلته . وامتصاص الفصيل للضرخ . وربما امتصاص الناس إلى مكان ما . والملك وهو القدرة على إصعاب الجبارين . والمكوك وهو المكان الخابط بين مرتفعين . وربما الملك أيضا أو المكاء وهو طواف بعض الجاهليين بالصفير أو التصفيق .

ولما لم يكن في كل هذه المشتقات ما يشفي الغليل . انجذبت آراء حديثة إلى عقد المقارنات بين اسم مكة وبين بضعة ألفاظ من لغات أو لهجات أخرى قريبة الصلة باللغة العربية الشمالية . ومنها لفظ مكربة أو مكارابو في اللغة العربية الجنوبية بمعنى التقديس . والتقريب وهيكل القربان . وقد شابه هذا اللفظ الأخير ما أشار إليه الرحالة بطليموس السكندري من وجود مدينة عربية تسمى ماكورابا Macoraba سبق إنشاءها بطبيعة الحال العهد الذي عاش فيه وهو منتصف القرن الثاني للميلاد .

واقترح رأى آخر تقارب اسم مكة مع لفظ ماك البابلي بمعنى البيت حيث إذا أضيفت كلمة رب ليكون « مكرب » كان معناه بيت الرب (على سبيل الاحتمال) .

وإذا جاز عقد مثل هذه الصلة مع لغة أخرى من خارج شبه الجزيرة العربية فلا بأس من أن تضاف إليها مقارنة ثانية ، وهي وجود لفظ مكة في اللغة المصرية القديمة ذات الصلة بمجموعة اللغات السامية . واستخدامه بما يعنى « الحماية » و « سلامة الوضع » . وكالم تكن اللغة البابلية غريبة تماماً

على إبراهيم عليه السلام مع ما قيل عن هجرته الأولى من جنوب العراق إلى جنوب الشام . فإن اللغة المصرية القديمة لم تكن غريبة كذلك عن إسماعيل عليه السلام مع بنوته للسيدة هاجر المصرية التي اصطحبته إلى مكة في رفقة إبراهيم . وما قيل كذلك في سفر التكوين من أن زوجته الثانية كانت مصرية أيضاً . وعلى أية حال فإن الاستشهاد باللفظين البابلي والمصري هنا لا يعني بالضرورة أنهما يمثلان مع لفظ مكة العربي مسمى واحداً ، ولا يعني أن أحد هذه الألفاظ الثلاثة قد اشتق من الآخر بالضرورة . وإنما يكفي افتراض اشتقاقها جميعها من مصدر سامي قديم يصعب الآن تحديده .

ورادف القرآن الكريم بين اسم مكة وبين اسم « بكه » في الآية التي بدأنا الاستشهاد بنصها آنفاً . وقال المؤرخون القدامى بأنهما يكونان اسماً واحداً بعد قلب الميم باء على عادة بعض اللهجات العربية القديمة ومنها لهجة هوازن . أو يتكاملان بحيث تعبر بكه عن الكعبة والمسجد ، ونكون مكة هي ما حوله فيما سوى ذلك من بطن الوادي . أما من حيث الاشتقاق اللفظي فتمد قيل باشتقاق بكه من بك الأقدام حين التزاحم - كما قيل مؤخراً باحتمال صلتها بالفظ بك في اللغة الآرامية بمعنى البيت .

وتعددت أوصاف مكة بعد ذلك في المصادر العربية ومن أهمها فيما هو مشهور : أم القرى والبلد الأمين والقادس والمقدسة والعرش وأم الرحم . . إلخ .

ولم نجد الأخباريون والمؤرخون القدامى ما يقال عن سكان مكة الأوائل من قبل عهد إسماعيل إلا احتمال نسبتهم إلى العماليق وهم الأقوام شبه الأسطوريين (الذين ردتهم أنساب التوراة إلى عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح - على حد قولها) . ويبدو كما روى المفسرون أن إنكشاف بُر زمزم بعد اختفائها وتفجرها بالماء كرامة لهاجر وإسماعيل قد أغريا بعض الجماعات العربية التي كانت تمر بها على النزول عندها بعد أن كانت تتجاوزها من قبل لشدة جذب أرضها وشح مأهأ . وكانت جرهم القحطانية أو بطن منها من أولى هذه القبائل ، وقيل إن إسماعيل أخذ عنها لغتها أو لهجتها العربية

الجنوبية إلى جانب لغة أبيه الأمورية أو الآرامية ولغة أمه المصرية - وربما زوجته المصرية أيضاً - وتناسل له إثناعشر ولداً ظلوا يلون أمر قومهم وخدمة البيت الحرام حتى نافسهم فيها أبناء خوئلتهم من جرهم بعد أن تلاحقت بطونهم إلى مكة ، وأزاحوهم ففرقوا حولها وأسفلها .

ولم يلبث الجرهميون بدورهم أن فاجأتهم هجرة للأزد من اليمن وعلى رأسها خزاعة فأزاحتهم إلى ظاهر مكة كما أزاحوا هم أبناء إسماعيل وبتون كنانة من قبل ، وتفرقوا حولها وفي تهامة .

وولى عمرو بن لحي كبير خزاعة الحكم وشئون البيت . ولأمر أو آخر نسبت الروايات العربية إليه (أو إلى عمرو بن ربيعة المعروف بعمر بن يحيى) أنه بدل دين إبراهيم وأدخل عبادة الأصنام واستقدم بعضها من جنوب الشام . وعمل على إقامتها حول الكعبة ، ربما ليفرى أتباعها بزيارتها والإلتئام بها كلما رحلوا إلى الحجاز ، مع تقريب ما بينهم وبين شعائرها بعد أن قل وفودهم إليها اتقاء لبغى جرهم وما قيل عن تعديها على قوافل التجارة المارة بها وقوافل الحج القاصدة إليها .

وظل أمر خزاعة في يدها حتى نجح قصي الجدد القديم للرسول عليه السلام ، في فترة مامن القرن الخامس الميلادي ، في تزعم قريش (وقريش بطن من كنانة ، وكنانة من مضر ، أو هي من قبائل تهامة ، كما يقول النسابون) . ويبدو أنها عاشت قبل عهده متفرقة حول مكة في تهامة أو عاشت لفترة قبل ذلك في شمال غرب الحجاز حيث اختلطت هناك ببنايا دويلاته القديمة من اللحيانيين والأنباط ومن عايشهم في أرضهم من جاليات المعينيين والحميريين الجنوبيين ، واكتسبت منهم بعض عناصر حضارتهم . كما مهت في ممارسة التجارة حتى لقد قيل إنها سميت قريشاً لاحترافها التجارة . والتقرش هو التجمع والاكتساب والتجارة .

وثمة نص للملك الحضرمي إيلعز يليط من حوالى القرن الثالث الميلادي تحتمل دلالاته على أن موكب الملك إلى الحصن الملكي أنود قد تضمن عشرين نساء قرشيات .

ولو صحت هذه القراءة لزكت قدم قريش واتصال بعض بطونها بجنوب شبه الجزيرة العربية أيضاً .

وسلك قصى زعيم قريش سبيل السياسة أولاً فأصهر إلى زعيم خزاعة حتى إذا ما ارتفع شأنه وبان ضعفها انقلب عليها، وربما استعان عليها ببطن من قضاة قد يكونون من الغساسنة أو ممن والوهم . وأجلى خزاعة عن مكة هم ومن والاهم من بكر فارتحلوا إلى بطن مر في وادي فاطمة حيث انضمت إليهم فيما بعد بطون من كنانة وخزيمة بن مدركة وحالفوهم ، وأطلق عليهم مع مر الزمن اسم الأحابيش بمعنى الموالى أو شئىء من هذا القبيل ، وربما عاش في مجتمعهم جماعات من أصول أفريقية ضمت رقيق التجارة والحروب ومن إليهم .

وضمت قريش حضراً وبدوا . وعاش حضرها في داخل مكة واقتسموها أرباعاً ، وسمح لهم قصى بالبناء حول الكعبة بعد أن كان الجرهميون والخزاعيون يقيدون على مسافة منها - وهؤلاء هم قريش الأبطح (وهو واد بمكة) أو قريش البطاح (أى المناطق المنخفضة) . وكان منهم أغلب التجار وأهل الثراء . وانتشرت بطون أخرى من قريش بخارج مكة وتوزعت في الشعاب والمرتفعات - وهؤلاء هم قريش الظواهر ، وكان منهم أهل سطو وإغارة.

وجمع قصى بين رئاسة الحكم في مكة وبين شعائر الحرم ، وولى أمر السقاية والحجابة والرفادة واللواء . وعمل على تجديد بناء الكعبة وتسقيفها . ولكنه مع ما اجتمع له من رئاسة أمور الدنيا والدين في بلده ، قد حافظ على التقاليد القبلية في نظام حكمه ، وأقام داراً للحكومة والمشورة عرفت ، أو عرفت مثيلتها فيما بعد ، بدار الندوة لتكون مبتدى للملأ من قومه ورؤساء العشائر المشهود خم بالكفاية والفضل ممن تخطوا سن الأربعين ، وكانوا يتشاورون فيها في المعاملات الكبيرة وأمور الحرب وإقرار السلم وعقد ألوية البعوث . وربما عقدوا فيها عقود زواج أشرافهم أيضاً . ولعلها أشبهت حينذاك مجلس المسود السبأى أو القتباني والمعبنى القديم . وقد

بلغ من شهرتها أن رأى فيها بعض المستشرقين والكتاب الحديثين صورة من صور التنظيم الجمهورى الذى يجمع بين خصائص الارستقراطية وخصائص الديمقراطية . بل وشبهها بإكثرياً أثينا القديمة . ومالبث أبناء قصى وخلفاؤه أن اقتسموا مختلف صلاحياته الدينية والدنيوية عن تراض حيناً وبالتنافس حيناً آخر .

وعوضت قريش قلة إنتاجها الزراعى والصناعى بالتوسع فى التجارة المحلية والعربية وكان من سلعها التى تتاجر بها بين العرب : الأدم والزبيب والصموغ والتبر والحرير والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة . وانتفعت فى ذلك بالأسواق الكبرى التى كانت تعقد بالقرب منها فى مواقيت متعاقبة من الأشهر الحرم لضمان أمنها . ومنها أسواق عكاظ ومجنة وحباشة وذو الحجاز وغيرها .

ومنذ أوائل القرن السادس الميلادى سنحت الفرص أمام قريش وأهل الحجاز للعمل باسم العرب على نطاق واسع ، وهم بمنأى عما تدخلت به وأدت إليه أطماع الحبشة والبيزنطيين والفرس فى شئون اليمن والحيرة وغسان . وقامت مكة بالدور الأكبر فى هذا السبيل ، وانتفعت فيه بتوسط موقعها فى قلب الحجاز وبعدها النسبى وحصانتها الطبيعية ، وحزمها الدينية ومنزلتها الروحية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فضلاً على سابق خبرتها بالتجارة والوساطة التجارية بين ممالك اليمن والشام .

ومن أجل تنشيط هذا الدور والخروج به من دائرته الإقليمية اتجهت بعوث رؤساء مكة إلى العالم الخارجى لعقد المعاهدات التجارية مع الدول الكبرى فى أيامهم . وهكذا نسب إلى هاشم بن عبد مناف أنه آلف ملك الشام ، أى حصل على إيلاف أو عهد من قيصر الروم أو ملك غسان الممثل له فى جنوب الشام لتنشيط التعامل مع قريش وتأمين تجارتها فى ممتلكاته ، كما اكتسب مودة أحياء العرب وأمراء الشام المحليين لاسيما فى أيلة وغزة والقدس حتى بصرى فى حوران إلى الجنوب الشرقى من دمشق .

وقيل إن إخوة هاشم فعلوا بالمثل ، فعقد نوفل والمطلب إيلافاً مع دولة .

الحيرة ودولة الفرس ودولة سبأ وحير ودي ريدان . وركز عبد شمس على إيلاف الحبشة وشرق أفريقية . وبهذا اجتمع لقريش إيلاف رحلة الشتاء والصيف . رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، أو العراق . ورحلة الصيف إلى الشام . وقيل إن من قوافلها ما كان يضم ألف بعير . ومنها ما يضم ما يزيد عن الألفين. وأخذت هذه القوافل بنظام المشاركة بحيث يسهم فيها القادرون من الأسر والأفراد وقد يكون لهم فيها وكيل أو شريك أو أجير ، تحت رئاسة شخصية كبيرة تقوم القافلة وتعمل على حمايتها .

ولم تقتصر مكة على بطونها القرشية الكبيرة وحدها وإنما تضمنت معها أعدادا ممن كانوا يقيمون فيها لفترات مؤقتة أو دائمة من تجار الحبشة والفرس والروم (أو من أملاكهم) . وكانت تعرض المكوس والعشور عليهم وما يقابل أمنهم وخفارة متاجرهم . ولتشجيع نزلائها من حلفاء وموال وحجاج وتجار . أقام سادة مكة فيما بينهم حلف الفضول على ألا يظلم في رحابها قريب أو غريب . ولا حر أو عبد . إلا وكانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم . وقد امتدح الرسول عليه السلام فكرة هذا الحلف وأثنى عليها .

ومع توالي الاتفاقات التجارية مع أقبال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والحيرة توسعت قريش في التجارة المباشرة ومتاجر الوساطة . وهكذا تحدثت الروايات العربية عن خفارة قريش للطائم ملوك الحيرة إلى عكاظ وكانت تتضمن المسك والمنسوجات وكثيرا من المصنوعات . كما تحدثت عن تصديرها بضائع اليمن وما يصلها من الهند من العطور والجلود والمنسوجات والسيوف إلى بلاد الشام حيث تستورد عوضا عنها أنواع الحبوب والزيت والحمور والجواري .

وكما انتفعت مكة بتجارة البر انتفعت كذلك وإلى حد ما بتجارة البحر الأحمر وما يحمله من متاجر شرق أفريقية والمحيط الهندي . عن طريق مينائها الشعبية التي بقيت حتى عهد عثمان حيث سأل أهل مكة أن ينقل الساحل من الشعبية إلى جدة لقربها منهم فأمر به . وكانت تقع في جون من البحر ويصلها

التجار والوسطاء البحريون من مصر والحبشة والصومال ، فينقلون المتاجر منها وإليها ، كما كانت تدير منها سفن الروم . وأغنت هذه الميناء مكة عن أداء المكوس لموانئ اليمن وغيرها من الموانئ الخارجية .

ومضت الأمور سراعاً في مصلحة مكة وحلفائها لسد الفراغ التجاري الناشئ من تعاقب الاضطرابات السياسية والدينية في بلاد اليمن منذ حوالى عام ٥٢٠ م خلال الصراع بين أنصار الديانتين اليهودية والمسيحية والتدخل الحبشى فيها . ثم فشل الحبشة وحلفائها في تعويض تناقص سفن الروم في تجارة البحر على نطاق واسع . مع تدخل أمن الطرق التجارية في الهلال الخصيب بين العراق والشام خلال الحروب البيزنطية الفارسية .

ولم ينج ازدياد نشاطات مكة وحلفائها من العرب الشماليين من إجراءات مضادة ضمنية ومباشرة . لوأدها قبل استفحالها . من قبل اليمن والحبشة وبيزنطة .

ونمثلة الإجراءات الضمنية في تركية حملات التبشير بالمسيحية في أرجاء اليمن وتأييد الحبشة وبيزنطة لها . وبطبيعة الحال لم يكن في انتشارها من بأس أولاً أن رأت مكة في هذا الانتشار ما يهدد مكانتها الدينية بين العرب الجنوبيين . وقد سلفت الإشارة إلى تسمية كبرى كنائس نجران وصنعاء حينذاك بتسمية الكعبة اجتذاباً لمشاعر العرب وصرف ولأنهم عن حرم مكة إليها . ولم تنجح هذه الخطوة كثيراً في صرف العرب الجنوبيين عن البيت الحرام ومقام إبراهيم ، أو صرفهم عن عباداتهم الوضعية القديمة .

وأما الإجراءات العسكرية المباشرة فأشهرها هو ما روته بعض المصادر العربية عن حملة ضد مكة قادها من يدعى حسان بن عبد كلال من أقبال اليمن . وقد أسر وباءت حملته بالفشل .

وكانت حملة أبرهة الحبشى ملك سبأ وحير ضد مكة وحرّمها المقدس في عهد عبد المطلب بن هاشم حوالى عام ٥٧٠ م هي الأكثر إعداداً وأشد وقعاً . وقد أسلفنا في الفصل العاشر أنها قد تفسر بطموح أبرهة إلى

مد سلطانه إلى غرب شبه الجزيرة ووسطها وشمالها ، ورغبته في استعادة سيطرة اليمن على شريان التجارة الرئيسى الذى أوشكت مكة (ويثرب) على احتكار مكاسبه . أو تفسر بالتعصب الدينى ورغبته في المشاركة بصورة ما في الحرب البيزنطية الرابعة عشرة (٥٧١ - ٥٨٠ م) والاستجابة فيها لدعوة الروم إلى التضييق على المصالح التجارية لأعدائهم الفرس عن طريق ربط مصالح الدولة المسيحية الجديدة في اليمن بالدولة الغسانية المسيحية في جنوب الشام ، باعتبارهما جميعاً من حلفاء بيزنطة . وفشلت حملة أبرهة بما سبق التعقيب به في الفصل نفسه - وعوضاً عما طمع فيه من إضعاف مكة وهدم كعبتها ، أصبح فشله فيها من عوامل ازدياد نهرتها .

وعندما انقضى عهد ولديه التقصير ، ونجح سيف بن دى يزن في إجلاء الأحباش عن اليمن بمعونة الفرس ، ترأس عبد المطلب شيخ قريش وفدها لتهنئته . وقرن زيارته بتجديد اتفاقيات مكة التجاريه مع كبار أقبال اليمن وأمراء اليمامة . كما جدد من ناحية أخرى اتفاقياتها مع ملوك غسان والحيرة .

وأضافت بعض المصادر العربية نداء محاولة دبلوماسية استهدف البيزنطيون منها ضمان ولاء مكة أو تبعيتها السياسية لهم ، حيث أيدوا أحد قادة قريش وهو عثمان بن الحويرث وكان قد عدل عن الوثنية وتنصر . لئلا يكون ملكاً على مكة من قبلهم . وروى أنه جمع كبار قومه ولوح لهم بقوفاً بمصر الروم وثرائه ، وسيطرته على مجالات التجارة في أملاكه . ولكنهم رفضوا وعده ووعدده ، ورفضوه هو أيضاً . وكان في بعدهم عن تناول الروم وحاجة الشام إلى وسطهم التجارية ما أنجاهم من أى رد فعل خارجى مباشر .

ومع هذه التجارب ظلت قريش تؤثر الحياض بين القوى الكبرى والمتنازعة في عصرها ، كى تضمن أمن تجارتها وأمن حجيجها ، ولكى يزداد المتعاملون معها . ووقفت في منتصف الطريق ما استطاعت بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وبين الحيرة وغسان ، وبين الفرس والروم .

وليس كثيراً ما ارتآه البعض من أن اتساع الأهمية الدينية والتجارية

لمكة قد جعل منها ملتقى لقوى العرب المتفرقة وبداية لجمعهم في إطار واحد
ذى تقاليد قومية مشتركة .

وبحكم طابعها الحضارى ونشاطها وأسفارها الخارجية ، اتسعت مكة
لأخلاق كثيرة من العقائد الوضعية والعقائد الكتابية والحنيفية . وأخلاق
أخرى من طوائف العرب والأجانب أحرارا وموالى وأرقاء وجواري ،
مما أثرى لغتها وثقافتها . وأشاع فيها عملات وأوزانا وصناعات فارسية
وبزنطية ويمنية . ومن طريف ما يروى أن نجارا أو بناء قبطيا (أى مصريا
أو روميا بالتبعية) يدعى باخوم اشترك في إعادة بناء الكعبة المشرفة بعد أن
تطلب بيلانها إصلاحه قبيل عهد البعثة النبوية : فصنع لها سقفا مسطوحا يرتكز
فيما روى الأزرقى على دعائم وعمد . وكانت قريش قد استخدمت لها أخشاب
سفينة حبشية أو رومية دفعها الريح إلى ساحل الشعيبة حيث عطبت فركب
إليها جماعة من قريش وأخذوا خشبها .

ولم يكن سلام مكة سلاما مطلقاً أو دائماً ، ولم تكن تستطيع أن تنأى
بنفسها عما يحيط بها من نزعات قبلية وروح جاهلية . فتعرضت لحروب متقطعة
أرخت المصادر العربية بأيامها تذكرة بسوء ما حدث فيها ، ومنها حرب الفجار
وعام الغدر ، وقد انتهكت فيهما الشهور الحرم ذاتها .

ولم يكن ثراء المكيين وتنوع طوائفهم المحلية والطارئة بغير أثر سيء
تمثل في اتساع الهوة بين مختلف طبقاتهم . وفي تجرب بعض رؤسائهم وشيوخ
المفاسد بين مترفيهم . فضلا على تباعدهم شيئا فشيئا عن الدين التوحيدي
وأخلاقياته ، وهو ما تصدت الدعوة الإسلامية له فيما بعد بالإصلاح والتقويم
والتغيير . ونشر التوحيد ، وهو ما يخرج بحثه عن نطاق دراسات العصور
القدمية .



مدينة يثرب

لمدينة يثرب كيان قديم كفله لها تعدد أوديتها وعيونها وآبارها ، وخصوبة تربتها ، وبالتالي وفرة أرباضها ومزارعها ، مع كثرة إنتاجها وسكانها كثرة نسبية . وأهمية أسواقها المحلية والموسمية : فضلا على موقعها قرب شرايين التجارة الرئيسية البرية والبحرية وتعاملها بالتالي مع متاجر اليمن ومصر والشام .

وتقع يثرب في مهاد من الأرض ذات لايات أو حرار سبخة . أحدها حرة واقم وحره الوبرة وحره قباء . وهي مفتوحة الحدود . وأقرب الجبال إليها جبال أحد وعير ، وسلع وسليج . وهي ذات ارتفاعات متباينة .

وانتفعت يثرب بميناء الجار في عمليات التصدير والاستيراد المناسبة لعصرها القديم ، وكانت تصل إليها وتخرج منها بعض متاجر عدن وشرق أفريقية والهند ومصر — وبلغ من شهرتها القديمة أن سمي الساحل الممتد منها إلى خليج أيلة بساحل الجار لفترة من الزمن — ولعلها هي البريكة الحالية التي عمرت لفترة طويلة من العصور الإسلامية — وجاورتها جزيرة صغيرة كانت ترسو عليها سفن الحبشة بخاصة . وظلت الجار كذلك حتى حلت محلها في الأهمية ميناء ينبع .

وعثر في جبل المكتب خارج المدينة على نصوص قديمة لم يتم نحتها بعد ، كما عثر في جبل الصويدرة على مبعدة منها على نصيرس نمودية وصور حيوانات منقورة . وعثر في داخل المدينة نفسها عن طريق المصادفة وحلال حفر أساسات بعض المباني بالمناخة وغيرها على بقايا عمران سابق لم يتيسر تحديد عهده .

واحتفظ الأنخباريون المسلمون لمدينة يثرب بأسماء كثيرة تراوحت عدتها في مؤلفاتهم بين العشرة ، والأحد عشر ، والتسعة والعشرين ، بل والأربعة والتسعين ، وكانت في أغلبها صفات قد يسهل تفسير القليل منها وتعليقه ، بينما تصعب معرفة مدلول الكثير منها أو تحليله . وكان اسم يثرب من أقدمها .

أو هو أثرب، وقد يكونان لهجتين لمسمى واحد كان يشغل جزءاً من المدينة غرب مشهد حمزة الحالى، ثم عم عليها . ومن الأهمية بمكان أن ذكر نص للملك نابونيد آخر ملوك بابل الكلدانية فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، اسم « أتريبو » فى نهاية توسعه بجيوشه فى أرض الحجاز ، وخلال محاولته السيطرة على عواصم الطريق التجارى الكبير بين غرب شبه الجزيرة وبلاد الشام . وحدث هذا التسجيل بطبيعة الحال بعد نشأة يثرب فيما قبل القرن السادس ق . م بعهود طويلة .

وتضمنت بعض النصوص المعينة القديمة اسم يثرب أيضاً ، كما ذكره الرحالة بطليموس السكندرى فى منتصف القرن الثانى للميلاد . بصيغتي Iathrippa or Jathrippe ، وأشار إليه ابوظفانوس البزنطى باسم Iathrippa Polis أى مدينة يثرب ، وذلك بما يدل على أنها كانت قد استكملت الطابع المدنى وتميزت به عما حولها من أراضى الزراعة ومضارب البدو . وتأيد هذا فى تسميتها العربية « المدينة » التى قد تعبر عن هذا التحول ، وتكون عربية الأصل ، إن لم تكن مشتقة من لفظ أرامى قديم عبر العبرانيين عنه بصيغة مدينتو أو مدينتا بنفس معناه العربى أو بمعنى الحمى . وعندما دخل الإسلام يثرب استحب الرسول لها اسم المدينة وصفة طيبة أو طابة — دون اسم يثرب الذى قيل إنه قد يعنى معنى الفساد أو التثريب أى المؤاخذة بالذنب . وشاعت للمدينة صفات أخرى من أهمها : أم قرى المدينة ، والجارة والحيرة والمجبورة . والبحرة والبحيرة . . . إلخ .

أدى خصب يثرب وثراؤها النسبى إلى كثرة عمرانها ، وأدى موقعها والظروف التى مرت بها إلى تعدد طوائف سكانها . وهى طوائف يصعب تحديد مسمياتها الأولى ، ولم يجد النسابون لديهم إلا أن يجعلوا من أقدمها طائفة العاليق ذات الصبغة شبه الأسطورية ، كما أشاروا إلى بطون متأخرة من جذام وبلى وسليم ومن قيس عيلان وغيرها ظلت بقاياها خارج المدينة حتى العصر الجاهلى ، وربما كانت فى الأصل بداخلها حتى غلبها غيرها على أمرها وأنخرجها منها . وفازت بالشهرة أكثر منها قبائل ذات أصول قحطانية

اختلطت بالعدنانية، وبقيت منها في العصر الجاهلي طوائف الأوس والخزرج يبطونها الكثيرة. وجاورتها طوائف عبرية بقي منها في العصر الجاهلي أيضاً بنو النضير وقينقاع وقريظة ، وبطون غيرها صغيرة . وأهل ما يقال عن تداخل الجماعات ذات الأصول القحطانية والعدنانية في يثرب يشبه ما كانت الحال عليه قديماً في لحيان وتيماء وغيرها من حيث نزول جاليات تجارية عربية جنوبية معينة وسبائية في أرضها لكي ترعى المصالح التجارية لدولها الجنوبية ، ولما طال المقام بها اختلطت وتصارهت مع السكان الأصليين من العرب الشماليين ولكن النسابين ظلوا يردونها إلى أصولها القحطانية أو الجنوبية الأولى من حين إلى آخر .

وكان من الطبيعي أن تهتم طوائف المدينة بحماية حدودها وأرباضها ومزارعها بتحصينات صناعية تمثل أكبرها في الآطام (جمع أطم) ، وعرفت صغارها باسم الصياصي . وبني بعضها من اللبن وبني بعضها الآخر بأحجار صغيرة أو كبيرة ، وزودت بأبراج كما احتوت على آبار ومخازن بحيث يحتمي بها أهلها حين الغارة ، ويتحصن بها الشيوخ والنساء والصغار حين خروج رجالها إلى الحرب . وكما كانت ليثرب حصونها العامة كانت لكل طائفة من سكانها حصونها الخاصة نتيجة فيما يبدو لعدم خلوص نوايا بعضهم للبعض الآخر .

واهتم رواة اليهود وكتابه بتاريخ طوائفهم في يثرب اهتماماً كبيراً لا يخلو من الغرض وتخيلوا لها ماضياً بعيداً تباروا في القول ببدايته منذ أيام موسى وهارون في القرن ١٣ ق. م ، أو بعد انتصار داود على معارضييه في القرن العاشر ق. م ، أو بعد سقوط مدينة السامرة الإسرائيلية أمام الغزو الأشوري في عام ٧٢١ ق. م ، أو بعد تدمير البابليين لأورشليم وهيكل سليمان في عام ٥٨٦ ق. م ، أو بعد قضاء القائد الروماني تيتوس على ثورة اليهود الأولى وتخریب معبدهم في عام ٧٠ م ، أو بعد القضاء على ثورتهم الثانية في عهد الامبراطور هادريان بين ١٣٢ - ١٣٥ م ، أوهم قد جمعوا بين أشتات من كل هؤلاء . ومع وضوح الشك في هذا الخليط الكثير من الآراء وجد آذاناً صاغية ممن أخذوا عن الإسرائيليات وصدقوا رواياتهم باعتبارهم من أهل (م ١٤ - تاريخ الجزيرة العربية)

الكتاب والكتابة لا سيما وأنه لم تظهر للأسف لعرب يثرب القدامى كتابات أصيلة تتحدث باسمهم حتى الآن .

وافترض بعض المؤرخين من القدامى والمحدثين رأياً وسطاً : احتملوا فيه أن يكون يهود يثرب أو أغلبهم من العرب المحليين الذين قد يرتد نسبهم إلى الجنوب . ، وأنهم تهودوا في يثرب حينما بلغت الديانة اليهودية بطريقة ما شأنهم في ذلك شأن من تهود من عرب تيماء وتبوك ووادي القرى وعرب اليمن أيضاً . وزكوا هذا الفرض بما قيل من أن هؤلاء اليهود المحليين لم يكونوا يعترفون بالتلمود كله ، وأن معارفهم الدينية كانت محدودة بحيث أنكر عليهم بعض يهود الشام في القرن الثالث الميلادي صدق يهوديتهم . وربما انضمت إليهم أشقات صغيرة مهاجرة من الإدوميين مثلاً بعد أن دالت دولتهم (حيث وجد رأى ينسب بني قينقاع إليهم) . ولم يكن هؤلاء وهؤلاء كثرة كبيرة ، وإنما قدر عدد رجالهم في إحدى المناسبات بما لا يزيد عن الألفين .

وكانوا يتحدثون بعربية تداخلت فيها ألفاظ ومسميات عبرية اكتسبوها من التوراة أو ممن معهم من اليهود الطارئین ، وقام لهم بيت يسمى بيت المدراس كان من المفروض أن يتدارسوا فيه أمور دينهم ويفصلوا فيه في قضاياهم . ومع عربيتهم أو استعراهم عاشوا في أحياء محدودة ومجتمع مقفل عليهم . وقد أسلفنا في الفصل العاشر كيف ربط بعض الأخباريين بين الملك أب كرب أسعد ملك سبأ وذى ريدان وبين يهود يثرب مرة بدخولهم إليها في عهده (في بداية القرن الخامس الميلادي) ، ومرة بامتداد نفوذه إليها حينما توسع في نواحي معد والحجاز ، ومرة برحلته إليها وتهوده . ومرة بتعيينه أحد أولاده عليها حيث قتل بعد رحيله عنها . . . إلخ .

واعتبرت الروايات العربية الأوس والخزرج أخوين من الأزد وقضاة هاجروا إلى يثرب بعد سيل الجرم وخراب سد مأرب باليمن ، وهو توقيت غير محدد بزمان صريح حيث تخرب سد مأرب في أكثر من عهد ، وأصلح أكثر من مرة . كما سبق التنويه بذلك في الفصل الرابع . ولهذا تباينت آراؤهم

في توقيت هذه الهجرة بالقرن الثالث أو أواخر القرن الرابع ، أو في القرن الخامس للميلاد .

ومرة أخرى أشاعت الروايات العبرية وما تأثر بها أو وافقها من الروايات العربية أن الأوس والخزرج اكتفوا في بداية الأمر بحياة متواضعة في يثرب في مقابل كثرة استغلال يهودها للتجارة والصناعة . وعمل بعضهم في الزراعة وتعاقدوا في حلف مع اليهود ليؤمن بعضهم بعضا . ووجد اليهود في هذا الحلف ما يزكى وجودهم ويكفل لهم معونة الأوس والخزرج في الدفاع عن يثرب والقيام بدور الوساطة بينهم وبين من حولهم من عرب وأعراب .

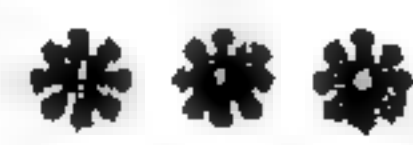
وشبثاً فشيئاً أثرى الأوس والخزرج وتحسنت أوضاعهم . ورأى بنو قريظة والنضير الحيلولة دون استفحال أمرهم فأهدروا حلفهم معهم واستبدلوا بهم . وانكمش الأوس والخزرج زمنياً حتى استنفرتهم زعيم الخزرج مالك بن العجلان (أو عمرو بن النعمان) وسعى معهم إلى إستراز السيادة . ويبدو أنه حالف بطوناً من قضاة في غسان أو في غيرها من جنوب الشام ، وربما حالف بعض الحميريين أيضاً . ثم فاجأ بقومه وحلفائه اليهود قبل أن يعتصموا بصياصيتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وساد هو وقومه يثرب في ختام القرن الخامس الميلادي أو بعده بقليل . ورأى بعض المؤرخين (ومنهم ولفنسون) أن هزيمة اليهود حينذاك في يثرب كانت انعكاساً لطزيمتهم في اليمن ، وأنها تمت في الحالين بناء على تحريض مسيحيي الحبشة في اليمن ، وبناء على تحريض مسيحيي غسان في يثرب . ورأى آخرون العُدس . ويلاحظ هنا أن هزيمتهم في يثرب سبقت هزيمتهم في اليمن . واستبعد مؤرخون آخرون أثر التحريض الديني في يثرب وقصر أسباب النزاع بين العرب واليهود حينذاك على تضارب المصالح الاقتصادية والرغبة في الاستئثار بالسلطة .

وبعد النصر زاد الأوس والخزرج من عمران يثرب وسمعتها ، وزادوا من آطامها و حصونها . وانتشر الأوس في بقاع خصيبة من العوالى في جنوب وشرق يثرب ، بينما انتشر الخزرج في بقاع أقل ثراء في الأجزاء الوسطى والشمالية منها .

وعاش عرب يثرب في بداية الأمر متحدى الصقوف ، ثم ساءت العلاقات فيما بين قبائلهم الرئيسية ، وفرق التنافس الاقتصادي والسياسي وحدتهم ، حيث أخذ الأوس على الخزرج استئثارهم بالسيادة السياسية ، بينما أخذ الخزرج على الأوس استئثارهم بأهم النواحي الاقتصادية .

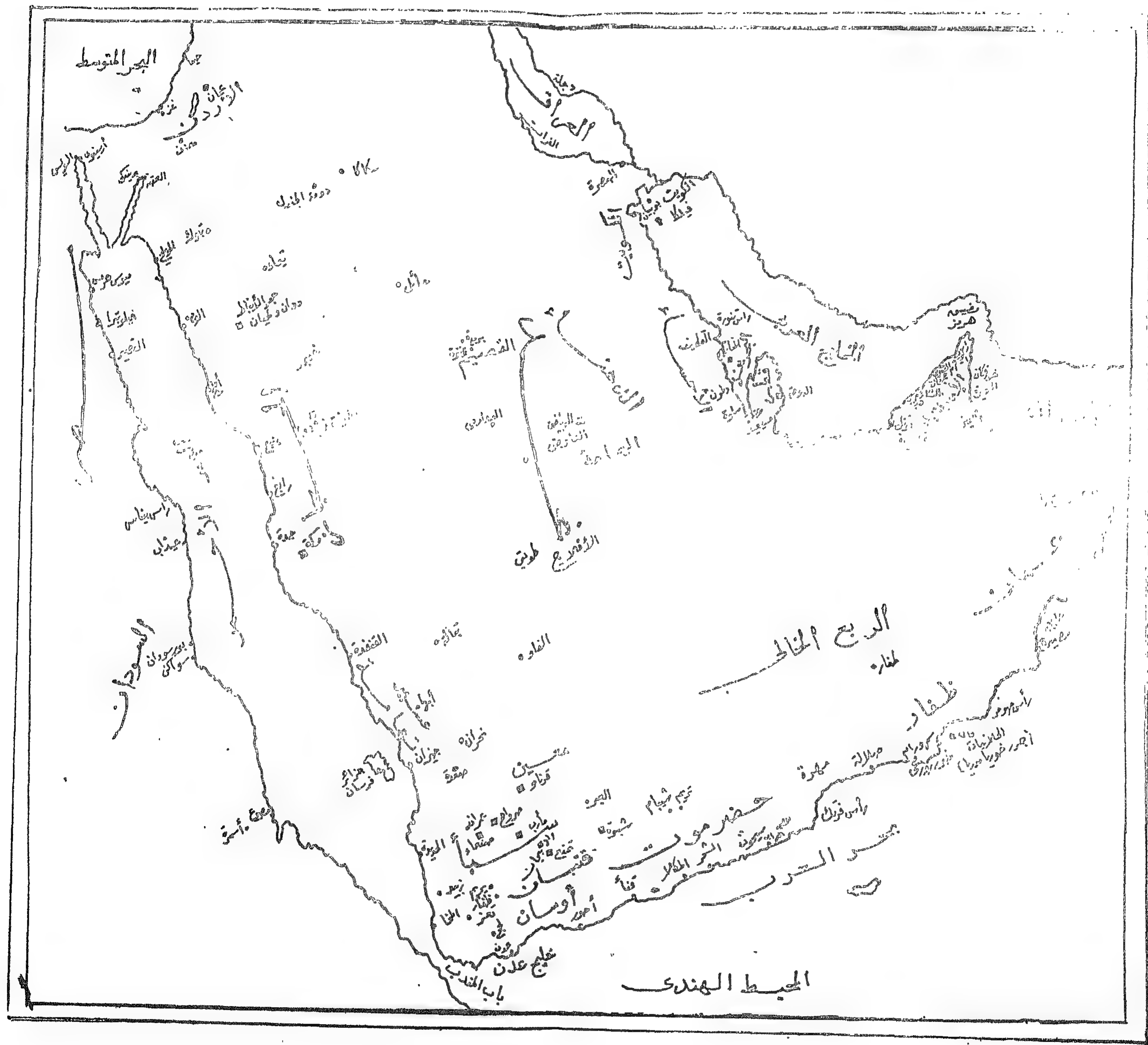
وعمل اليهود من حين إلى آخر على تأجيج نار الفتنة بين الفريقين ، وتأليب فريق منهما على فريق . وهكذا تكررت أيام الحروب بين الأوس والخزرج - وظل أغلب النصر فيها للخزرج حتى هزموا في حرب بعث التي سبقت هجرة الرسول إلى يثرب بنحو خمس سنين . وقبيل وصوله إليها كان الأوس قد جمعوا كلمتهم برئاسة أبي عامر بن النعمان ، بينما أعاد الخزرج تنظيم صفوفهم برئاسة عبد الله بن أبي بن سلول وأعدوه ليكون ملكاً على يثرب كلها .

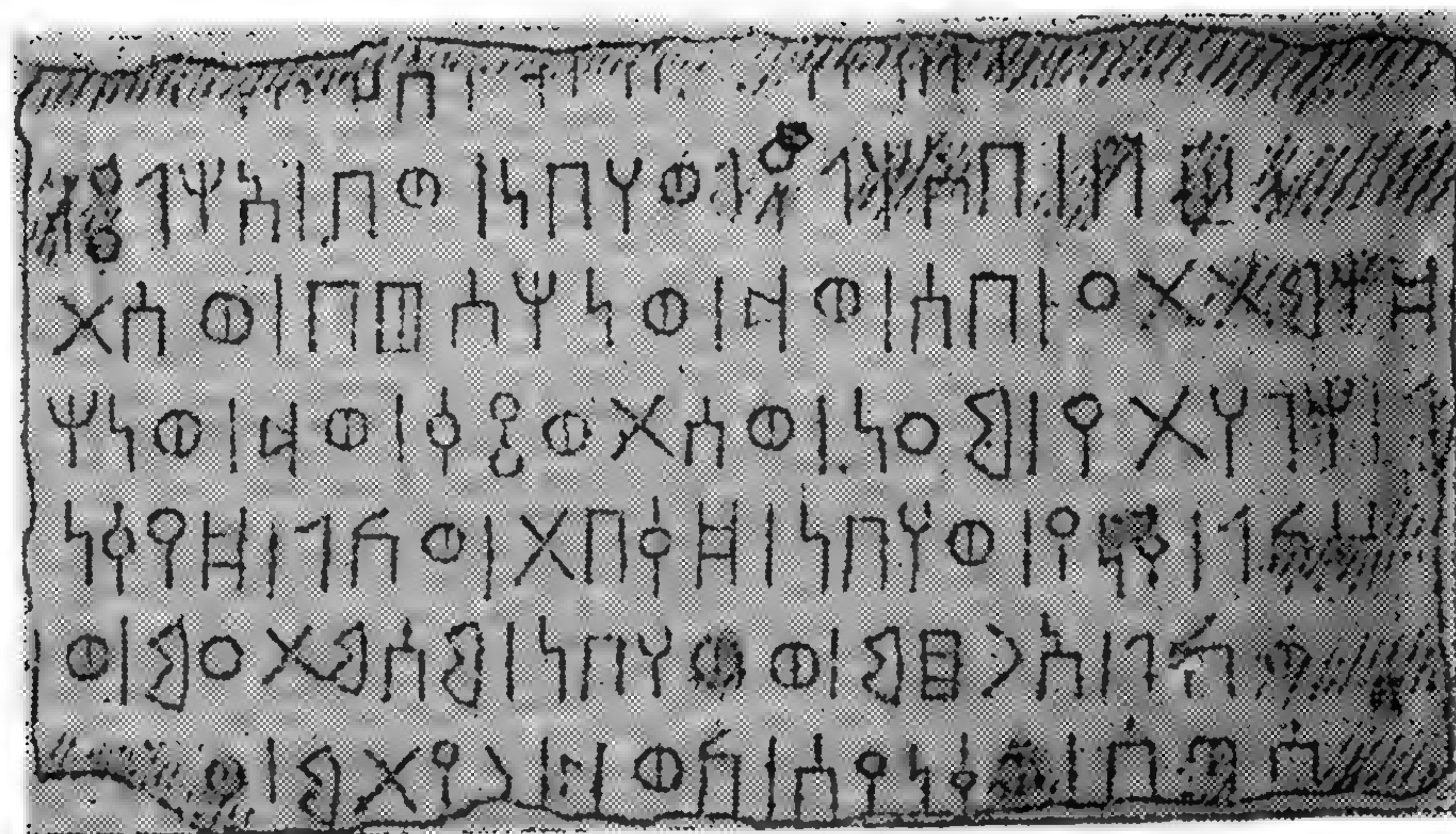
وكما تنافس الأوس والخزرج واليهود خفية وعلانية في يثرب ، تنافست مكة ويثرب في شئون التجارة والاقتصاد وزعامة عرب الحجاز . وكانت أولاهما كما سبق القول عنها تغلب فيها العدنانية ، وجذب التربة ، وثراء التجارة الخارجية ، وحرمة البيت ، بينما غلبت في يثرب الأصول القحطانية الخليطة وخصب التربة وكثرة الإنتاج مع النصيب الأقل من التجارة الخارجية .



من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

- أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول - القاهرة ١٩٦٥ .
سعد زغلول : في تاريخ العرب قبل الإسلام - بيروت ١٩٧٥ .
عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة - ١٩٧٣ .
علي حسني الحروبوطي : الكعبة على مر العصور - القاهرة ١٩٦٧ .
نور الدين السهودي : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى - المدينة المنورة ١٩٧٢ .
O'Leary, de Sacy, Arabia before Muhammad, I, 1927.
Shahid, I., Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, 1970.
Smith, S., Events in Arabia in the 6th century A.D., BSOAS, 1954.





١ - نموذج لتعبق نقشت حروفه بالخط المسند (من مدائن صالح)



٢ - نص بالخط النعلى المسطور للملك امرىء القيس بن عمرو .



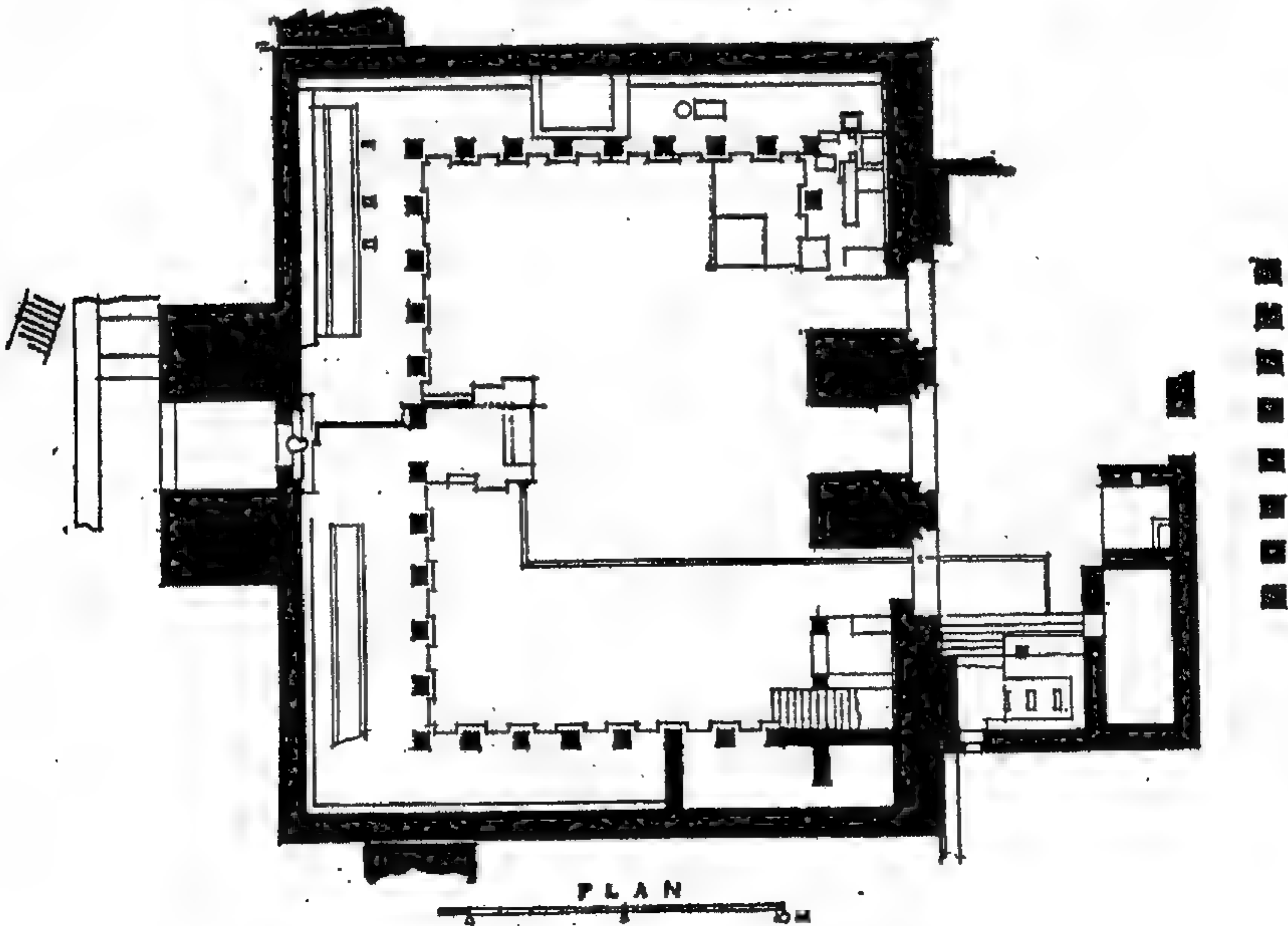
٣ - جسر سد مأرب في سد



٤ - من فتحات الحوض الايسر لسد مأرب



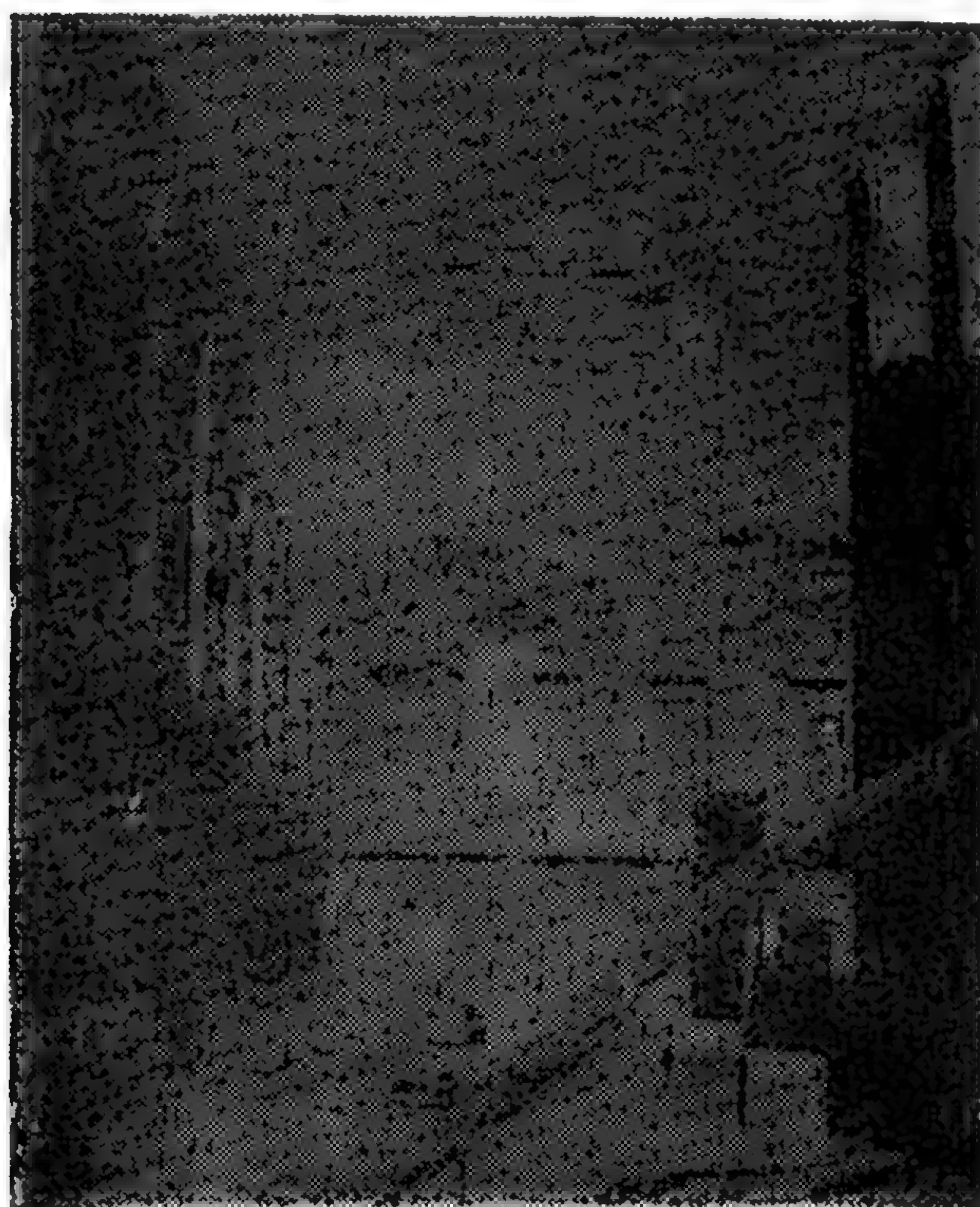
٥ — السور الخارجى لمعبد المقة فى اوام (محرم بلقيس فى مارب)



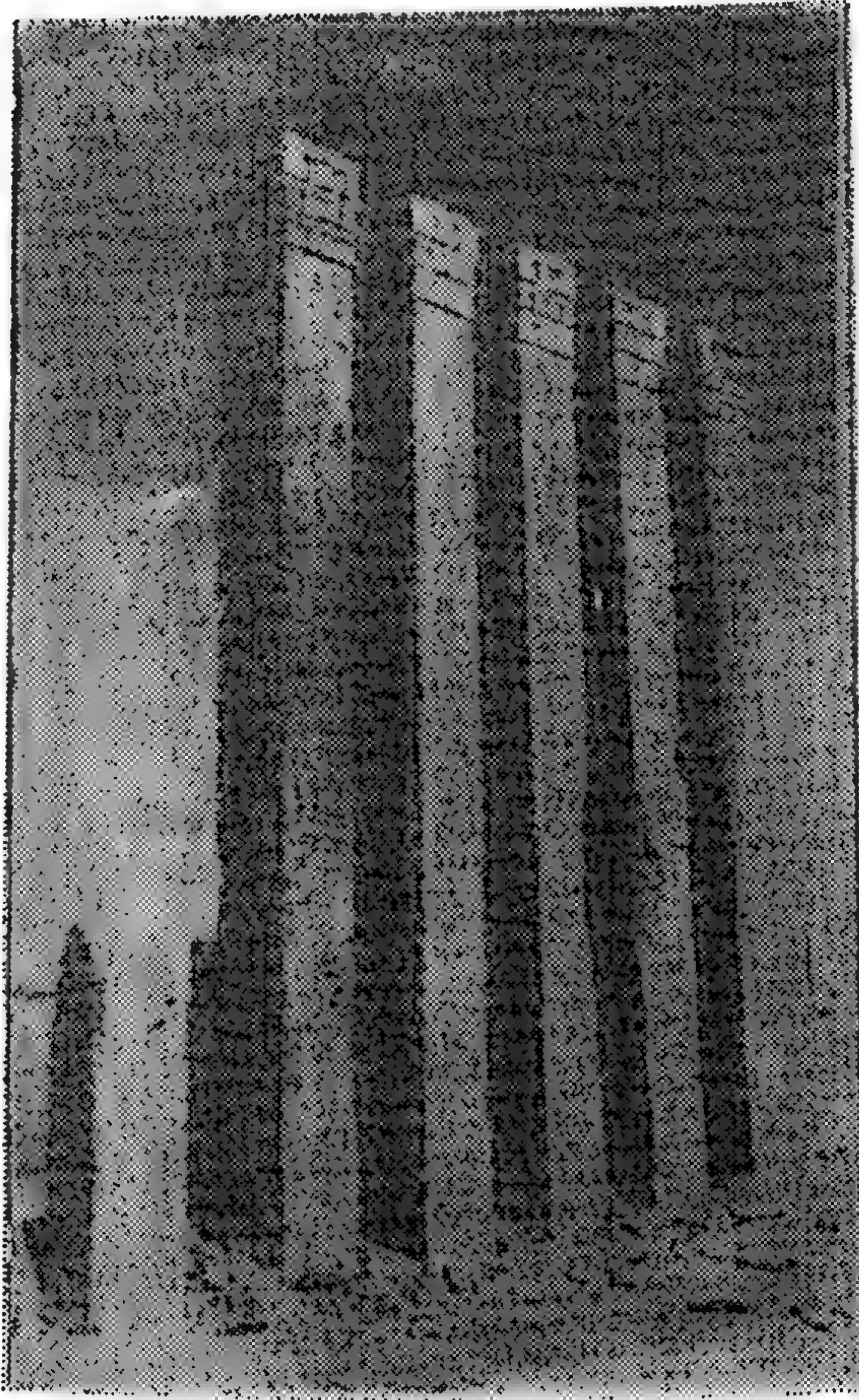
٦ — تخطيط بهو ومدخل المقة (محرم بلقيس)



٧ - جزء من معبد المقة ا محرم بلقيس



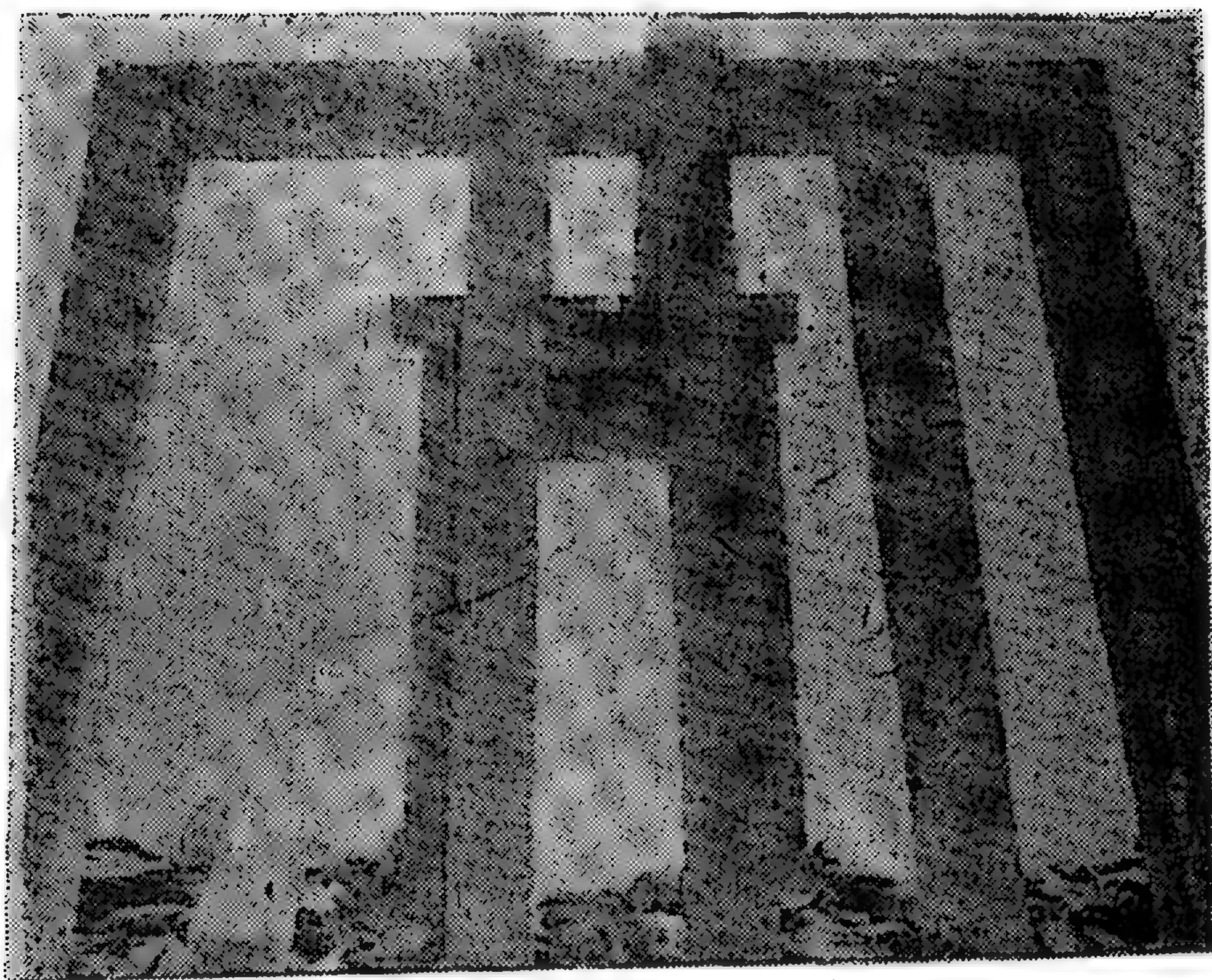
٨ - بهو الاعمدة والنوافذ الصماء في معبد المقة



٩ — عمائد معبد برآن في مآرب



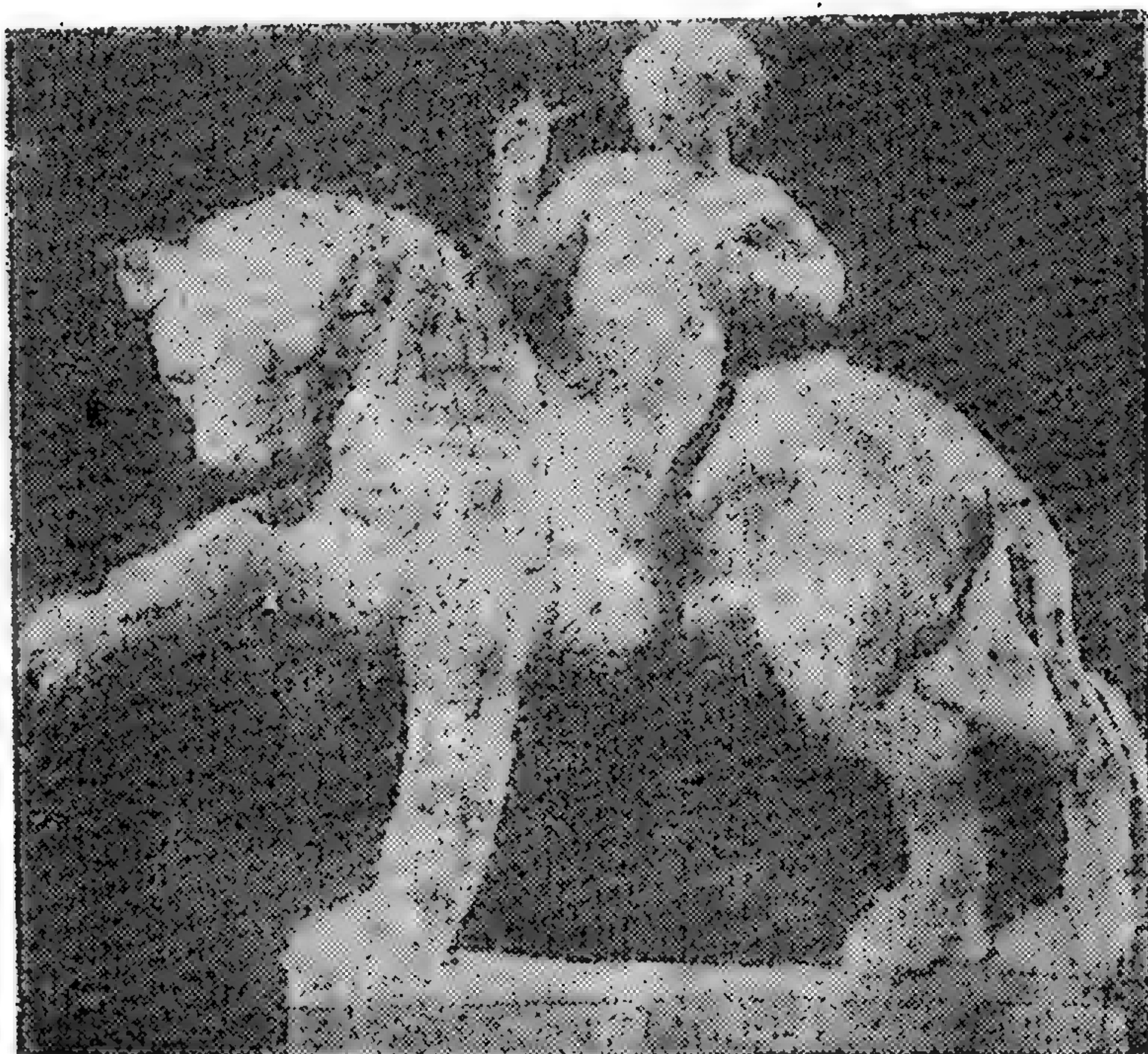
١. — تمثال من البرونز للشریف السبئی معدی کرب



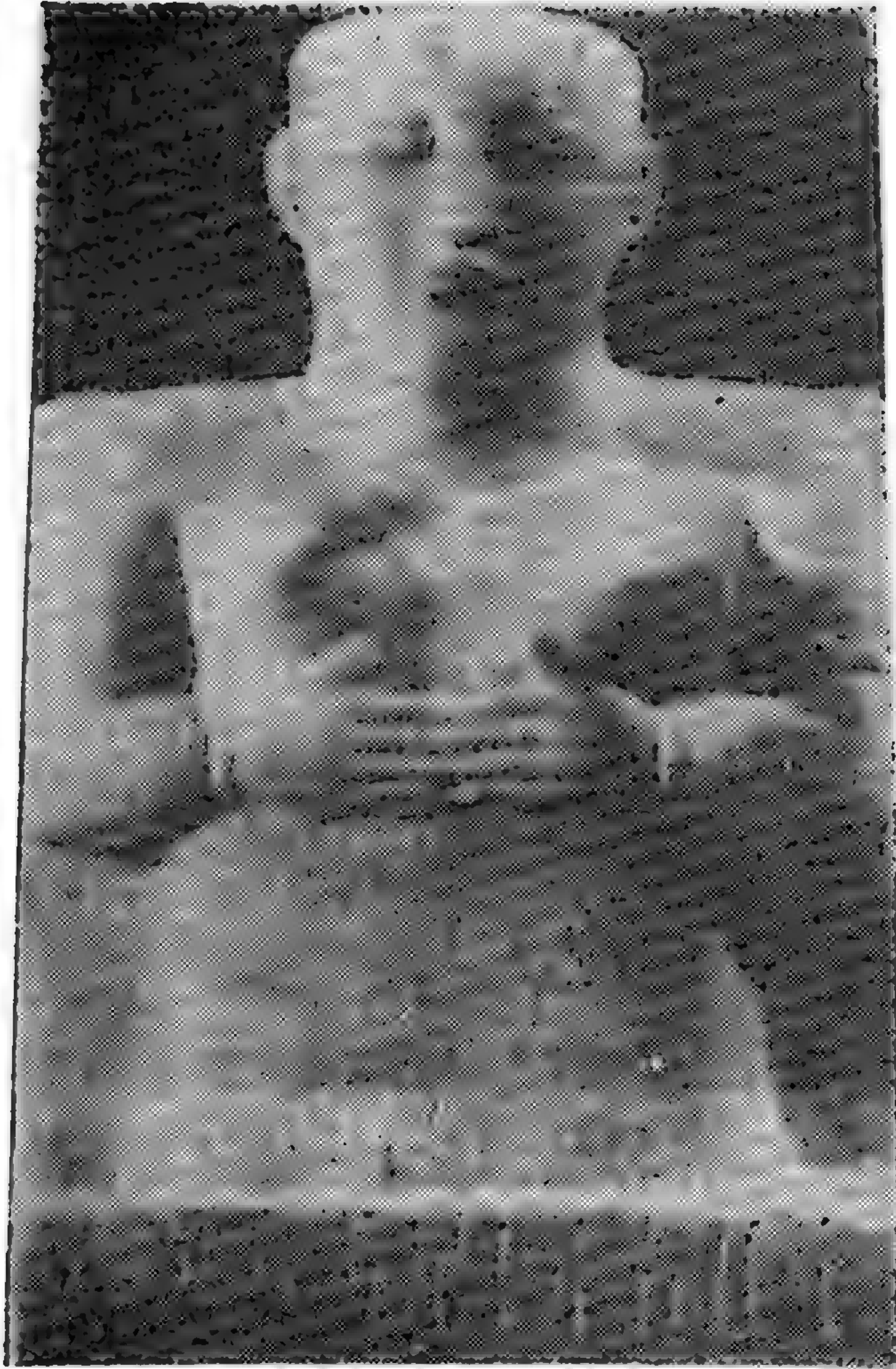
١١ - واجهة معبد المساجد



١٢ - نماذج من النقوش المجسمة (في مارب)



١٣ - احد تمثالين اسطوريين كانا يقومان قرب بوابة تمنع عاصمة قتيان



١٢ - نموذج من فن النحت في قبايل ا جبان من اسرة حنعمة)



١٥ — جانب من البوابة القديمة لمدينة تينع عاصمة قتيان



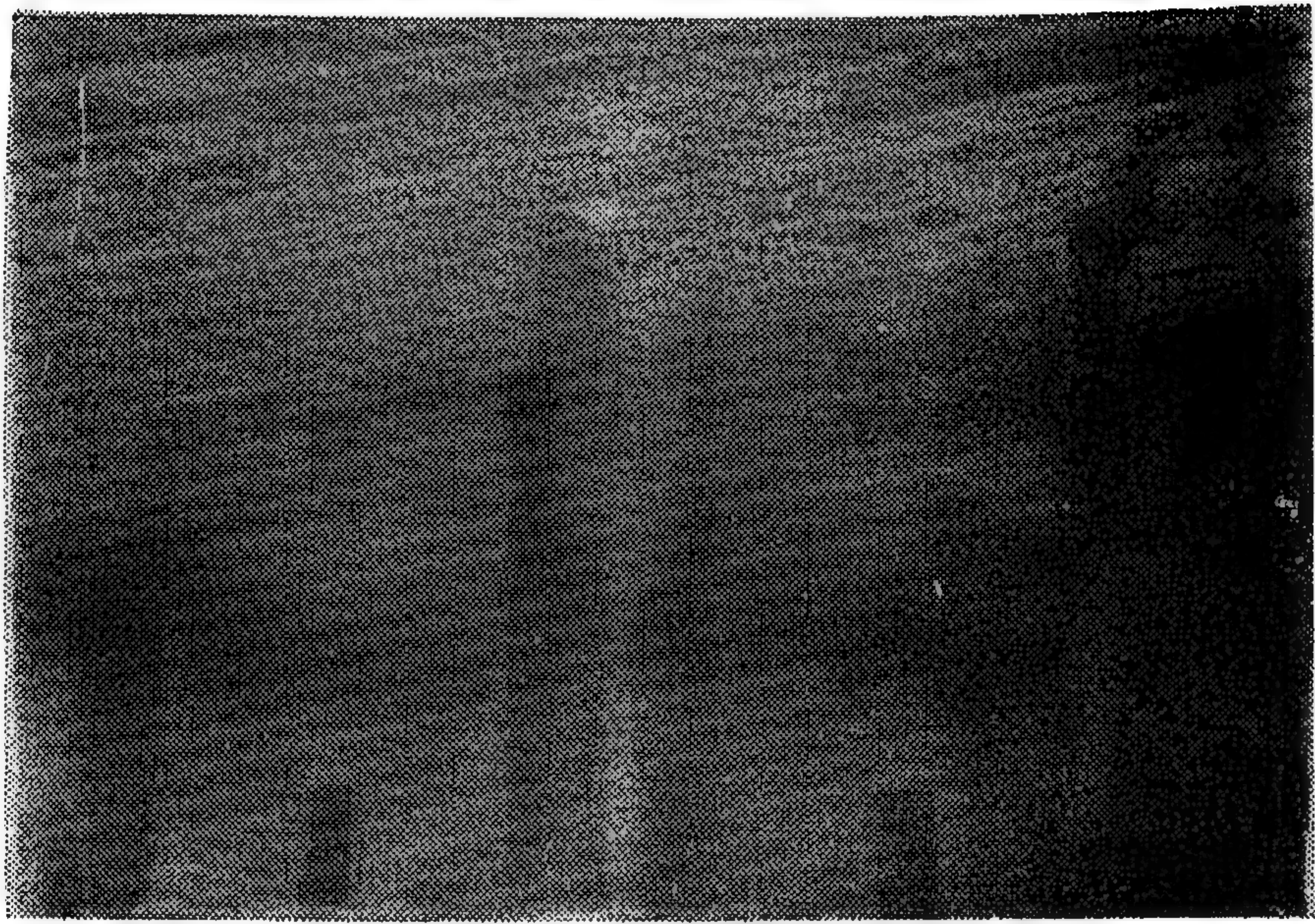
١٦ — بقايا ضريبة لعمارة قتيان



١٧ ١ — نموذج من تماثيل الرجال في الفن العربي القديم .



١٨ ب - - - - - رأس من المرمر في قتبان .



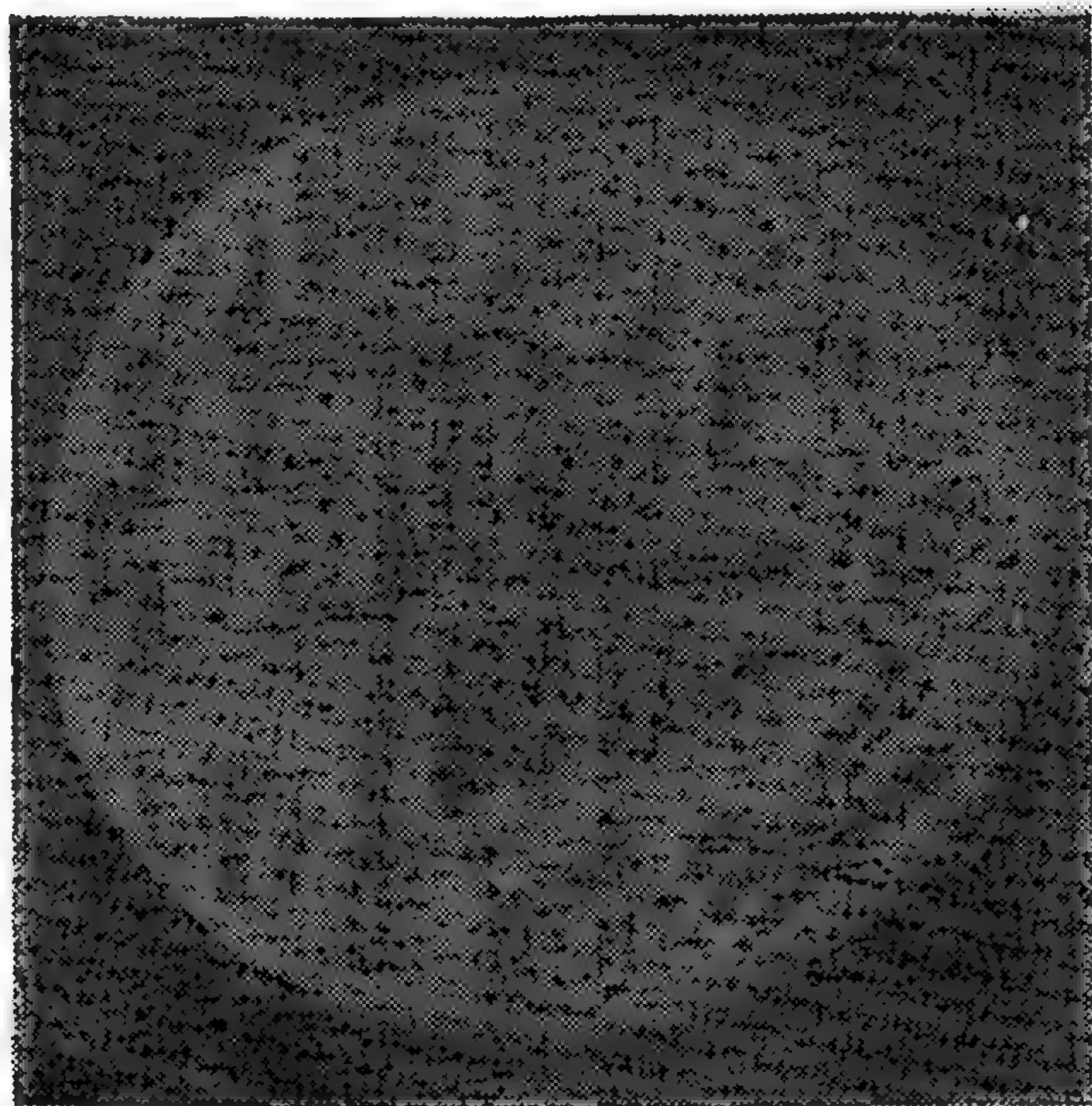
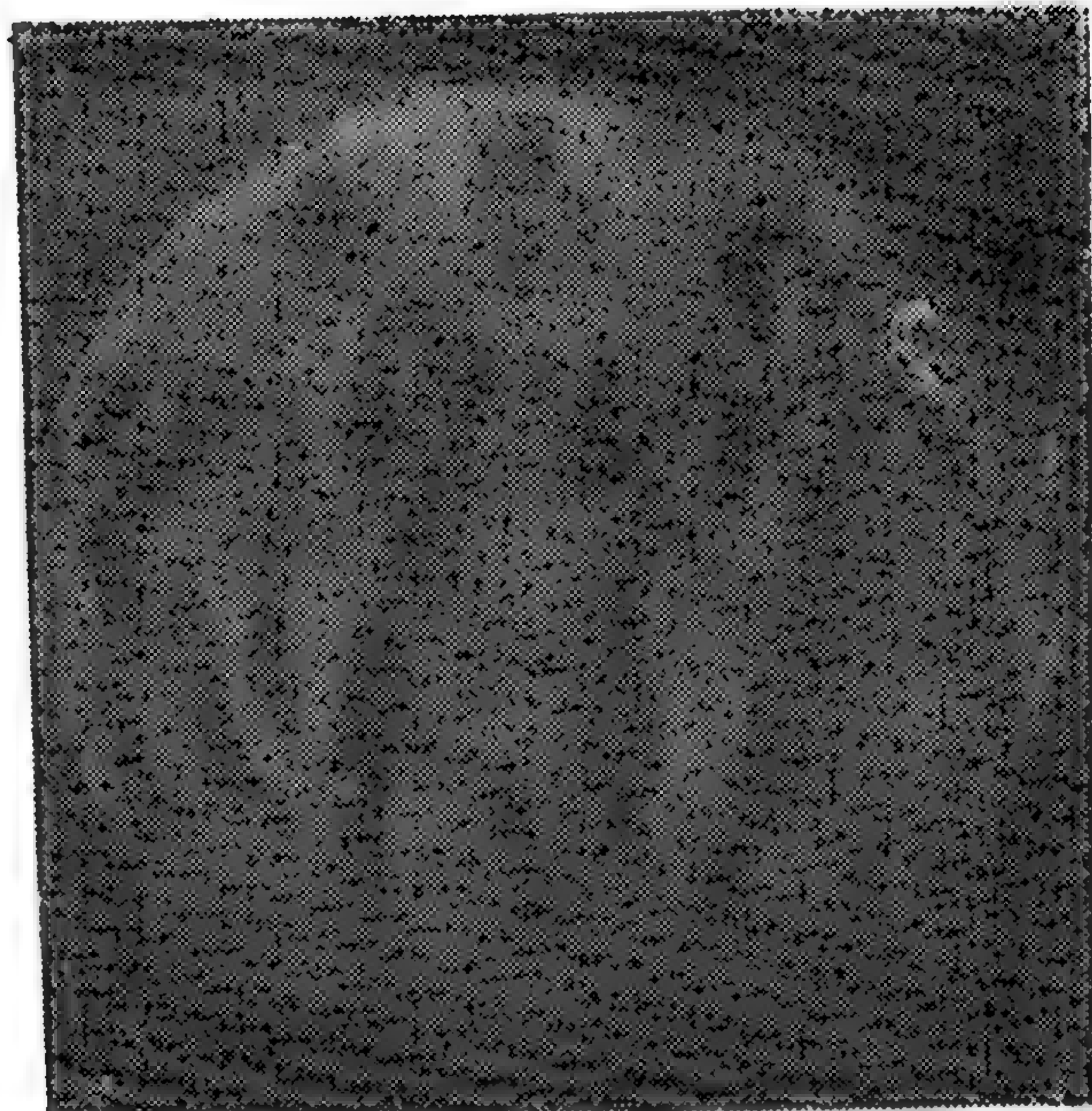
١٨ — من مقابر الأنباط في مدائن صالح



١٩ — اسطون حجرى فى معبد غيلكا بالكوبت



٢. — حلية نباتية في الحجر تعلو معبد فيلكا

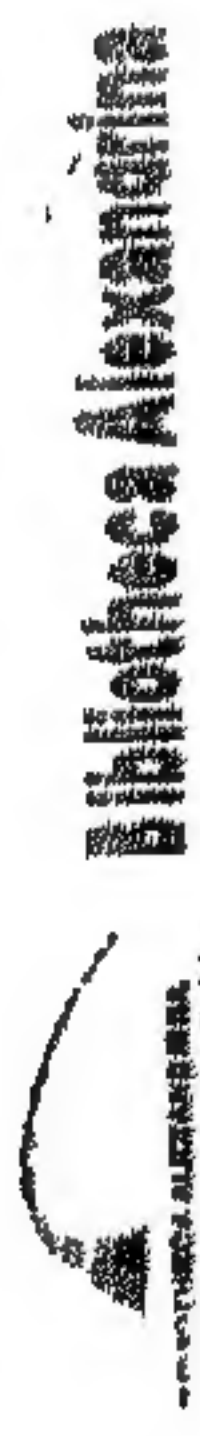


من المؤلفات العامة المختارة عن التاريخ العربي القديم

- أولندر (جونار) : ملوك كندة من أسرة آكل المزار - ١٩٢٧ - مترجم - بغداد ١٣٥٣ هـ .
أحمد فخري : اليمن - ماضيها وحاضرها - القاهرة ١٩٥٧ .
الهمداني (أبو محمد الحسن) : الإكليل - الجزء الثامن - نشره فنيه فارس - بغداد ١٩٣١ .
صفة جزيرة العرب - تحقيق محمد بن علي الأكوخ - الرياض ١٩٧٤ .
بافقيه وبيستون وروبان والغول : مختارات من النقوش اليمنية القديمة - تونس ١٩٨٥ .
بيرن (جماكلين) : اكتشاف جزيرة العرب - مترجم - بيروت ١٩٦٣ .
جامعة الرياض (وعدد من المؤلفين) : مصادر تاريخ الجزيرة العربية . ج ١ ، ٢ - الرياض ١٩٧٩ .
جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء) - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧١ .
حوراني (جورج فاضلو) : العرب والملاحة في المحيط الهندي - ترجمة يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ .
خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٤ .
صالح العلي : محاضرات في تاريخ العرب - بغداد ١٩٥٩ .
عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية - إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ٤ ، جامعة الكويت ١٩٨١ .
المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة - إصدار دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ١٤ ، جامعة الكويت ١٩٨٥ .
شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ، مجلة عالم الفكر - المجلد ١٥ ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٢٩٣ - ٣٢٢ .
فيلبس (وندل) : كنوز مدينة بلقيس - مترجم - بيروت ١٩٦١ .
لأنكستر هاردنج : آثار الأردن - ترجمة عمان ١٩٦٥ .
مظهر الإرياني : في تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٢ .
موسكاتي (سبتيانو) : الحضارات السامية القديمة - ترجمة يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ .
نولدكه (نيودور) : أمراء غسان من آل جفنة - مترجم - بيروت ١٩٣٣ .
نيلسن ، وهومل ، ورودوكاناكيس ، وجروهان : التاريخ العربي القديم - ترجمة فؤاد حسنين - القاهرة ١٩٥٨ .
يوسف رزق الله غنيمه : الحيرة - بغداد ١٩٣٦ .

- Abdel-Aziz Saleh, "Some Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style", Bull. of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. 28, Cairo 1970, 1—31.
- , "The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Gebbanitea of the Classical Writers", BIFAO, 1972, 245—262.
- , "An Open Question on Intermediaries in the Incense trade during Pharaonic Times", Orientalia, 42, 3, 1973, 370—382.
- , "Arabia and the Northern Arabs in Ancient Egyptian Records", Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo Univ., 1978, 2, Part 3, 69—77.
- Albright, W.F, The Archaeology of Palestine, 1962.
- , Dedan (Gesch. und Altes Testament). 1953.
- Altheim, F., u. Stiehl, R., Die Araber in der Alten Welt, 1964–68.
- Beeston, A.F.L., A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962.
- Bowen, R.B., Jr., Albright, F.W., Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, I–II, 1958. f.
- Branden, A. Van den, Histoire de Thamoud; Les Inscriptions Thamoudéens, 1950; Essai de Solution de Probleme Thamoudéens, BR, 1958.
- Grohmann, A, Arabien, Munchen. 1963.
- Hammond, Ph, G, The Nabataeans, 1973.
- Philby, H.J.B., The Background of Islam, Alexandria, 1947.
- Phillips, W., Qataban and Sheba, New York 1955.
- Riddle, J.M., Political History of the Nabataeans ..., 1961.
- Shahid, I., Pre-Islamic Arabia, in Cambridge History of Islam, I, 1970.
- Winnett, F.V., A study of the Lihyanite and Thamudic Inscrptions, Toronto 1937.
- Winnett, F.V., and Reed, W., Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.
- Wissmann, H. von, Himyar, Ancient History, Muséon 1964, 429—497.
- Wissmann, H. von, Zur Geschichte und Landeskunde von alt-Sudarabien, 1964.

تم الطبع
بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعي
المدير العام
البرنس حمودة حسين



0224242